الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 29 - June 2001

مجلة شهرية . العدد التاسع والعشرون . السنة الثالثة . يونيه ٢٠٠١ . الثمن عشرة جنيهات



محمد حسنين هيكل

المؤامرة والسياسة والجريمة

الرأسمالية الجديدة والاحتكار

محمود عبد الفضيل

عمارة مصر والعشوائية

عز الدين نجيب

مكتبة الإسكندرية ومجتمع المعرفة

سلامة أحمد سلامة

عبد الوهاب أفلامه وأغانيه

سمير فريد

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثالثة
العدد التاسع والعشرون
يونية ٢٠٠١

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

محتويات العدد:

كتَّاب العدد:

- **روبرت رايت**... صحفى أمريكى.
- **سلامة أحمد سلامة**... صحفى.
- **سمير فريد**... ناقد فنى.
- **ضياء رشوان** ... خبير بمركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية.
- **عز الدين نجيب** ... فنان تشكيلى.
- **محمد السعيد إدريس**... رئيس تحرير «مختارات إيرانية». مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية.
- **محمد حسنين هيكل** ... صحفى.
- **محمود عبد الفضيل**... أستاذ الاقتصاد بجامعة القاهرة.
- **مرفت عبد الناصر** ... أستاذ الطب النفسى بجامعة ليستر فى إنجلترا.
- **ناصر الرباط** ...أستاذ تاريخ العمارة الإسلامية بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT).

رسوم العدد للفنانين: **محمد حجى ـ نبيل تاج ـ سعد الدين شحاتة**

المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٢ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٢٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٢٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمــــــة..

القِصّة.. والقاص.. والكاتب
حقيقة ملتبسة بالخيال.. وخيال ملتبس بالحقيقة

قد يكون هناك من يستغرب أن يكون موضوع «وجهات نظر» الرئيس هذه المرة.. قصة. أو «يبدو كذلك». والتعبيرُ يظل فى واقع الأمر دقيقاً. إذ رغم كونها فى التصنيف الجامد لموظفى المكتبات وفهارس النشر تندرج – ولا خطأ فى ذلك – ضمن قوائم الروايات، إلا أنها بما فيها وما حولها.. بأبطالها وأدوارهم .. ومن قبل ذلك كله بمؤلفها «تجربته .. ودوره» تظل عملاً خاصاً و«رواية» مختلفة. أقل ماتوصَفُ به أنها ليست مجرد «قصة».. وأنه ليس مجرد «قاص».. وأن «الكاتب» الذى يعرضها لوجهات نظر ليس إلا محمد حسنين هيكل. والذى لم يعرفه القراءُ من قبل «روائياً»، وإن مَلكَ الأسلوب. ولا ناقداً للأدب، وإن قرأ أمهاته، وحفظَ من شعره الكثير.

وإذا كان فى بعض النظريات العلمية البحتة مايقول بأن بعد النقطة القصوى تأتى النقطة الأولى، فإن قصتّنا، التى هى فى عُمومها «أغربُ» من الخيال، تبدو وقائعُها «أقرب» إلى الحقيقة.

القصّة عنوانها: «عملية هبرون». وهبرون هى الخليل باللغة العبرية. والاسم هو الرمز السرى لعملية استخباراتية «مغامِرةٍ ومخاطِرة» خطط لها الموساد الإسرائيلى، بهدف وضع أحد عملائه فى المكتب البيضاوى للبيت الأبيض رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية . ليكون ذلك هو «الضمان النهائى الذى لا ضمان بَعده ولا ضَمان فوقه .. فهو كفيل بأن يُحقِّق لها كل ما تَحلم به ، وأبعَد وأوسَع من الحلم أيضاً». ذلك أن رئيس وزراء إسرائيل – فى القِصّة – يَشعُر أن إسرائيل تَحتاج إلى ضمان أمريكى نهائى يُوَفّر لها طول السنوات القادمة الحاسمة - وفيها التسوية الكاملة النهائية لأزمة الشرق الأوسط - ما لا تَقدِر عليه جَماعات الضغط المؤيِّدة لها ، وما هو أنفع من «أغلبية صديقة من الشيوخ والنواب ، وما هو أقوى من صَفٍّ طويل مُتَعاطِف من رُؤساء تحرير الصحف ومديرى الفضائيات وشركات السينما ».

والقصة فى فصولها ومشاهدها التى تنتقل من عاصمة إلى أخرى.. ومن عوالم علنية، إلى سرية.. ومابينهما من مساحات «غائمة» لايمكنك ابداً أن تعرف لها حدوداً، تروى التفاصيل الدقيقة لوقائع اكثر من مثيرة، يلتبس فيها بالضرورةِ الواقعُ بالخيال.. والقصُ بالمحتمل والممكن.

قراءة «عملية هبرون» – الرواية – لاتكفى فيها مطالعة الفصول والمشاهد أو حتى مابين السطور. بل هى – بحكم ملابسات عديدة – لاتكتمل إلا بقراءة «السيرة الذاتية» لمؤلفها «إريك جوردان». وهو ليس «قاصاً» محترفاً، كما لم يسبق له – فيما هو معلوم على الأقل – أن كان «مُؤلِّفاً» أو «كاتباً» - وإنما هو مَسئولٌ مهمٌّ، ومن أركان العَمَل السرِّى فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. وفى وقتٍ من الأوقات – يعرُف به هيكل – كان «إريك جوردان» «مَسئول العمليات» فى العالم العَرَبى . وفى خاتِمة هذه الفترة من حياته انتُدِبَ للعَمَل فى البيت الأبيض مُستَشاراً للرئيس «رونالد ريجان» مُختَصاً بمُتابعة الإرهاب ، ومن البيت الأبيض وفى إطار مجلس الأمن القومى الذى أداره، قام «إريك جوردان» بمَهام شديدة الحساسية فى الشرق الأوسط !

السيرة الذاتية للمؤلف» تقول أنه فى الستينيات كان مسؤول المخابرات الأمريكية فى ليبيا على عَهد الملِك «إدريس السنوسى» قبل أن يهرب منها فجر يوم ٢ سبتمبر سنة ١٩٦٩ على متن طائرة عسكرية أقلعَت من قاعِدة «هويلس» - قُرب طرابلس - هاربة فى الثانية الأخيرة بعَدَدٍ من «الرجال» اعتَبَرَ جوردان » سَلامتهم ضرورية». (بينهم ضابط بوليس مصرى سابق،أصبح فيما بعد واحِداً من كبار رجال الأعمال العَرَب ، اتَّخذ من جنيف فى النصف الأول من السبعينيات مَقَراً لإدارة أعماله «المتشابكة والمتعددة». كما اتخذ من «إريك جوردان» مُستَشاراً له). قبل أن يختفى الأخير من جنيف ومن أعمال ضابط البوليس المصرى السابق . ليظَهرَ فى واشنطن مُستشاراً للرئيس «رونالد ريجان» لشئون الإرهاب. ثم .. وبعد سنوات اختفاء أخرى، يظهر رجل المخابرات المخضرم فى نيويورك ، ثم يُعاود الظهور فى بعض العَواصِم الأوروبية والعَواصِم العَرَبية - وهو هذه المرة رَجُل أعمال لحِساب نفسه. قبل أن يفاجئ الجميع، أو على الأقل من انتبه إلى كل تلك الملابسات، بروايته التى نشرها فى لندن السنة الماضية.

لايمكن قراءة الرواية إذن، دون أن نضع بين سطورها «معرفتنا بمؤلفها» والذى كتبها – بطبائع الأشياء – «ومخزون تجربته كمسئول كبير فى وكالة المخابرات المركزية لمدَّة ثلاثين سنة عِماد مَعرفته ومَصدَر ثقافته».

تعرض القصة – بين ماتعرض له – إلى نمط أصحاب البلايين العَرَب، والذين اقتربوا على نَحو أو آخر من دوائر السُلطة فى العالم العَرَبى ، وحَقَّقوا ثروات طائلة عن طريق المُثلَّث الذهَبى : نشاط المخابرات - عمليات البترول - تجارة السلاح. كما ترسم وقائعها مشاهد مثيرة للعلاقة المتشابكة والغائمة بين عوالم السياسة والجنس والجريمة.

وفى مقاله لا يقترب هيكل – كما يقول – من هذا العَمَل ناقِداً أدبياً ، وإنما قارئاً سياسياً ، « لا تَشدُّه آفاق الخيال وإنما تَستوقِفه لمحات الحقيقة المنثورة على أرضية العَمَل الأدبى والماثلة على خلفيّته - والظاهرة فى مَشاهِده وحواراته»، موضحاً أن الأكثر إثارة من السياق العام للقِصّة هو ما وراء الوقائع - ووراء النص لأسباب منها: أن هذه أول مرة يكتُب فيها مسئول كبير فى المخابرات المركزية - عَمَل فى الشرق الأوسط وفى العالم العَرَبى بالتحديد - شيئاً عن تجربته فى العَمَل السرِّى بوَصف المسارح والمشاهِد ، والمواقف والحوارات. وفى إطار كتابة الرواية القصصية فإن الكاتب لا يصوغ من الخيال رواية ، وإنما يصوغ من الحقيقة خَيالاً. وهو لا يَستَدعى من العَدَم تفاصيله ، ولكنه يأخُذ من الوقائع هذه التفاصيل». ثم إنه من الواضح انه اختار الأسلوب القصصى لكتابته حتى يُعطى نفسه الفرصة أن يبوح دون انطباق قوانين السرِّية عليه.

وأخيراً فهذه أول مرة يكتب فيها مسئول كبير من المخابرات المركزية وتكون إسرائيل وسياساتها ووسائلها فى تنفيذ هذه السياسات - موضوع كتابته . وحتى إذا كان الأسلوب روائياً قَصَصياً ، فقد جرَت العادة على ان كل ما يَتَعلَّق بإسرائيل مكتومٌ مَحجوب .

فى «وجهات نظر» هذا العدد أيضا هناك مكان للجزائر التى تموج هضابها ووديانها بأحداث يمتد إرث بعضها ويتشابك فى «الزمان والمكان». وهناك مكان لإيران التى تشهد هذا الشهر انتخابات رئاسية يراها البعض المحطة الفارقة فى رحلة الانتقال الصعبة من «الثورة للدولة».

وبعد كل شىء – ورغم كل شىء – هناك مكان «للسعادة». إن كان ذلك مازال ممكناً.

وجهات نظر

المؤامـــرة والســـ



محمد
حسنين
هيكل

١ الحقيقة والخيال

اعترف على استحياء، ومُعتذراً بصدق - لأنني منذ سنوات طويلة اختصرت - ولا أقول حذفتُ تماماً - أدَب الرواية من قراءاتي، وكان ذلك حُكم ضرورات، أو حُكم أولويات تفرض نوعاً من النظام، وإلا فهي الفوضى وَسْط الزحام في أوقات اتسع فيها حَجم المادة المقروءة أو المطلوب قراءتها - باتساع الفضاء - واقعاً وفعلاً.

وحتى لو لم أكن اختصرت أدَب الرواية من قراءاتي فلست أتذكر أنني حاولتُ فيما كَتَبتُ عَرض شيء مما قرأتُ في الأدَب (أدَب الرواية أو أي أدَب غيره) عالمياً أو عَرَبياً - وكان ظني أن ذلك ليس اختصاصي ولا هو دَوري. فالأدَب كله «روائياً أو غير روائي» له أصحابه من النقاد العارفين بأساسه وبنيانه ووظيفته وزخرفه - وأما الآخرون غير هؤلاء النقاد فمُهمتهم أن يقرءوا - يعجبهم ما يقرءونه أو لا يعجبهم - وذلك قصاراهم لا داعي للتجاوُز بعده ولا للتزيُّد.

وبرغم ذلك فإنني الآن على وشك الإتيان بمخالفة مُزدَوَجة للنظام وللاختصاص معاً، وذلك بالإقدام على عَرض «قصة روائية»، وهو اجتراء قد يَشفع لي فيه أن القصة لها بُعد سياسي.

Operation Hebron

(العملية هبرون)

Eric Jordan
London: International Media Group, 2001, 370p.

والحقيقة أنني وَجَدتُ القصة في عُمومها «أغرب من الخيال» - وبالتالي وَجَدتها «أقرب إلى الحقيقة». فالخيال حين تكون له قيمة لا يخترع من العَدَم، وإنما قيمته أن يَصف ما يرى على السطح وتحت السطح - ثم يَغوصُ بعد ذلك إلى «المحتمَل» و«الممكن». وذلك هو الفارق بين «الخيال» قادراً على الخلق، وبين «العَبَث» تائهاً في العَدَم!

والقصةُ الروائية التي أجازف بالاقتراب منها في هذا الحديث عنوانها «العَمَلية هبرون» - وقد صَدَرَت أواخر سنة ٢٠٠٠ - وكان صُدورها في لندن عن «مجموعة الإعلام الدولي»، وهي مُؤسسة جديدة على عالم النشر - فيما يبدو - لأني لم أسمع بها من قبل، ولم أجد لها قائمة مَنشورات سابقة.

ومُؤلف الرواية هو «إريك جوردان»، وقد سمعتُ عنه من قبل، ولكني لم أسمع به «مُؤلفاً» أو «كاتباً» - وإنما سَمعتُ عنه مَسئولاً مُهمّاً في المخابرات المركزية الأمريكية، وهي وكالة لها شأنها على اتساع القارات - كما أنها في منطقة الشرق الأوسط بالتحديد قضية شديدة التعقيد، مُشتبكة - تقريباً - مع كل حَدَث. ولم تكن هناك مُبالغة في الطريقة التي قدَّم بها ناشر القصة لحياة مُؤلفها حين ذكَر في الثنية الخلفيَّة للغلاف وهو يُعَرِّف به أن «إريك جوردان» دبلوماسي أمريكي بارز، وهو في نفس الوقت - وراء المظهر - من أركان العَمَل السرِّي في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وأن مجال نشاطه مُعظمه في منطقة الشرق الأوسط وبعضه تجاوَز هذه المنطقة واسعاً حولها في أوروبا وأفريقيا. وفي وقت من الأوقات كان «إريك جوردان» «مَسئول العمليات» في العالم العَرَبي. وفي خاتمة هذه الفترة من حياته انتدب للعَمَل في البيت الأبيض مُستشاراً للرئيس «رونالد ريجان» مُختصاً بمُتابعة الإرهاب، ومن البيت الأبيض وفي إطار مجلس الأمن القومي الذي يُديره مُستشار الرئيس للأمن القومي قام «إريك جوردان» بمَهام شديدة الحساسية في الشرق الأوسط!

وتلك كلها - وكما وَرَدَت في التعريف بمؤلف القصة - معلومات صحيحة لا مُبالغة فيها ولا تهويل.

وقد سَمَعتُ عن «إريك جوردان» لأول مرة سنة ١٩٦٩، وفهمتُ وقتها أنه مسئول المخابرات الأمريكية في ليبيا على عَهد الملك «إدريس السنوسي»، وأن تكليفه هناك كان مُساعَدة المخابرات الليبية مع بداية نشاتها، وأنه حتى يَتحَقَّق ذلك أو شيء منه فإن «جوردان» يَقود بنفسه فريقاً أمريكياً ومحلياً يُتابع أمن النظام الملكي في سنواته الأخيرة خصوصاً والملك «إدريس» نفسه عَجوزٌ جاوَز الثمانين، واهتمامه بشئون المُلك مَحدود، وهو علاوة على تقدُّم سنِّه لم يُنجب وَليَّ عَهد تاركاً الدَور لابن أخٍ له دون اعتراض ودون حَماسة - وقد تَبَدَّى ذلك للناس زُهداً في الدُنيا، ولعله كان كذلك. لكن المشكلة أن ليبيا بَلَدٌ مُهمٌ للولايات المتحدة الأمريكية - فهي مُمتَدَّة على ثلث الشاطئ الجنوبي للبحر الأبيض، ولها عُمقٌ واصلٌ إلى قلب أفريقيا، مُجاورٌ لستة بُلدان أفريقية هي أفريقيا شمال الصحراء كلها، ثم إن ليبيا مَوطن حقول نفط غنيَّة يُضاعف من غناها أن موانئ شحنها على شاطئ البحر الأبيض مُباشرة وعلى مَوقع نظر من «مالطة» و«جنوب إيطاليا». وأخيراً - وهذا هو الأهم - فإن ليبيا بَلَدٌ مَحدود السكان، وبالتالي مَحدود المشاكل، وخُلاصة ذلك أن البَلَد قاعدة مَطلوبة - مأمونة - لمخَطَطات إمبراطورية - وبالفعل فقد قامت على أرضها قاعدة عسكرية بَريطانية هي قاعدة «العَظم» الملاصقة لـ«طَبرق»، وقاعدة أمريكية كبرى هي قاعدة «هويلس» الملاصقة



ـياسة والجـــريمة!



لـ«طرابلس» ـ وذلك كله : الموقع والبترول والقواعد ـ قابل للحماية بسهولة، شريطة أن يكون الجهد واعياً يرى الخطر إذا لاحَ، ويَسبق الخطر قبل أن يَتأكَّد!

وكان «إريك جوردان» هو الرَّجُل الذى تَحمَّلَ بالمسئولية مُمَثلاً للمخابرات المركزية الأمريكية ومُفَوَّضاً منها!

وفجر يوم ٢ سبتمبر سنة ١٩٦٩، وفى دار القنصلية المصرية ببنغازى، وفى وجود العقيد «معمر القذافى» أمامى فى صالونها يَحكى لى فى أول لقاء بيننا قصة قيام ونجاح ثورة الفاتح من سبتمبر كى أنقل ما أسمعه منه لـ«جمال عبد الناصر» ـ تَردَّدَ أمامى مرة أخرى اسم «إريك جوردان» باعتباره جاسوس المخابرات المركزية «الغامض».

وكان داعى تَردُّد اسمه أن طائرة عسكرية أقلعَت من قاعدة «هويلس» ـ قُرب طرابلس ـ هاربة فى الثانية الأخيرة بعَدَد من «الرجال تَتَعَرَّض حياتهم للخطر إذا تَغَيَّرَت الأحوال فجأة». وكان بينهم «مصرى» هو فى الأصل ضابط بوليس عَمَلَ فى ليبيا، وأصبح مُقَرَّباً من القصر عن طريق عائلة «الشالحى»، وكان الملك «إدريس» يَعتَبر أبناء هذه العائلة أبناء له يَرعاهُم ويُقَرِّبهم. ويَبدو أن ضابط البوليس المصرى السابق كان فى ذلك الوقت وثيق الصلة بهم، ولذلك كان «مَطلوباً».

وكان الظاهر من الروايات أن «إريك جوردان» وهو المسئول عن أمن النظام فى ليبيا فوجئ بقيام الثورة ونجاحها فى ساعات، ولم يَستطع ترتيب عَمَل مُضاد يَتكفَّل بردِّها، وبالتالى أصبَحَ هَمُّه الأول أن يَنجو بنفسه قبل أن يُطبق النظام الجديد حصاره على مَداخل البَلد ومَخارجه، وأن يأخذ معه إلى النجاة «عَناصر» اعتبر سَلامتها ضرورية، وضمنهم ضابط البوليس المصرى السابق الذى أصبح فيما بعد واحداً من كبار رجال الأعمال العَرَب، يَتَّخذ من جنيف فى سويسرا مَقراً لإدارة أعماله. وفيما عَرَفتُ فإنه راكَم ثروة طائلة من نشاط اتسع فشمَل مَجالات عديدة يَرتكز مُعظمها على البترول وصناعته وتجارته.

وبعد سنوات ـ وفى الفترة ما بين ١٩٧٠ و١٩٧٥ ـ ظَهَرَ «إريك جوردان» مرة أخرى نجماً فى مُجتَمَع العَرَب فى جنيف، وإذا هو الآن «مُستَشار» للرَّجُل ـ ضابط البوليس السابق ـ الذى قام بتهريبه من ليبيا فجر يوم قيام الثورة، ثم إذا هو مَسئولٌ عن جانب من نشاطه التجارى والمالى. والواقع أن ذلك كان نموذجاً تَكَرَّرَ كثيراً فى علاقات عَدَد من رجال الأعمال العَرَب «الجُدُد» مع مسئولين سابقين فى المخابرات الأمريكية والأوروبية، فقد جَمَعَتهم الظروف معاً فى أيام سَبَقَت، ثم تَغَيَّرَت الأحوال فإذا الطَّرَف العَرَبى رَجُل أعمال كبير، وإذا الموظف الأمريكى أو الأوروبى السابق يَبحَث عن فُرصة ـ يَجدها فى خِدمة صديقه الذى عَرَفه ذات يوم.

والمهم أنه فى الثمانينات اختفى «إريك جوردان» من جنيف ومن أعمال ضابط البوليس المصرى السابق، ثم ظَهَرَ فى واشنطن مُستشاراً للرئيس «رونالد ريجان» لشئون الإرهاب.

ومَضَت سنوات واختفى «إريك جوردان» من واشنطن ليَظهَر فى نيويورك، ثم يُعاود الظهور فى بعض العَواصم الأوروبية والعَواصم العَرَبية ـ وهو هَذه المرة رَجُل أعمال لحساب نفسه.

وأخيراً سنة ٢٠٠٠ أطلَّ «إريك جوردان» على الساحة مُؤَلِّفاً لقصة روائية ظَهَرَت فى لندن تحت عنوان «العملية هبرون»، ثم وَصَلَت إلىَّ من صديقٍ غالٍ اقترح «أن أقرأها، مُؤكِّداً لى أن قراءتها ليست مَضيعة لوقتى». وتلَكَّأتُ أسابيع قبل قراءة القصة، فلم يَخطُر لى أن فيها ما يَعنينى. ثم كان أن وَجَدتها أمامى ذات ليلة بَحَثتُ فيها عن «شىء» لا يَعلق منه بالفكر أثرٌ أقرؤه قبل أن أنام دون خَطَر من إثارة خَواطر تَتداعى ولا تَتوَقَّف. وكان أننى لم أنم ليلتها حتى فَرَغتُ من قراءة القصة كلها ـ ٣٧٠ صفحة!

□

وقائع القصة ـ وكاتبها خبيرٌ يَعرف الناس والأجواء ـ تَتَلَخَّص فيما يلى :

رئيسٌ أمريكى من الحزب الجمهورى اسمه الرئيس «دوجلاس» يُراوِدُه شعورٌ بأن إسرائيل تُغالى فى طلباتها من الولايات المتحدة لدَرَجَة تُؤدى لتَعريض المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط للخَطَر. ورغم أنه يَتَجاوَب «بالأفعال» مع المطالب الإسرائيلية، إلا أنه فى «النوايا» يُحاول نوعاً من المقاومة. وهو على وَشك أن يترك البيت الأبيض بانتهاء مُدَّة رئاسته، لكنه غير مُطمَئن إلى أن مُرَشَّح حزبه الطبيعى فى الانتخابات القادمة، وهو نائب الرئيس «هيز» ـ يَملك الكفاءة اللازمة لمُقاومة طلبات إسرائيل فى «الأفعال» أو فى «النوايا» ـ ثم إنه يَعرف أن المُرَشَّح الديمقراطى فى هذه الانتخابات القادمة وهو عُضو الكونجرس «ويستليك» صَديقٌ حَميم لإسرائيل، ومُستَعدٌ لتلبية كافة طلباتها مهما كان ضَرَرُها على المصالح الحقيقية للولايات المتحدة الأمريكية فى الشرق الأوسط.

ويَحار الرئيس «دوجلاس» كيف يَتَصَرَّف؟ ـ ثم يَحزم رأيه على إقناع أحد زُعَماء الجمهوريين الكبار ممن يَثق فيهم، ويَعرف صدق وَلائهم لوَطَنهم الأمريكى، وهو السناتور «جونسون»، حتى يَدخل المعركة ساعياً للحصول على ترشيح نفسه ويَفوز بتَرشيح حزبه فى مؤتمره القادم، ثم يَخوض انتخابات الرئاسة عن الجمهوريين.

ومع أن الرئيس «دوجلاس» مُضطَرٌ فى العَلَن إلى إظهار تأييده لترشيح نائبه الضعيف «هيز» فإنه من وراء الكواليس يَدعو لـ«جونسون»، وأكثر من ذلك فهو مُستَعدٌ لإقناع «هيز» بأن يَقبَل دخول المعركة القادمة نائباً للرئيس مع «جونسون» أيضاً كما هو الآن معه هو («دوجلاس»). وهو يَظُن أن نائبه بضَعف شخصيته مُستَعدٌ للقبول لأن مَنصب «نائب الرئيس» «فى اليَد خيرٌ من مَنصب «الرئيس» على الشجَرة»!

وعبر المحيط وعبر البَحر وعلى الناحية الأخرى من الكرة الأرضية فإن دائرة صُنع القرار فى تل أبيب يُساورها قلق. وداعى القلق أن رئيس وزراء إسرائيل واسمه فى القصة «أهارون إيشيل» يُشعُر أن إسرائيل تَحتاج إلى ضمان أمريكى نهائى يُوَفِّر لها طول السنوات القادمة الحاسمة ـ وفيها التسوية الكاملة النهائية لأزمة الشرق الأوسط ـ ما لا تَقدر عليه جَماعات الضغط المؤيِّدة لها، وما هو أنفع من أغلبية صديقة من الشيوخ والنواب، وما هو أقوى من صَفٍ طويل مُتَعاطف من رُؤساء تحرير الصحف ومديرى الفضائيات وشركات السينما.

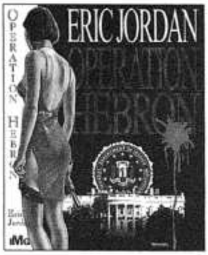
ووَسَط هذه الهَواجس يَجىء رئيس المخابرات الإسرائيلية (الموساد) «بنيامين شتيرن» إلى رئيس وزرائه بخطة جَسورة لا تَخطُر على خيال، مُؤدَّاها أن إسرائيل بمقدورها أن تَضَع أحد عُملائها فى المكتب البيضاوى للبيت الأبيض رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية. ويكون ذلك هو الضَمان النهائى الذى لا ضَمان بَعده ولا ضَمان فوقه. فهو كفيل بأن يُحَقِّق لها كل ما تَحلم به، وأبعَد وأوسَع من الحلم أيضاً!

لكن رئيس الوزراء «إيشيل» خائف لأن العملية مُعَقَّدة إلى درجة تُصعِّب إدارتها وقد تَستَحيل سِرِّيَّتها ـ وإذا انكشف أمرها فى الولايات المتحدة انتهى النفوذ الإسرائيلى كله فى لمحة بَصَر لأن الرأى العام الأمريكى سوف يرى بعينيه تصميم إسرائيل «للسيطرة على قراره» و«اللعب بمُقَدَّساته»، و«استغلال الديمقراطية الأمريكية» ضِدَّ «روح هذه الديمقراطية» وضِدَّ «الأمن القومى الأمريكى»، وذلك وَضعٌ لا يُجدى معه رَتقٌ أو تَرقيع كما حَدَث عندما انكشف أمر الجاسوس الأمريكى «بولارد» الذى كان يُسَرِّب إلى «الموساد» وَثائق وأسرار المخابرات الأمريكية العسكرية والسياسية، ومما اعتُبِرَ تهديداً للأمن القومى. وتَرَتَّب عليه أنه لم يَعُد فى مَقدور أى رئيس أمريكى مهما كانت دَرَجة انبهاره بإسرائيل أن يُصدِرَ عَفواً عنه (وكان «كلينتون» آخر هؤلاء الرؤساء الأمريكيين الذين أرادوا لكنهم فشلوا)!

أخيراً وبعد تَردُّد يَقبَل رئيس الوزراء «إيشيل» باقتراح مدير الموساد «بنيامين شتيرن». فهو اقتراح يَنطوى على مُجازفة خطيرة لكنه يَستحق المغامَرة مع أخذ كل الاحتياطات اللازمة ـ وحتى غير اللازمة.

وهكذا يُكلِّف «تيرون» وهو مدير مكتب «الموساد» فى واشنطن بأن يكون مسئولاً عن العملية «هبرون» بالتنسيق المباشر مع الجنرال «شتيرن» مدير «الموساد». كما أن «تيرون» يَحصل على صَلاحية الاتصال المباشر «برئيس الوزراء إيشيل» على تليفونه الخاص وفى غرفة نومه ـ إذا وَجَدَ داعياً يَقتَضى ذلك ليلاً أو نهاراً!

وفى وَسَط هذه العملية الكبرى تَجرى وقائع القصة، وفيها يَظهَر أن «الموساد» رأى ضرورة تَصفية أحد السفراء الأمريكيين جَسَدياً ـ وهذا السفير هو «ريتشارد سورنسون» مُمَثِّل الولايات المتحدة فى عاصمة السوق الأوروبية «بروكسل»



(بلجيكا) ـ والداعى إلى القتل أن السفير «سورنسون» صديق شخصى للرئيس «دوجلاس» ـ وكان مدير حملته الانتخابية قبل تعيينه سفيراً ـ لكنه الآن من موقعه فى بروكسل يقوم باتصالات مع بعض الأطراف العَرَبية، وهى اتصالات مُتعَدِّدة الأهداف : فيها الاتصال لمجرد الاتصال (أى المعرفة عن قُرب)، وفيها الترويج لمبيعات (بينها السلاح)، وفيها التمهيد لمقترحات وصِيَغ (تخدم مُفاوضات السلام قبل بَدئها وعند تَوَقُّفها).

والسفير «سورنسون» ليس صديقاً لإسرائيل، ومشاعره نحوها ليست جَلِيَّة بما فيه الكفاية. ولأن تأثيره على الرئيس «دوجلاس» زائد، فإن بقاءه فى منصبه قد لا يكون له لزوم من وجهة نظر إسرائيل. ونظراً لأن استهدافه بحَملة تشويه لسُمعَته قد يَجِيء بأثر عُكسى يضطر الرئيس للوقوف دفاعاً عنه أو عن نفسه ـ وهو أمرٌ غير مطلوب خصوصاً وإسرائيل على وَشك أن تبدأ العملية «هبرون» ـ إذن فإن الحَلّ المناسب هو تَصفية «سورنسون»، وتلك عملية سهلة لأن السفير «زير نساء» لا يستطيع مُقاومة «ساق عارية» و«صَدر نافر»، و«شفاه من حَبّات «الكَرز» تُنادى شفاهاً غيرها وتنفجر عندما تتلامَس الشفاه!»

وقد وَجَدَ «الموساد» هذه المواصفات المطلوبة لغواية «سورنسون» فى فاتنة صربية الأصل اسمها «جاكى ماركوفيتش»، وشخصيتها مَزيج خطر من القوة والقسوة، فهى مُصابة بالعُقَد من طفولتها لأن زوج أمها اعتدى عليها بانتهاك بَراءتها، وبَعدها ـ كذلك يَظهَر ـ فإنها خرجَت تنتقم من كل رَجُل خصوصاً إذا كان فى عُمر زوج أمها، أى فى منتصف الحياة، فلا هو الشباب ولا هو اليأس، وعليه فاستعدادهم للغواية يَسبق تَعَرُّضهم لها ـ وذلك ينطبق على السفير «سورنسون».

ويَتّضح من القصّة ـ والكاتب خبير مُجَرِّب ـ أن مخابرات الدُوَل الكبرى حين تُقَرِّر التصفية الجسدية لشخص لا تُمارس القتل بعملائها، وإنما تلجأ إلى فئة من «القتلة الدوليين» جاهزين للعَمَل طبقاً لعقود، وقيمتهم أنه يَصعُب الوصول إلى آثارهم، بواقع أنه ليس لهم وجود فى الحياة السابقة لضحاياهم ـ ومن ثم فهم ليسوا على قائمة المشتبه فيهم بالدافع إلى الجريمة. وأصعَب الجرائم استعصاء على الكشف هى الجريمة التى لا دافع لها عند القائم بها، فنقطة البداية فى أى تحقيق جنائى تبدأ عادة بالبحث عن «المستفيد من الجريمة»، فإذا لم يكن هناك مُستفيدٌ تأخّر أو تَعَذّر الإمساك بخيطٍ يُؤدّى إلى فاعل.

يَتّضح أيضاً فى السياق أن المخابرات المُتَمَرّسة فى عملها حين تُكلّف قاتلاً مُحترفاً بعملية تصفية جَسَدِيّة لا تفعَل ذلك مُباشرة، وإنما تُفَضّل أن يَصدُر التكليف عن غيرها، أو على الأقل أن يبدو كذلك.

وكان ذلك ما حَدَث بالضبط فى تكليف «جاكى ماركوفيتش» الصربية الفاتنة باغتيال «سورنسون» السفير الأمريكى فى «بروكسل».

وفى هذه الحالة فإن «الموساد» تصَرّف بحيث ظنّت «جاكى ماركوفيتش» أن التكليف، أى العَقد، الذى جاءها باغتيال السفير الأمريكى صَدَرَ عن المخابرات الإيرانية.

ثم حَدَث بعد «تصفية سورنسون» فعلاً أن «جاكى» لم تَجد قيمة عَقدها كما هى العادة فى حسابها فى البنك ـ وتحَقّقت من الخديعة، وراجَعَت مُمثلى «الموساد» فأنكروا، وأحَسّت أنهم فوق استغلالها يريدون «أكل حقها» بعد تنفيذ ما طَلَبوه منها فى «بروكسل»، وقَرّرَت بجرح امرأة عَرَفت من قبل ألم الجراح ـ أن تنتقم.

وفى يوم إعلان نتائج الرئاسة الأمريكية كانت «جاكى ماركوفيتش» على موعد مع الانتقام من «تيرون» مسئول «الموساد» فى واشنطن ـ فقد كان هو الذى أنكَرَ عليها تحويل قيمة عقدها مُصَمّماً على أن تكليفها كان من الإيرانيين وليس من الإسرائيليين ـ وليلتها تَعَقّبَت «تيرون» إلى موعد سِرّى ذَهَب إليه (ولم تكن تعرف) أنه لقاء مَع «هبرون» ـ العميل الذى ساندته إسرائيل ليصِل إلى المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض.

وهكذا فإن «جاكى» تُفاجئ مدير «الموساد» فى واشنطن «تيرون» فى لحظة انتصاره الأعظم بعد نجاحه فى وَضع عميل لإسرائيل فى المكتب البيضاوى للبيت الأبيض ـ وتُصَوّب إليه رصاص امرأة مَجروحة مُصَمّمة على الانتقام منه، وبالفعل تقتُله ـ لكنها تقتُل معه رَجُلاً آخر يَتّضح أنه رَجُله المختار «هبرون»، وهو فى نفس الوقت الرئيس الأمريكى المنتخب الجديد.

وهكذا فإن إسرائيل فى ذروة تحقيق أوسَع أحلامها خَسِرَت ـ بمجرد مصادفة ـ عميلها الجاهز للرئاسة الأمريكية (فى ظروف حاسمة ونهائية) فى البيت الأبيض ـ وضَيّعَت برصاص امرأة مَخدوعة ومجروحة ومُعَقّدة ـ مدير محطة «الموساد» فى واشنطن والرَجُل الذى حَقّق لإسرائيل خيالها المستحيل.

□

هذا هو السياق العام للقصّة الروائية، وهو مثير، لكن الأكثر إثارة هو ما وراء الوقائع ـ ووراء النص لأسباب :

١ ـ لأن هذه أول مرة يكتُب فيها مسئول كبير فى المخابرات المركزية ـ عَمَل فى الشرق الأوسط وفى العالم العَرَبى بالتحديد ـ شيئاً عن تجربته فى العَمَل السِرّى بوَصف المسارح والمشاهد، والمواقف والحِوارات. وقد كَتَبَ كثيرون قبل «إريك جوردان»، لكن كتابتهم كانت مُقَيّدة بما يمكن نشره من الوقائع، وبما يمكن السماح به من تحليل وتعليل. وفى إطار كتابة الرواية القصصية فإن الكاتب لا يصوغ من الخيال رواية، وإنما يصوغ من الحقيقة خيالاً. وهو لا يَستدعى من العَدَم تفاصيله، ولكنه يأخُذ من الوقائع هذه التفاصيل.

٢ ـ إن هذه أول مرة يكتب فيها مسئول





كبير من المخابرات الأمريكية عَمَلاً من هذا النوع. ومن الواضح أنه اختار الأسلوب القصصي لكتابته حتى يُعطي نفسه الفرصة أن يبوح دون انطباق قوانين السرِّية عليه، ودون أن يُساءَل عما إذا كان استغل طبيعة وظيفته ليفشي أسرار أحداث وطبائع بَشَر، وعلاقات تكشف وتُعلن ما كان يصح أن يبقى عليه غطاؤه وستره!

٣ ـ وأخيراً فهذه أول مرة يكتب فيها مسئول كبير من المخابرات المركزية وتكون إسرائيل وسياساتها ووسائلها في تنفيذ هذه السياسات ـ موضوع كتابته. وحتى إذا كان الأسلوب روائياً قصصياً، فقد جرت العادة على أن كل ما يتعلَّق بإسرائيل مكتومٌ محجوب.

....

....

هكذا قدَّرتُ خصوصية رواية «العملية هبرون» من أول صفحة ـ وكذلك قرأتها مرة واحدة ـ ٣٧٠ صفحة ـ ثم وجدتني بعد ذلك أغامر بعرضها داخلاً إلى اختصاص ليس لي، وفي مجال اختصرت وقتي معه.

وربما أضيف أنني لا أقترب من هذا العمل ناقداً أدبياً، وإنما قارئاً سياسياً، لا تشدُّه آفاق الخيال وإنما تستوقفه لمحات الحقيقة المنثورة على أرضية العمل الأدبي والماثلة على خلفيته ـ والظاهرة في مشاهده وحواراته.

والواقع أن هذه اللمحات من الحقيقة الملتبسة بالخيال ـ أو الخيال الملتبس بالحقيقة ـ هي بالضبط ما يعنيني! ■

٢ مؤامرة لصناعة رئيس أمريكي!

■ ■ وقائع قصة «العملية هبرون» (التي كتبها «إريك جوردان») تجري بطول خمسة وعشرين فصلاً (٣٧٠ صفحة) ـ تبدأ حوادثها من الفصل الثاني للرواية لأن الفصل الأول تشويق بوليسي لا داعي له هنا، وبعده تتوالى وقائع القصة بداية من الفصل الثاني.

ومشاهد هذا الفصل الثاني تقع في مكتب «أهارون إيشيل» رئيس وزراء إسرائيل (من المحاربين القدامى في السويس) وهو يستعد لاجتماع على درجة عالية من السرِّية تُناقش فيه تفاصيل خطة «العملية هبرون»، وهي خطة تقدم بها إسرائيل على مخاطرة كارثية الأبعاد لو انكشفت. لكنه إذا نجحت العملية فإن إسرائيل سوف يكون لها في البيت الأبيض عميل يجلس في المكتب البيضاوي رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية لأربع سنوات ـ قابلة للتجديد أربع سنوات أخرى، ويكون ذلك في فترة حاسمة من تاريخ الشرق الأوسط، أي أن «رجل إسرائيل» على قمة السلطة في مقدوره أن يمكن لها من ترتيب أمنها النهائي وسيطرتها الكاملة حيث تريد: في موقعها، وحول محيطها الأقرب والأبعد ـ بما يجعلها في القرن الواحد والعشرين لاعباً أساسياً على مسرح العالم.

ورئيس الوزراء الإسرائيلي يظهر في المشهد الأول من القصة وهو يتحاور مع الجنرال «بنيامين شتيرن» مدير «الموساد» (المخابرات العامة الإسرائيلية).

ومن خلال الحوار تظهر أول إشارة إلى تلك الخطة التي يعرضها مدير «الموساد». ويبين من مجرى الحوار أن رئيس الوزراء قادر على تصور إمكانية النجاح ـ لكنه خائف من جسارة المخاطرة. ثم هو قلق من التكاليف المبدئية المقدرة لإنجاحها ـ ويخشى أنها كبيرة رغم تواضعها (في مقاييس آخرين من غير الإسرائيليين ـ خصوصاً لو كانوا من العرب!)

ومن كلام مدير «الموساد» تظهر دوافع إسرائيل إلى تلك المغامرة «المريعة» إذا انكشفت، و«البديعة» إذا نجحت.

ومع أن مدير «الموساد» في حواره مع رئيس الوزراء لا يُنكر نفوذ إسرائيل في واشنطن حتى بدون «العملية هبرون» ـ لكنه كما يقول «لا يستطيع أن يضمن» ـ ويرى شواهد تجعله لا يطمئن، وهو يعد من هذه الشواهد ثلاثة:

● «مرات يُلحّون علينا ـ يقصد الأمريكان ـ حتى نتجاوب مع بعض المطالب الفلسطينية ولو «بطريقة تجميلية» يتوهمون بذلك أنهم قادرون على تهدئة مشاعر أصدقائهم من الزعماء العرب، وتسهيلاً عليهم حتى يتمكنوا من احتواء «هوس» شعوبهم المعادية لإسرائيل».

ويستطرد مدير «الموساد» في هذا الموضع فيقول لرئيس الوزراء: «يتصورون (أي الأمريكان) أن هناك «سلاماً» ممكناً في المنطقة، ونحن كما تعلم «يا سيدي» نُرتِّب خططنا على أساس أنه لن يكون هناك في يوم من الأيام «سلام». وفي ربع القرن الأخير حاولنا شغل العرب بأعداء آخرين غيرنا، وظهر أن ذلك في إمكاننا: ففي ثلث هذه المدة اعتبر العرب أن عدوهم هو روسيا ـ وفي الثلث التالي اعتبروا عدوهم هو إيران ـ وفي الثلث الأخير كان العدو هو العراق ـ لكن العرب لا يثبتون عند رأي، وهم يعودون إلينا في نهاية المطاف لأننا «العدو المفضل» لديهم!»

يواصل مدير «الموساد» عد الشواهد التي تجعله لا يطمئن:

● «الأمريكان يريدون منا ـ أيضاً ـ أن تكون علاقاتنا بأوروبا عن طريقهم ـ ولا تعجبهم علاقاتنا مع ألمانيا، وهم يلحون علينا في معرفة تفاصيلها ودقائقها. ونحن والألمان معنا نفضل الكتمان، ولا نعرف لماذا هو حق الأمريكان أن يعرفوا كل شيء ـ دائماً ـ وفي وقته!»

● هُم كذلك ـ الأمريكان أيضاً ـ لا يُقدّرون تماماً ضرورات تعاملنا مع روسيا ومع الصين. وقد تململوا لأننا بعنا للصين بعض المعدات التكنولوجية وفيها ما جاءنا عن طريقهم. والظاهر أنهم يعتبرون مساعداتهم لنا مبرراً يسمح لهم بالوصاية على تصرفاتنا. ومع أنهم لم يعرفوا إلا بجزء بسيط عن صفقاتنا مع الصين، إلا أنهم مع ذلك عاتبوا وحاسبوا، ولو أنهم عرفوا كل الحقيقة لأصابهم مس من الجنون يصل بهم إلى حد الفرقعة!

وهذه شواهد لا تجعلنا قادرين على النوم بلا أرق!»

....

....

[خلال جريان وقائع هذا الفصل تظهر «امتيازات» جواسيس «الموساد» عندما يقومون بعملياتهم السرِّية سواء بمفردهم أو بمعونة وحدات من القوات الخاصة. ويتضح أن حجم الامتيازات التي يتمتع بها كل «عميل سرِّي خاص» يؤكد بالكامل تلك المقولة الشائعة عن أن كل عميل «للموساد» له في إسرائيل وضع «أمير». و«أمراء الموساد» في مواقعهم حيث يكونون وفي أي مكان من العالم ـ معهم من الوسائل ما يمكنهم من الاتصال بقاعدتهم في تل أبيب، وهم عند الضرورة قادرون على الاتصال بمدير «الموساد» مباشرة، وهم في أحوال الضرورة القصوى قادرون على الاتصال دون وساطة مع مكتب رئيس الوزراء.]

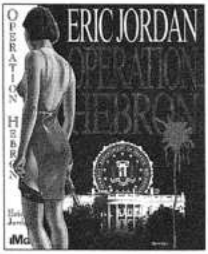
....

....

[تؤيد ذلك الوضع لجواسيس «الموساد» ولوحدات العمليات السرِّية الخاصة وثيقة سرِّية إسرائيلية (من عوالم الحقيقة وليس من خيال القصص)، وقد اطلعت على مضمونها فيما قرأت وأشرتُ إليه فيما كتبتُ عن «سياحة في الوثائق الإسرائيلية» (ظهرت على خمس حلقات في هذه المجلة).

وفي هذه الوثيقة السرِّية ☛

مسئول كبير في المخابرات الأمريكية يكتب قصة. والغالب أنه اختار هذا الأسلوب ليبوح دون أن تنطبق عليه قوانين السرية



(وأكرر أنها حقيقية وليست روائية) وهي خاصة بوقائع قيام مجموعة عمليات خاصة من «الموساد» ووحدات الكوماندوز باغتيال عدد من قادة المقاومة الفلسطينية في تونس، وأهمهم «أبو جهاد» الرجل الثاني في منظمة التحرير الفلسطينية. ويومها (١٦ أبريل ١٩٨٨) تبين أن «إسحاق رابين» - وزير الدفاع وقتها - كان موجوداً بنفسه في طائرة تحوم حول العاصمة التونسية قريباً من مسرح العملية، وكان داعي وجوده في الأجواء القريبة - وفق الخطة - انه إذا حدث لسبب ما وفشلت العملية والقى القبض على أعضائها - أن يتوجه مباشرة إلى مطار «فاس» ويقابل الملك «الحسن» ويطلب تدخله فوراً مع الحكومة التونسية لإنقاذ «عملاء إسرائيل» وتأمين الإفراج عنهم. وكان بعض المتصلين بإسرائيل من المقربين للملك موجودين في مطار «فاس» بترتيب مسبق (لعلهم لم يعرفوا هدفه). كما أنه لا يبدو في ظاهر الوثيقة أن الملك «الحسن» نفسه كان يعرف عن العملية شيئاً. لكنه لسبب ما كان «رابين على ثقة أن الملك سوف يقابله وسوف يساعده!» (كذلك يبدو في الوثيقة محسوساً به وإن لم يكن منصوصاً عليه!)]

....

....

□

في نفس الفصل يتبين أن القرار الأمني السري في إسرائيل موكول إلى لجنة لا يزيد عدد أعضائها في العادة على خمسة : رئيس الوزراء - ووزير الدفاع - ومدير «الموساد» (المخابرات العامة) - ومدير «آمان» (المخابرات العسكرية) - ورئيس الأركان. وفي أحوال غير عادية يمكن دعوة مسئول واحد مع الخمسة بحسب قرب اختصاصه من تنفيذ أي قرار أمني سري. فهو وزير المالية إذا كانت للقرار تكلفة تتخطى الميزانية المقررة لهذا النوع من النشاط - أو هو مدير محطة مخابرات بالذات يقع تنفيذ القرار الأمني السري في اختصاصها - أو هو وزير العدل إذا كانت للقرار الأمني السري مضاعفات قانونية محتملة.

ويبين أن لجنة القرار الأمني السري - لجنة الخمسة - لا تجتمع في موعد معين أو في مقر معين، وإنما يتم تبليغ أعضاء اللجنة بأي اجتماع قبل موعده بساعات قليلة، والتبليغ بموعد الاجتماع ومكانه يتم مباشرة بهمسات شفاه. وطبقاً لوقائع هذا الفصل من رواية «إريك جوردان» فإن الاجتماع الأمني السري هذه المرة في مزرعة وسط قرية «هولون» على الطريق ما بين القدس وتل أبيب، وهي مزرعة مساحتها سبعة أفدنة - مملوكة لـ«جيروم شتيرن»، وهي شقيقة لمدير «الموساد» (ويشار عرضاً في الحوار إلى أن المزرعة مشتراة بأموال «الموساد» وأن «جيروم شتيرن» مالكة لها - على الورق وأمام الناس).

وفي هذا الفصل من رواية «إريك جوردان» فإن أهمية موضوع «العملية هبرون» - وهو غير عادي بالمرة! - اقتضت دعوة ثلاثة مسئولين للمشاركة، وليس واحداً حسب القاعدة المرعية في اجتماعات الخمسة، وأول هؤلاء كان وزير الخارجية «إدموند روثبرج» - والثاني كان «جرشون لاهاف» وزير المالية - والثالث كان «دافيد تيرون» مدير محطة «الموساد» الضخمة في واشنطن.

وفي هذا الفصل من روايته يصف «إريك جوردان» صورة لوقائع الاجتماع (كما تخيلها - أو كما سمع عنها - أو كما عرفها - فالخيال هنا ملتبس بالحقيقة، أو لعلها الحقيقة ملتبسة بالخيال).

وحسب وصف «إريك جوردان» فإن «جيروم» أخت الجنرال «شتيرن» مدير «الموساد» تظهر وهي ترتب قاعة الجلوس في بيتها الريفي، وكأنها تستعد لمناسبة اجتماعية من نوع ما تقيمه كل أسبوعين أو ثلاثة. ويظهر أنها منذ اشترت المزرعة - أو اشتريت لها المزرعة - وكان ذلك قبل أربع سنوات - استضافت هذا النوع من اللقاءات - الأمنية السرية - مرتين بالعدد لأن التكرار بغير حذر قد يكشف الهدف، وهي نفسها لا تعرف أحداً من ضيوفها هذه الليلة ولا نوع شواغلهم، لكن أخاها الجنرال «شتيرن» يعرف كل شيء.

وشقيقها - مدير «الموساد» - يسبق كل الضيوف إلى بيتها ومعه زوجته، حتى يبدو التجمع إلى آخر تفصيل فيه مناسبة اجتماعية. ومع وصول بقية الضيوف، يسمع رنين الكؤوس ولا يشرب أحد، ويعلو صوت موسيقى ولا يسمع أحد، لأن الكل توجهوا إلى مكان منعزل في المزرعة ومؤمن، فالجنرال «شتيرن» يعتبر أن أهم أساليب التأمين المحكم لأي اجتماع أن يتقرر موعده في الساعة الأخيرة، وأن يتقرر مكانه بتلقائية الثانية الأخيرة!

وطبقاً للقصة الروائية «العملية هبرون» (صفحة ٢٧) - يبدأ رئيس الوزراء «إيشيل» اجتماع الخمسة (الثمانية هذه المرة) بعرض «سره الأكبر» فيقول :

«إننا نجتمع الليلة - يا أصدقائي -





لنبحث أمراً شديد الخطورة ـ وهذا الأمر سواء كانت نتيجته للأفضل أو للأسوأ ـ سوف يُؤثر على مستقبل الدولة وعلى مستقبل الشعب اليهودى فى العالم أجمع. وأصارحكم أن المسئولية التى تُطرح نفسها عليكم الليلة هى المسئولية الأثقل فى تاريخنا، والعُقدة فيها أن نجاحها غير مضمون، لكنها إذا نُجحت فإن نتائجها سوف تفوق أى حلم، ولذلك فهى تُساوى المخاطرة. وباختصار فإننى أطلب إليكم الليلة أن تعطوا لـ«الموساد» تفويضاً سياسياً ومالياً لعملية سرية هى الأشد حساسية والأكثر جسارة فى كل ما قُمنا به حتى الآن، لأن هدفها إنجاح عميل لنا فى انتخابات الرئاسة الأمريكية، وهذا العميل هو الآن عُضوٌ فى مجلس الشيوخ ونحن نريد أن نجعله رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية».

ويتوقَّف «إيشيل» وينظر حوله إلي وُجوه رفاقه ليَتَبَيَّن أثر ما أفضى به للتو. وحين يَجد مَلامحهم جميعاً مأخوذة بالصدمة ـ يواصل كلامه تأكيداً لخطورة ما قال، ورغبة فى تعزيز نفاذه إلى عُقولهم :

«عُضوُ مجلس الشيوخ الذى أتحدَّث عنه عميل لنا منذ سنوات، ونحن نحافظ على سرية اسمه بإجراءات أشد مما نتَّخذه فى المحافظة على ترسانتنا النووية. ونحن نُطلق عليه الاسم الرمزى «هبرون» (الخليل) ـ وبسبب هذه السرية المنيعة فإن «هبرون» استطاع أن يُقدِّم للدولة معلومات لا تُقدَّر بثمن. و«هبرون» الآن يتَصوَّر، ونحن نتصوَّر معه، أن لديه فرصة للنجاح فى انتخابات الرئاسة، وهو يرى، ونحن نرى معه، أن حظوظه كبيرة، وإذا تحقَّق ذلك فمعناه أنه فى ظرف شهور من الآن سوف يكون الجالس فى موقع القرار الأمريكى الأعلى «رَجُلنا» ـ بالفعل وليس بالمجاز، وبالوظيفة وليس بالتعاطف. لكنه قبل ذلك علينا أن نساعده حتى يَجتاز مَراحل الانتخابات الأولية ويَحصُل على ترشيح حزبه، والباقى بعد ذلك مُمكن وإن كنت لا أقول أنه سَهل. ما أطرحه الآن هو أن نعطى لـ«الموساد» إشارة بالموافقة. لاحظوا أنه إذا نُجح «هبرون» ـ فإن «الموساد» يكون قد صَنَع للشعب اليهودى ذلك «المسيح المنتظر» الذى يَتحدَّث عنه «العَهد القديم» مُنقذاً ومُخلِّصاً. وأنا أقدِّر أن العملية بمجرد التفكير فيها تبعث على الرَّهبة. لكن لكم أن تتصوَّروا إلى أين تَصل بنا إذا نَجحت. فى حالة النجاح، ولعقد من الزمن كامل، تتقرَّر فيه مصائر العالم بعد انفراد الولايات المتحدة بالقوة على القمة ـ سوف تكون البشرية كلها تحت قيادة رَجُل هو بالكامل تحت سيطرتنا. مَملوك ملكية مُطلقة لنا لأنه منا، قطعة منا. وإذا حَدث ذلك فلن يَعود مَطلوباً منا أن نَسمَع من البيت الأبيض نَصائح تَدعونا إلى حضور مؤتمرات للتسوية مع العَرب فى «كامب دافيد» أو فى «أوسلو» أو فى «واى». سوف يكون فى إمكاننا أن نُملى ما نشاء دون أن نُدخل فى اعتبارنا مشيئة الآخرين. ويكون فى استطاعتنا إذا رَفع «ديكتاتور» عَربى رأسه أن نمحو بَلده بالكامل من الخريطة. ويكون رئيس الولايات المتحدة هو الذى يَقوم بالمهمَّة ويَتحمَّل نتائجها نيابة عنا.»

يَستطرد «إيشيل» رئيس وزراء إسرائيل (فى القصة الروائية : الخيال الملتبس بالحقيقة ـ أو الحقيقة الملتبسة بالخيال) ليقول وقد تحوَّلت نبرة كلامه من التبشير إلى النبوءة :

«ما تقرِّرونه الليلة سوف يُؤثر على مُستقبلنا ومُستقبل أبنائنا، ومُستقبل كل جيل يهودى قادم. وكذلك فنحن أمام قرار مصيرى نتَّخذه بأكبر قدر من الشعور بالمسئولية، وبأعلى قدر من الطموح لمستقبل يهودى مُحصَّن ضدَّ الطوارئ».

ثم تبدأ المناقشة :

يَسأل وزير الخارجية «روثبرج» رئيسه «أهارون»: «هل أستطيع أن أتجرأ وألفت نظرك إلى افتتاحية نشرتها جريدة «الواشنطن بوست» فى الأسبوع الماضى قالت فيها أن «نفوذ إسرائيل فى الكونجرس مُطلق»؟ ـ وأكثر من ذلك فإن كاتب المقال أشار إلى اعتقاده بأن سَيطرة إسرائيل على الكونجرس تَصل بها إلى حَدِّ امتلاك قراره. وما أريد قوله أنه إذا كان لنا هذا التأثير على الكونجرس ـ وهو لنا فعلاً، فما هو داعينا للمُخاطرة بالاستيلاء على الرئاسة الأمريكية استيلاء مادياً وليس سياسياً فقط ـ ثم يُكلِّفنا ذلك مائة وخمسين مليون دولار يَصعُب «تَفويتها» إلى الحَملة الانتخابية الأمريكية دون أن يَنكَشف مَصدرها ؟ ثم هل أصبحنا فجأة أثرياء بحيث نغامر بمثل هذا المبلغ ومَرافقنا العامة ومَشاريعنا الاجتماعية تحتاجه بقسوة ؟»

والتفت رئيس الوزراء حوله إلى بقية المجموعة يَنتظر مُداخلات أخرى لكى يُجيب على الكل مَرَّة واحدة، لكنه لا يظهر أن هناك أحداً غير وزير الخارجية يريد أن يُعلِّق. أو لعل مُلاحظة وزير الخارجية عَبَّرت عن مَشاعر أو مَخاوف الكل إجمالاً. وهكذا يَرُدُّ «إيشيل»، وهو فى رَدّه يُجيب على كل الأسئلة سواء تلك التى طرحها وزير الخارجية بكلامه، أو تلك التى آثر أصحابها الصمت لأن مُداخلة «روثبرج» عَبَّرت عنهم.

وبعد ثوان من الصمت أراد «إيشيل» منها أن يَتنبَّه الجميع ويتأهَّبوا، قال مُوجِّهاً كلامه لوزير خارجيته :

«صحيح ما قُلته. لنا نفوذٌ واسعٌ فى الكونجرس سواء كتبت عنه صحيفة من الصُحُف أو لم تكتُب. لكنك لم تَرَ النقطة التى تعنينى. أنت تتكلم عن «النفوذ» وأنا أتكلم عن «السيطرة». بين «النفوذ» و«السيطرة» مساحة واسعة كما تعرف».

يَستطرد رئيس الوزراء مُوجِّهاً حديثه إلى وزير خارجيته :

«كل إدارة أمريكية قامت على السُلطة فى الولايات المتحدة أعطتنا تأييدها، لكنه من الضرورى أن نُلاحظ نقطتين:

أولاهما : أنه ليس فى مَقدور بَلد يَحترم نفسه أن يَعتمد على تأييد غيره إلى الأبد!

والثانية: أن اعتمادنا على طَرف واحد قد يَجعله يظن فى لحظة من اللحظات أننا فى جيبه، وأنه يملك قرارنا!»

يَستطرد رئيس الوزراء وهو لا يزال مُلتفتاً إلى وزير خارجيته :

«ولاحظ أننى الآن لا أطلب منكم الموافقة على اعتماد بقيمة الـ ١٥٠ مليون دولار كلها. ما أطلبه هو عشرة إلى عشرين الآن. تقديرنا أن نرصدها «خميرة» تُؤثر على ما حولها وتُحرِّك تفاعُلاته. بمعنى أننا سوف نبدأ فى صَرف القليل هنا وهناك، ثم نحاول استثارة آخرين كى يُساعدوا. الفكرة أن تخلق «الخميرة» نبض وروح حَركة تُصبح لها مُحرِّكاتها الذاتية!»

سادَ الصمت لثوان، ثم تدخَّل وزير المالية «لاهاف» مُوجِّهاً كلامه لزميله وزير الخارجية قائلاً :

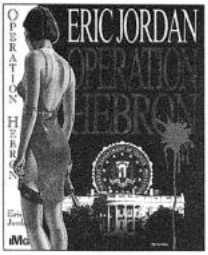
«إذا كانت المشكلة أن المبلغ الإجمالى المقدَّر للعَمَلية هو ١٥٠ مليون دولار ـ منها عَشرة أو عشرون مَطلوبة على الفور ـ فإنى أستطيع أن أدبِّر الحصول على المطلوب من «الاعتماد المشترَك للطوارئ»، وهو الاعتماد الذى تضَعه الحكومة الأمريكية تحت تصرُّفنا لمواجَهة المفاجآت غير المتوقَّعة. ليست مُشكلة أن أدبِّر لك المبلغ من هذا الاعتماد، فهو غير خاضع للمحاسبة أو التفتيش».

ثم يَستطرد وزير المالية ليقول لزميله وزير الخارجية :

«ما رأيك فى تمويل حَملة «رَجُلنا» فى الانتخابات الأمريكية بأموال أمريكية ؟ ـ فكرة مُدهشة ؟ أليس كذلك ؟»

على لسان مدير
الموساد لرئيس وزرائه:
أقنعناهم لربع قرن بثلاثة أعداء غيرنا.
روسيا، إيران، العراق. لكنهم عادوا
إلينا لأننا عدوهم المفضل

«أمراء» الموساد لهم
حق الاتصال برؤساء الوزارة.
ووزراء الخارجية فى خدمتهم حتى
لو اقتضى الأمر تدخلا
لدى ملك عربى!



٣ عوالم السياسة والجريمة

لعدة فصول مُتوالية من قصة «العملية هبرون» يَرسم المؤلف «اريك جوردان» - مسئول المخابرات المركزية السابق أجواء ووقائع روايته، وهو في خياله - وهذا شأن أى خيال - يتزوّد من مخزون تجاربه حتى باللا وعي - وهكذا فهو يرسم صورة مثيرة لعوالم سرّية تحت أرضية السياسة. ما يجرى فيها يُؤثر دون أن يَظهر. ومُعظمه شرير ودَموى. يكذب ويخدع، ويستدرج ويُحاصر. ويقتل بالمسدسات الكاتمة للصوت، أو بالسُموم التي لا صَوت لها من الأصل.

وهو بكل المعايير عالم جرائم لا يُسمّيها الناس إرهاباً لأن دَخائلها مُستعصية عليهم، ولأن مَسارحها ساحات ظلال وأشباح عليها حَركة لا يلحَظها أحد. وفوقها خُطى لا تترك أثراً يَدلّ عليه موقع قدم.

وفى مَطلع الفصول فإن البطل الرئيسى على مَسرح ذلك العالم الغريب العجيب هو السفير الأمريكى «ريتشارد سورنسون» سفير الولايات المتحدة الأمريكية فى بروكسل - وهو كما يَظهر فى المواقف والحوارات صَديق مُقرّب من الرئيس الأمريكى «دوجلاس». وكان شخصية محورية فى حَملته الانتخابية، ولهذا حاوَل بعض خصوم الرئيس أن يُركّزوا حملاتهم عليه وعلى نقط ضَعفه إزاء الحياة ومُغرياتها.

....

....

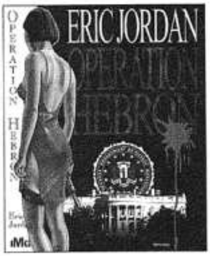
[وذلك نموذج شائع فعلاً يُمثله فى عَوالم الحقيقة رَجُلٌ مثل «ديك موريس»، الذى كان مُهندس الحملة الانتخابية الأولى والحملة الانتخابية الثانية لـ«بيل كلينتون»، ثم سَبّبت تصَرُّفاته إحراجاً شديداً للرئيس خصوصاً حين جرى القبض على «موريس» مع إحدى العاهرات، وتَبَيّن أنه حاوَل إظهار نفوذه على الفراش بحديث طويل مع «كلينتون»، ويَبهَر رَفيقته حين بَرهَن لها على أن الصداقة بينه وبين أهَمْ رَجُل فى العالم حَميمة والكلفة بين الاثنين مرفوعة - بل إن «موريس» بَدا فى حديثه مع الرَجُل الأول فى الولايات المتحدة - وكأنه «المعَلّم» والرئيس «صَبِيّه» (كذلك وَرَدَ بالنصُ فى التحقيق على لسان امرأة ليل التقطها «ديك موريس» من أحد البارات فى واشنطن).]

....

....

[والشاهد أن حالة السفير «ريتشارد سورنسون» وعلاقته بالرئيس «دوجلاس» فى القصّة الروائية «العملية هبرون» - تُشبه إلى حَدٌ كبير حالة وعلاقة «ديك موريس» بالرئيس «كلينتون». لكن الرئيس فى الرواية - أذكى من الرئيس فى الواقع. فذلك الرئيس - فى الواقع - استبقى صَفِيّه وصَديقه فى واشنطن، وبذلك عَرّضَه للفضيحة وانفضَحَ معه. وأما الرئيس - فى الرواية - فإنه بَعَث بصَفِيّه وصَديقه بعيداً عن واشنطن سفيراً فى بروكسل، وهى عاصمة أوروبا، وكان تعيينه هناك سَهلاً، لأن الرئيس له الحَق فى حصّة من المناصب الكبرى (بما فيها السَفارات) يَضَع فيها رجالاً أو نساء يرى تعيينهم لأسباب يَراها وضمنها تبَرُّعاتهم المالية لدَوره السياسى، أو خَدماتهم لحزبه، أو نشاطهم فى حملته الانتخابية. وبالنسبة





لمناصب السفراء فإن أصدقاء الرؤساء يُفضّلون عواصم مُهمّة مثل لندن أو باريس في أوروبا، كما أن بعضهم يُفضّل الذهاب إلى عواصم بلدان لهم فيها أصل عائلي وهم يحلمون بالعودة إليها وكأنهم يقولون لأهلها - أي أهلهم القدامى : «لقد خرجنا من بينكم مُطاردين بالفقر أو الخوف، وها نحن نرجع إليكم بالغنى وبالقوة»!]

....

....

والحاصل أن «ريتشارد سورنسون» يَطلب منصب سفير الولايات المتحدة في بروكسل، ويُقبَل طلبُه، وهو يَذهب إلى مَقرّ عَمله ولديه هَدَف آخر غير أن يَبتعد عن واشنطن لمجرد الاختفاء عن عيون أعداء الرئيس ورَصدهم لتحرُّكاته، ذلك أن السفير «سورنسون» رغم حُبّه للحياة وضَعفه أمام مُغرياتها يَستطيع في بعض الأوقات أن يكون جَداً، وهو هنا في بروكسل عاصمة أوروبا - قادرٌ أن يَجعل رئيسه على علم بما يَجرى في قلب العالم وعلى نحو مُباشر لا يَقدر عليه سفير عادى يَبعث بتقاريره لوزارة الخارجية. ومُضافاً إلى ذلك فإن الرئيس يَعتبر «سورنسون» رَجُل مُهمّات سياسية خاصة، ويُكلّفه مَرّات باتصالات مع دُوَل لا يريد الرئيس أن يَتعامَل معها بالوسائل الدبلوماسية الرسمية لسبَبٍ أو آخر. وفي هذا الصدَد بالتحديد فإنه يبدو أن «سورنسون» على «علاقة وثيقة» بمندوب من ليبيا يُسمّى في القصّة : «حامد بن فزاني»، وهو سفير خاص مُقرّب من السُلطات العُليا الليبية مُكلّف هو الآخر بمَهام حَسّاسة تُطلبها هذه السُلطات العُليا في بَلده.

ومن مَجرى الحوار يَظهَر «الموساد» (المخابرات الإسرائيلية) غير مُطمئن لمشاعر السفير «سورنسون» تجاه إسرائيل، ذلك أن بعض تقاريره السرّية إلى رئيسه في البيت الأبيض تَتعَرّض للنشاط الإسرائيلي في أوروبا عموماً، وتُركّز خصوصاً على أغراض مُزدَوَجة ووسائل مُلتوية تعتمدها إسرائيل فيما تقوم به.

وبالزيادة على ذلك فإن علاقة «ريتشارد سورنسون» بزميله الليبي «حامد بن فزاني» لا تُريح «الموساد» رغم أن إسرائيل لا تَخشى كثيراً مما يَفعَله المبعوثون والممثلون العَرَب، ولا تعتبر نشاط أحد منهم خطراً جَدّياً على إسرائيل - أو مَصالحها وأمنها.

وعلى لسان الجنرال «شتيرن» رئيس «الموساد» - فإن هؤلاء المبعوثين العَرَب ليسوا مُفيدين حتى لبلادهم :

ـــ بعضهم له اتصالات واسعة، لكن هذه الاتصالات لسبب أو آخر لا تَظهَر في تقاريرهم، أو هي لا تُؤثر في قرارات رؤسائهم (كل أوراقهم مَقروءة له).

ـــ ثم إن مُعظمهم يَنسى نفسه فيما يقوم به من مَهام : فهو يَستمتع بالوَجاهة الاجتماعية، ويَدخل مَحافل العز غازياً، ويَتصَرّف فيها مُستهتراً، ويَخرج منها في الغالب عارياً (كل صُوَرهم في ملفاته)!

ويَستخلص مدير «الموساد» نظرية مُؤدّاها أن «هؤلاء العَرَب سياسياً يَصرفون ببَذخ ولا يَعرفون متى يقبضون، ويَستثمرون بكثافة ولا يَفهَمون كيف يَحصُلون على أرباحهم»!!

وعلى أى حال فإنه في حَواشي ومُلحقات قصّة «العملية هبرون» تُقرّر إسرائيل أفضلية تَصفية «سورنسون» أخذاً بالأحوَط!

□

وأثناء نزول السياسة إلى مستوى الجريمة بقرار قتل السفير «سورنسون» تَتكَشّف لمحات من الحقيقة مُذهلة :

■ أجهزة المخابرات الفاهمة لزمانها وعالمها لا تُمارس «تصفية المطلوبين سياسياً» بنفسها، فالتعامُل بالدَم وبالسُمّ ليس لها، تُلطّخ به أيدى رجالها أو تُعَرّضهم للانكشاف. فهؤلاء الرجال عُملة نادرة وتُحفة غالية لا يمكن المجازفة بها في عَملية قتل (ويُقدّر «الموساد» أن عملية إعداد وتأهيل عميل مُخابرات من الدرجة الأولى تَتكلّف خمسة ملايين دولار! - على الأقل).

■ وفي العالم التحتي للجريمة حين تُقاربها السياسة مجموعات من رجال ونساء مُستعدّين للتنفيذ بعقود شفوية لها احترام أقوى من العُقود المكتوبة، والرجال والنساء المستعدّون يُنفّذون مَهامهم قادمين إليها من الظلام، عائدين بعدها إلى الظلام، وليس لهم وجود على مسرح أى جريمة يمكن تَقصّيه - ولا أثر يمكن الاستدلال به - وذلك أنجح أنواع القَتَلة!

والقاتل أو القاتلة المستعد - مَعروف على نحوٍ ما للأجهزة القادرة النافذة، وبين الطرفين ومن مسافات بعيدة إشارات ورموز لا تَقتضى اتصالات أو لقاءات، أو أى دَرَجة من دَرَجات التخطيط المشترك.

مجرد رمز يَصل إلى «قاتل مُعَيّن» أو «قاتلة مُعَيّنة».

ومع الرمز اسم مُعَيّن - ومَبلغ مُحَدّد. وفي حالة القبول يكون إقرار التعاقُد على شكل رقم حساب في بنك يُفتَح قبل العملية ويُغلق بعد تَنفيذها دون أثر يَدُلّ على صاحبه أو صاحبته.

إذا وضعنا رجلنا في البيت الأبيض فإن الموساد تكون قد قدمت لإسرائيل مسيحها المنتظر في العهد القديم

حكايات العرب في أوروبا من سفرائهم إلى أغنيائهم، وكيف يتصرفون. في معرفة خبير رأى بنفسه وسمع

■ وأكفأ نجوم العالم التحتي نساء، ونساء فائقات الجمال، عاليات المظهر والتصَرّف، لا يَخطر ببال أحد أن القتل صناعتهن، وكلهن يُجدن «فنون الحب» - أو «الجنس العميق» على حَدّ تعبير وَرَدَ في الرواية على لسان السفير «سورنسون» - لكن الميزة فيهن هي القُدرة على مُمارسة الحُب دون شعور به في الداخل مهما بدا منهن في «حالة الذوَبان».

والترتيب المفضّل كما يَظهَر من سياق الرواية أن البَطلة من هذا النوع تَظهَر على مَسرَحها وتخطف أبصار من تقصده، وفي أيام من الهَوَى، أو ساعات في بعض الأحيان، يَصل الهَوَى - رَجُلاً وامرأة - إلى غرف النوم ويَقَع مَشهَد فَيّاض بالنشوة، وفي وَمضة تَنفُذ في الجَسَد العارى للرَجُل طلقة، أو يُؤدى كأس مَسموم دوره المرسوم في دقيقة واحدة.

وفي هُدوء تَرتَدى «المرأة» ملابسها من جديد - ثم تَتسَلّل خارجة - عارفة أن رفيقها الذى كان معها قبل دقائق أخَذ كل احتياطاته مُسبقاً حتى يَظلّ لقاؤه مع الهَوَى - أو «الجنس العميق» - سرّاً لا يَراه أو يُتابعه أحد. بل هي واثقة أنه إذا حَدَث ولَحَقها أحد - فإنه سوف يُدير رأسه كأنه لا رأى ولا سَمَع.

□

وكان ذلك بالضبط ما جَرى بين السفير «سورنسون» داخل بيته، وفي غرفة نومه - مع الفاتنة الصربيّة «جاكي ماركوفيتش» - عندما قَرّر «الموساد» قتله، وزادها ضارياً عَصفورين بحَجَر إذ جَرى تَرتيب الشواهد بحيث يَظهَر وكأن القاتل «إرهابي من الشرق الأوسط» - وكذلك فإن «الموساد» استعمل في الإشارة التي تَحمل التكليف بالقتل رمزاً تَستعمله المخابرات الإيرانية بحيث تَظُن «جاكي» أن العقد - وكذلك الدفع - لحساب إيران وعلى حسابها. ثم إن «الموساد» رَتّب - على الهامش - أن تَظهَر قُرب السفارة الأمريكية في «بروكسل» قُصاصة وَرَق مُكرمَشة من صحيفة تَصدر في بغداد، وكان عُملاؤه واثقين أن رقم التليفون الخاص بالسفير الليبي مَكتوب في دَفتر «سورنسون» - وتلك خيوط تَقود التحقيق مُؤكّداً إلى «الإرهاب العَرَبي» هنا أو هناك!

□

في وقائع هذه الفصول من القصّة الروائية يَظهَر عالَمٌ خفي آخر مُتحَرّك فوق الأرض مُختص بمُواجهة العالَم الخفي تحت سَطحها.

وفي التصَوُّر الشائع أن مُكافحة الجريمة الدولية - سياسية كانت أو غير سياسية - مُهمّة البوليس الدولي «الإنتربول» - لكن المسئول السابق في المخابرات المركزية (مازجاً بين الخيال الملتبس بالحقيقة أو الحقيقة الملتبسة بالخيال) يُشير إلى أجهزة لا تَظهَر للناس عَلَناً، مُهمّتها مُتابعة ذلك النوع من الجرائم. ثم إن قيادة هذه الأجهزة في يَد مكتب التحقيقات الفيدرالي



المؤامـــرة والسياســـة والجـــريمة

الامريكي .F.B.I. وهو إدارة لها ارتباطاتها مع أجهزة الأمن في كل مكان من العالم ـ ولها مكاتبها الخاصة تُوَجِّه وتُدير من عواصم مُنتشرة على خريطة القارات.

....

....

[في عالم الواقع وبعيداً عن القصص الروائي وفنونه فإن الـ .F.B.I لديها مكاتب كبيرة في خمسة عواصم عربية على الأقل، ولها مُمثلون رسميون ضمن هيئة كل سفارة أمريكية في العالم العربي.]

....

....

وكان من الواضح أن المكلَّفين بقضية قتل «سورنسون» (المحقِّق البلجيكي بحُكم مكان الجريمة، والمحقِّق الامريكي بحُكم جنسية الضحية) أدركوا من النظرة الأولى على مكان الجريمة أن وراءها امرأة وَصَلت بـ الجنس العميق» إلى نقيضه الأكثر عُمقاً وهو الموت الأبدي!

ويتَّضح من السرد أن مكتب التحقيقات الفيدرالي عَهِدَ بالقضية إلى واحدة من الأنشط والأكفأ بين أفراده، وفي القصَّة فإنها مُحقِّقة اسمها «بريندا شتراوس» وهي يهودية غير صهيونية فيما يَظهر من تصرُّفها. ففي أحد المشاهد تشعُر بالصدمة أثناء قراءة تسجيل تليفوني تعرف منه أن «والدها» على اتصال سرِّي بسفارة إسرائيل في واشنطن، وتكتشف مُستاءة أن «ولاءه للدولة اليهودية أكثر منه للدولة الأمريكية التي وَجَدَ فيها فرصته مُهاجراً يبحث عن مُستقبل»!

ويستدعي التأمُّل ما يَظهر في ثنايا السَّرد من أن كل الأجهزة السرِّية المكلَّفة فوق الأرض بمتابعة الحركة تحت الأرض ـ لها سياساتها الخاصة إلى جانب ما هي مُكلَّفة به رسمياً من حكوماتها.

فهذه الأجهزة ليست لها بالطبع مَصالح مادية، لكن لها ـ كما هو واضح ـ «تَحَيُّزات» سياسية، وهي في أدائها لدورها وفي مُمارَسة مسئوليتها تلعَب دوراً قد يكون له تأثيره المدمِّر. فهي تُبرز من الحوادث وتُواري ـ وتكشف من التفاصيل أو تُغطِّي ـ ما يَخدم «تحيُّزاتها» المسبقة بحيث يَتأكَّد صدقها فيما أشارت به ونَصَحَت مُبكِّراً (وها هي النتائج الموثقة تُبيِّن صحة وسلامة التقديرات المعروضة من زَمَن طويل).

ومع بداية التحقيق في قتل السفير «سورنسون» بكأس مَسموم من «الشمبانيا» في لحظة «جنس عميق»، تدافعت الشكوك إلى اتهام المخابرات الليبية بقتل السفير الأمريكي بقرينة علاقاته بالسفير الليبي في بروكسل «بن فزاني»، لكن مكتب التحقيقات الفيدرالي وَجَدَ نفسه مُضطرّاً إلى تغيير رأيه بعد أن قامت «وكالة الأمن القومي» .N.S.A (وهي جهاز آخر للمخابرات الأمريكية يَعمَل مُستقلاً عن وكالة المخابرات المركزية) بالتقاط رسالة شفرية صادرة من السفارة الليبية في بروكسل إلى وزير الخارجية في طرابلس وفيها يُبدي السفير الليبي فَزَعاً حقيقياً من اغتيال صديقه «سورنسون». ثم تَكشف رسائل مُلتقطة تالية أن «فزاني» في حالة فجيعة وانهيار لمصرع صديقه السفير الأمريكي. فقد كان ظنُّه أنه نَجَحَ في فتح قناة اتصال مُباشرة مع الرئيس الأمريكي «دوجلاس»، وكان صديقه الحَميم المقرَّب والواصل إلى البيت الأبيض أمَلَه وأمَل حكومته في إمكانية رَفع الحصار عن ليبيا!





٤ حكايات أصحاب البلايين العرب

■ ■ الفصل الثامن من قصّة «العملية هبرون» (صفحة ١٢٠) واحد من أمتع فصول القصّة، والبَطل الذى يَظهَر على مَسرَح هذا الفصل بليونير عَرَبى : «منصور شريف» (وذلك هو الاسم الذى اختاره المؤلّف «إريك جوردان»)، وهو فى القصّة مغربى الأصل يُشار إليه فى الحوار أحيَاناً بوَصف «باشا مراكش»!

ومن حول هذا البليونير يَرسم «إريك جوردان» ما يمكن اعتباره لوحة فنية نابضة بالحياة - صادقة وكاشفة إلى أبعَد حَد فى تصويرها لمعيشة عَدَد من أصحاب «البلايين العَرَب» وطريقة حياتهم حيث اختاروا أن يعيشوا (فى أوروبا غالباً).

وفى واقع الأمر وبنظرة لاتحتاج إلى مَشقّة التفكير الطويل - فإن الوصف الذى يُقدّمه «إريك جوردان» لحياة «أصحاب البلايين العَرَب» - هو فى جُزء كبير منه وَصف لطبيعة «الشخصية السياسية» العَرَبية فى الزمن الراهن، وذلك مَنطق أشياء.

وفى وَصف «إريك جوردان» لحياة أصحاب البلايين العَرَب - وعلى عُهدته - تَظهر تصرُّفاتهم وسلوكهم فى نَمَط من السلوك مُتكَرّر :

● أصحاب البلايين العَرَب مجموعة من الرجال اقتربوا على نَحو أو آخر من دوائر السُلطة فى العالم العَرَبى، وحَقّقوا ثروات طائلة عن طريق المثلّث الذهَبى : نشاط المخابرات - عمليات البترول - تجارة السلاح. وبنفس هذا الترتيب، فكلهم بدءوا على نَحو أو آخر فى المخابرات أو على صلة بأجهزتها (خُصوصاً فى بلدان النفط) - وكلهم اقتربوا على نَحو أو آخر من عمليات البترول أو فوائض أموالها الهائلة - وكلهم وَصَلوا على نَحو أو آخر إلى تجارة السلاح وأرباحها الخُرافية.

● وفى طريقهم من المخابرات إلى البترول إلى السلاح - عَرَف هؤلاء واتصلوا فى أمريكا وأوروبا مع إدارات مخابرات، ومَندوبى شركات، ومُمَثلى حكومات، وأحيانا رجال إعلام من الدرجة الثانية أو الثالثة فى الصُحُف والإذاعات ومحطات التلفزيون - وقد تصَوّر أصحاب البلايين العَرَب أنهم بهؤلاء - الأصدقاء! - الذين اتصلوا بهم وعَرَفوهم وتعاملوا معهم - نَفذوا إلى الدائرة المؤثرة فى عَواصم بلدان هؤلاء «الأصدقاء»، ومن ثم فإن نفاذهم تَحَوّل إلى نفوذ، يَظهَر خارج أوطانهم ويَرتَد ليُؤثر داخلها وبالعكس!

● وبطبيعة العلاقة بين العناصر المكَوّنة لـ: نَمَط أصحاب البلايين العَرَب (المثلّث الذهَبى للمخابرات والبترول والسلاح) زائداً عليها الثراء والغنى - فإن أصحاب البلايين العَرَب أصبحت لهم علاقات سارية إلى بعيد فى عَواصم العالم الغَربى، فهُم يَعرفون حُكّامه ويَعرفون خَواصهم، وقد نشأت بين الجميع صلة «اعتماد مُتَبادَل» يَختَلط فيها المال بالسياسة، والغنى بالسُلطة. وكَان أن عَواصم الغرب الكبرى (لندن - باريس - فيينا - مَدريد - وغيرها) - ومَغانى الريفييرا الفرنسية، ومُنتَجَعات الألب السويسرية، وشواطئ أسبانيا وإيطاليا - تَرى مَشاهد تَسقُط فيها القيود وتَختَلط الحدود بين السُلطة فى الداخل والثروة فى الخارج.

● وفى أجواء الاعتماد المتبادَل بين «الأقوى» و«الأغنى» قام المال فى بعض الأوقات بمهام سياسية تَنقل رسائل تُشير برأى أو صياغات تَحلّ عُقَداً - كما أن السُلطة فى بعض الأحيان تَتَقَدّم لتسهيل صفقات وإنهاء عُقود - وفى بعض المرات يُصبح بعض أصحاب البلايين العَرَب مَداخل إلى دوائر القرار السياسى فى عَواصم عَرَبية مُختلفة - كما أن دائرة القرار السياسى يُصبح لها دَلال على أصحاب البلايين العَرَب يُشير دون أن يَطلب، ويُستجاب له قبل أن يلتَفت.

ومع مرور السنين تُصبح حياة «أصحاب البلايين» العَرَب حالة لها مَناظرها ومَظاهرها :

ـ قصورٌ فى المصايف والمشاتى وعَواصم المُدن الكبرى، جرى شراء مُعظمها بأثاثه وتُحَفه ضماناً للمستوى وتَثَبُّتاً من القيمة.

ـ حاشية مُتَنوّعة الجنسيات تَسبق أو تَلحق، وتُرتّب هنا وتُهَيّئ هناك حسب الطلب.

ـ وحَرَس شخصى، غالباً من العسكريين الأمريكيين السابقين الذين خَدَموا فى قوات البَحرية (المارينز)، وهُم يُسيطرون على الأبواب الإلكترونية عند مَداخل القصور وفى أيديهم أجهزة الاتصال اللاسلكى، وبالقرب منهم رشاشات «أوزى» الإسرائيلية، يَعتَبرونها (دون حساسية!) أقوى سلاح للدفاع الشخصى! - وبعض الحُرّاس موجودون فى الداخل يَرون دون أن يراهم أحد، سواء عن طريق الكاميرات الخفيّة أو عن طريق النظارات المقرّبة، خصوصاً إذا كان القصر قُرب شاطئ بحر أو على مُنحَدَر جَبَل!

ـ وفى الانتظار أساطيل من السيارات مُستعدّة، ويُخوت فى الماء جاهزة، وطائرات كبيرة وأخرى مُتوسّطة - تُعاونها طائرات هليوكوبتر للمسافات القصيرة.

ـ ورؤساء خَدَم فى القصور من الإنجليز (بعضهم عَمَلوا فى القصور الملكية البريطانية)، أو من الفرنسيين (بعضهم التحقوا زَمَناً بقصور عائلات أوروبية باذخة الغنى : «روتشيلد» - «أنيللى» - «تايسين».. وغيرها).

ـ وهناك باستمرار كهف للنبيذ المعَتّق (فرنسى فى الغالب)، ومطبخ مُتَعَدّد الجنسيات (عَرَبى، وغربى، وصينى من باب الاحتياط) مع خدمة دائمة لأجنحة «السادة» و«ضيوفهم» تقوم عليها مُشرفات مُدَرّبات (أسبانيات أو برتغاليات فى العادة).

ـ وهناك سكرتارية خاصة موكلة بمُتابَعة المناسبات جنوباً فى الأوطان وهى تَبعَث بالتهانى والهدايا فى المواسم والأعياد. كما تَنتَظر وتَترَقّب مواعيد وصول الكبار إلى أوروبا وأمريكا تأهُباً واستعداداً للقائهم وخدمتهم بما يريدون هُم وأسَرُهم - ومُساعدوهم ومرافقوهم - وكذلك عشيقاتهم إذا لزم الأمر!

□

وفى ذلك الفصل الثامن من قصّة «العملية هبرون» يَظهَر الدكتور «ويليام رَسل» (مُستشار الأمن القومى لرئيس الولايات المتحدة) قادماً إلى مطار جنيف قاصداً لزيارة البليونير «منصور شريف» (باشا مَراكش).

وفى انتظار «ويليام رَسل» عند نُزوله من الطائرة إحدى سيارات «منصور شريف» وهى من طراز «مرسيدس ٦٠٠» - وعليها سائق خاص يَعرفه «رَسل» من زيارات سابقة. والسائق إيطالى اسمه «ألفريدو»، وقد ركب معه «رَسل»، وسأله إلى أين : إلى «فيزينيز» (البيت المطل على بحيرة «ليمان» على طريق «فرناى») أو إلى القصر الكبير فى «ميجيف» (وَسَط جبال الألب بين فرنسا وسويسرا) ؟ ويَرُدُّ «ألفريدو» : «سوف نذهب للباشا فى ميجيف «يا سيدى».

وعندما يدخل الدكتور «رَسل» من الباب يَستقبله «جان بيير» رئيس الخَدَم الفرنسى - يُرَحّب به فى حرارة - وتبدأ تجربة «ويليام رَسل» فى العالم المسحور الذى لا يَعرفه فى حياته العادية - ولا حتى فى البيت الأبيض. و«جان بيير» جاهز بكأس من «الكير الملكى» (شمبانيا فوقها قطرات من مشروب الكسيس). الكأس مُثلّجة، و«رَسل» يَرشف منها بشَهيّة رَجُل مُصَمّم على أن يَستمتع بكل ما هو مُتاح له اليوم - ولن يكون كذلك غداً. ويجىء «منصور شريف» للقائه قادماً إليه فى تُؤدَة يُرَحّب به مُبتسماً، ثم يَجلسان، ويجىء «جان بيير» رئيس الخَدَم يُقَدّم للضيف كأساً آخر من «الكير الملكى»، ويُقَدّم لسَيّده كأساً آخر لكن البليونير العَرَبى يَرُدُّ رئيس خَدَمه الفرنسى قائلاً : «ماء فقط يا جان بيير»!

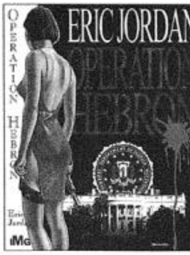
يَلتفت «منصور» لضيفه ويقول بحكمة (تَتَقَصّد إظهار الحكمة) : «لا يَصح لأحد أن يَنسى جذوره. نحن بَدو. ولا بد أن نكون على استعداد للعَودة للصحراء فى أى وقت. ففى واحات الصحراء ليس هناك غير الماء. وليس يَصح أن نَتَعَوّد على غيره لأننا لا نضمَن ماذا تَفعَل معنا الحياة وإلى أين تَذهَب بنا».

يَرُدُّ «رَسل» مُجاملاً (تَظهَر كلماته مُجاملة حتى وإن لم يَقصد) قائلاً لـ«منصور» : «أنتَ دائماً الفيلسوف «الحكيم»..».

ويَسأل «منصور» ضيفه : «قل لى أى أمر يشغلكم الآن ؟ ما الذى تَنوون عَمَله بالدنيا هذا الصيف ؟ هل تَنوون تَدمير الهند وباكستان بعد تَحذيهما لكم بصُنع قنابل نووية ؟ هل أعمل حسابى من الآن لأقضى الصيف لاجئاً فى خلاء الصحراء ؟».

ويَنتَهزها «رَسل» فرصة ليدخل فى الموضوع الذى جاء من أجله إلى ☜

ما يقال فى واشنطن
صباحا يرشح فى إسرائيل
مساء. ولذلك فإن تل أبيب هى أهم
مخزن معلومات
للمخابرات فى العالم!



المؤامرة والسياسة والجريمة

«ميجيف» : «تشغلنا الانتخابات القادمة لرئاسة الولايات المتـــحـــدة. هذا الرجُل السناتور «ويستليك». يشغلنا ولابُد أن يشغلكم أنتم أيضاً. أقصد العَرَب. هو على وشك أن يَحصُل على ترشيح الحزْب الديمقراطى لانتخابات الرئاسة. وأنت تعرف بالطبع أنه مُوالى إسرائيل. وأنه رَجُل خطر. لابُد من إيقافه».

يَتَّضح بالتلميح أن «رَسل» يريد تمويلاً «ناعماً» (لا يَرصده أحد) من مَوارد عَرَبية تُساندُ المرشّح الجمهورى.

وأول رَد فعل لـ«منصور» قوله : «بصراحة يا صديقى العزيز يَصعُب علىَّ أن أرى الفارق بين المرشَّحين عندكم. فيما يَتَعلّق بموقفهم من إسرائيل، كلهم يَخضعون أو سوف يَخضعون لإملاء «اللوبى الصهيونى» وأنت تعرف ذلك. أنت تعرف أيضاً أننا ساعدنا كثيرين من قبل ليَنجَحوا على أمَل أن يَتَذَكَّرونا بعد النجاح، لكنهم جميعاً بعد النجاح نسونا ودَخلوا فى سباق لإرضاء إسرائيل. هذا ما حَدَث ويَحدُث. أحياناً نشعر أن المرشحين عندكم يطلبون رئاسة دولة إسرائيل وليس رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية».

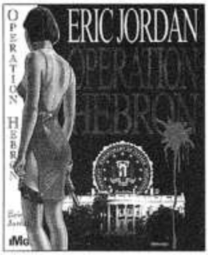
يَستدرك «منصور» ويقول لـ«رَسل» :

«لاحظ يا صديقى أننى لست مُعادياً لليهود. ولا للصهيونية. تَذكَّر أنهم جميعاً (اليهود والصهيونية) قدَّموا لى خدمة لاتُنسى عندما عارضوا فى الكونجرس صفقة أسلحة أمريكية (طائرات ف ـ ١٥) للسعودية. وبسبب هذه المعارضة استطعت مع شركائى من السعودية أن نُرَتِّب صفقة شراء طائرات «تورنيدو» (أوروبية). عمولاتنا فيها ٢٠ بليون دولار. مَن يُصَدِّق ؟ ـ مَن يُصَدِّق أن عمولات قطع الغيار سوف تَظل واصلة إلينا لعشرين سَنة قادمة. أىُّ ضمان أكثَر من ذلك ولمدى الحياة تقريباً ؟ كلما اطلعت على حساباتى فى البَنك دَعَوتُ لليهود وللصهيونية ولإسرائيل، ورَجَوت اللـه أن يُبارك لنا فيهم».

□

يَصحب البليونير العَرَبى «منصور شريف» ـ ضيفه الأمريكى «ويليام رَسل» (مستشار





الرئيس) إلى قاعة العشاء، ويَجلسان وحدهما إلى المائدة، والقائم على الخدمة رئيس الخَدَم «جيمس»، وهو هذه المرة إنجليزي سَبَقَ له العَمَل فى قصر «باكنجهام» الملكى!

وعلى العشاء يَعود «رَسل» إلى حديث انتخابات الرئاسة الأمريكية مُلحًا على أن: «هذا الرَّجُل السناتور «ويستليك» إسرائيلي أكثر من الإسرائيليين، وإذا وَصَلَ إلى المكتب البيضاوى فإن السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط سوف تُصبح «صناعة إسرائيلية».. يبدو أنكم لا تُقَدِّرون الخطر؟»

يتساءل «منصور»: «هل هو خطر إلى هذا الحَد؟ ـ ما هى فرصته للنجاح؟»

يَرُدُّ «رَسل»: «لقد اكتسح طريقه فى الانتخابات التَمهيدية فى كل الولايات الغربية، ونحن الآن فى بداية المعركة ـ مارس ـ وإذا واصَلَ «ويستليك» تَقَدُّمَه على هذا النحو فسوف يدخل مؤتمر حزبه والترشيح فى جيبه. وإذا لم يَتحقَّق إيقافه مبكراً أو تعويقه فسوف يفوز فى نوفمبر». (الثلاثاء الأول من شهر نوفمبر ـ كل أربع سنوات ـ هو مَوعِد التصويت فى انتخابات الرئاسة).

يقترب رئيس الخَدَم «جيمس» من سَيِّده ويهمس فى أذنه بشىء، ويَرُدُّ عليه «منصور شريف» قائلاً: «دَعهما تَدخلان.. لا يَصح للفتنة أن تَنتظر».

يُحاول «رَسل» أن يقاوم وهو على وشك الاستسلام قائلاً: «منصور.. ليس الليلة فأنا مُتعَب من السفر، وكنت أريدها سهرة سياسية إذا كان لا بد من السهر».

ويَرُدُّ «منصور»: «أنت بعد هذا السفر المرهق تحتاج أن ترتاح. النوم لا يكون عميقاً خصوصاً على هذا الارتفاع من جبال الألب إلا عندما تكون الأعصاب مُسترخية».

وتدخل إلى غرفة الطعام امرأتان تتَّجه إحداهما إلى «منصور» والأخرى إلى «رَسل» تُقدِّم له نفسها: «أورسولا». ويَعرف «رَسل» من نظرة واحدة أنه استسلم فعلاً. ويقول لـ«منصور»: «تَذَكَّر أننا يجب أن نُرَكِّز جهدنا كله على السياسة.. غداً».

ويَلتَفت «منصور» إلى رئيس الخَدَم ـ وهو الفرنسى «جان بيير» هذه المرة ـ ويُشير إليه بأن يأخذ «أورسولا» إلى الجناح المخَصَّص لضيفه، وهو سيلحق بها بعد القهوة. والدكتور «رَسل» يَتَناول فنجانه بسرعة يُقرِّبه من شفتَيه، ويَستشعر بُخاره الساخن ويلمسه لرَشفة واحدة بسرعة، ثم يَقوم مَلهوفاً و«منصور» يُلاحقه بضحكة عالية!

□

فى اليوم التالى قبل الظهر يلتقى «منصور» و«رَسل» قبل أن يُغادر «رَسل» «ميجيف» قاصداً إلى وجهته التالية على الطريق إلى واشنطن. وخُلاصة اللقاء السريع أن «منصور» مُستعدٌ هو وأصدقاؤه لمساعدة الرئيس «دوجلاس» وحتى يَضمَنوا عَدَم فوز المرشح الديمقراطى «ويستليك». وهو سيُقدِّم لصَديقه الدكتور «رَسل» «مُقدَّماً» دفعة على الحساب. يقول «منصور شريف» ذلك وهو يُناول ضيفه مَلفاً كبيراً مَحشواً بالأوراق والصُور مَكتوب عليه بالخَط الكبير: «الحياة الخاصة للسناتور ويستليك وغرامياته».

ويُبدى «رَسل» دَهشته، وتعليقه لنفسه: «منصور يَعرف دائماً طريقه إلى ما يهمه. يَستخدم مكاتب خاصة للتَحَرِّى تَجيئه بمعلومات يطلبها لعلمه أو لعلم أصدقائه. ويَستخدمها أو يَسمح لَهم باستخدامها».

ويُهَنِّئ «رَسل» نفسه، ويَفرك كَفَّيه، لأنها بداية طيبة!

وكذلك يبدأ الدور العَرَبى ـ أو الظهور العَرَبى فى «العملية هبرون» التى تَقصد إسرائيل منها وضع رئيس يَحكُم لحسابها وباسمها فى المكتب البيضاوى داخل البيت الأبيض! ■

٥ قـــوة عظـــمى فـــى التيـــه

■■ وَقائع كثيرة ومُثيرة من قِصَّة «العملية هبرون» تَجرى فى روسيا، وخلال مَشاهدها وحَرَكة أبطالها وحواراتهم تَتَبَدّى على نَحوٍ صارخ مفارقات الخيال الملتبس بالحقيقة، أو الحقيقة الملتبسة بالخيال.

والمشهَد الأول الذى يَظهَر فيه الدور الروسى ـ يَجرى داخل بيت ريفى فى مزرعة بعيدة (ستين كيلومترا عن موسكو) على أطراف قرية «جوكوفكا»، وهى منطقة مُنعَزلة عن العُمران وَسَط الغابات يَهرَع إليها قادة روسيا هَرَباً من موسكو التى زَحَمَها جواسيس العالَم كلٌ منهم يَبحث عن شىء وَسَط الأطلال التى خَلَّفها «جورباتشوف ويلتسين» بَقايا من قُوَّة إمبراطورية عُظمى كان اسمها الاتحاد السوفيتى.

وفى ذلك المشهَد الأول يَظهَر رئيس روسيا واسمه فى القِصَّة «بوبوف» جالساً فى مكتبه ومعه «أندريه ستراقينسكى» وزير الخارجية، و«أندريه الكسندروفيتش» رئيس لجنة مُتابعة النشاط الخارجى والمعلومات ـ والثلاثة فى انتظار الجنرال «يورى إيفانوفيتش بروزوف» الذى عُيِّن حديثاً مديراً للمخابرات الروسية «سى. فى. آر.» (C. V. R.)

والجنرال «يورى» قادم من أمريكا حيث كان مَسئولاً عن النشاط الروسى الخَفى هناك لعِدَّة سنوات حَقَّق فيها نجاحات تَشهَد له وتُزَكِّيه ليكون مَسئولاً عن جهاز المخابرات الروسية فى عَهد تحاول فيه «روسيا» لَملَمة شَملها والعودة إلى ممارسة دور فى السياسة الدولية «مُتماسك» ـ على الأقل ـ ذلك أنه من الخطر أن تستمر روسيا على هذا الوضع الذى «تُركوها» فيه مثل «عَجوز ثريَّة ماتَت دون وَريث معروف، والمعَزُّون يَقصدون إلى بيتها وكل منهم يُصَلى إلى جوار سَريرها ولا يَنسى قبل الخروج أن يأخذ معه مُحتَوَيات دولاب يُفرغها فى مِلاءة، أو قطعة أثاث يَحملها على ظهره، أو تُحفة يَدُسُّها فى جيبه. وعندما يَجىء آخر المعَزِّين ويَجد البيت عارياً يَتَردَّد قليلاً ثم يَخلَع باب البيت ويَحمله معه».

وفى اجتماع القيادة الروسية العليا فى مزرعة «جوكوفكا» يبدو الرئيس «بوبوف» مُصَمِّماً على أن هذه الأوضاع المتَرَدِّية فى «الوطن» يجب أن يُوضَع لها حَد، وأن روسيا لا بد أن تُثبت نفسها لنفسها أولاً ثم لبقية العالَم. وحين يَدخل الجنرال «يورى» إلى الغرفة حيث كان الرئيس ووزير الخارجية ومسئول النشاط الخارجى يَحتَسون كؤوس «الفودكا» ـ يبدو لهم مدير المخابرات الجديد رَجُلاً يَصلح بهَيئته لأداء دوره فى عَصر جديد. الحَيَوية فيه ظاهرة ـ وحَرَكته تُوحى بشباب فى مُنتصف العُمر ـ وتقاطيع وَجهه تُنبئ بذكاء، وعَيناه تَلمَعان كأن فيهما سِرًا. لكنه على نحوٍ ما ـ بطريقة غامضة ـ يُثير هَواجسهم.

وقد بدأ حديثه أمامهم بإشارة إلى تجربته الأمريكية وقائلاً أنه هناك تأثر بشعار تَضعه وكالة المخابرات المركزية مَحفوراً على الرخام فى مَدخل مقرها، والشعار يقول: «لا بد أن نعرف كل شىء.. وإذا عَرَفنا، حينئذ ننتصر».

ويَتَحَمَّس القادة الروس لما سمعوا، لكن إلحاح الجنرال «يورى» كان زائداً فى الموضع الذى ضَغَط عليه وهو يَذكر لهم شعار وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. أحَسُّوا أنه ضَغَط على عبارة «كل شىء»، وحَيَّرَهم وأثار هَواجسهم إذا كان الجنرال يَقصد «كل شىء هنا» كما يَقصد «كل شىء هناك» ـ وأين تقف بالضبط هذه الحدود لـ«كل شىء»؟!

ثم يَدخل الجنرال «يورى» إلى عَرض تَصَوُّره لأداء مُهمَّته. وهو فيما يبدو فاهمٌ مُستوعِب، مُقَدِّرٌ للحقائق، عارفٌ بالظروف، مُدركٌ كما يَظهَر أن روسيا لديها قُدرات عالية لكنها غير قابلة للاستعمال. لديها مثلاً أقوى قوة صواريخ بعيدة المدى، ولكن المشكلة هى كيف تستعملها؟ ولأى هَدَف؟ وضدَّ أى عَدُو؟

ثم إن روسيا وَرَثَت عن الاتحاد السوفيتى أقوى جهاز مخابرات فى العالم، وهذا الجهاز قادر أن يَضَع قيادة البلد السياسية فى صورة ما يجرى فى أى مكان، لكن هناك مشكلة أن روسيا لا تَملك اعتمادات مالية تَكفى لتَشغيله بكامل طاقته. ثم إنه على فرض تَوَفُّر الموارد فإن المعلومات لا بد أن تكون فى خدمة سياسة، والسياسة رُؤية كاملة فيها اقتصاد قوى، ومجتمع مُتماسك، وهَوِيَّة مُحَدَّدة، ومَطلب مشروع، وتَهديد مُحتمَل ـ وبهذه المعايير فإن روسيا كانت لها سياسة أيام كان الاتحاد السوفيتى دَولة عُظمى ـ لكنها الآن فى عهد الاتحاد الروسى تَقف فى مكانها جامدة، وتَتلَفَّت حولها حائرة، وتَتَقَدَّم خطوة وتَتَراجَع خطوة ـ مُحاذِرة!

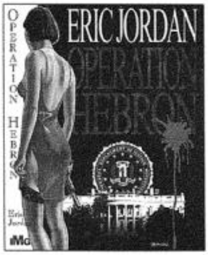
على أنه مهما كان فإن روسيا لها الحَق أن تَعرف، على الأقل تَعرف. مجرد المعرفة تكفيها الآن حتى بغير نَصر!

ويَعرض الجنرال «يورى» أسلوب عَمَل يراه قادراً على مَعرفة كل شىء دون أعباء يَعلَم قبل غيره أن من الصَعب توفيرها. وكذلك فهو يقترح التركيز على إسرائيل، وأسبابه كما يلى:

١ ـ أن كل كلمة تُقال فى واشنطن طول النهار ترشح قبل نزول الليل فى تل أبيب. وهكذا فإن أفضل مكان ـ وأرخص مكان ـ لمتابعة فكر وفعل الإدارة الأمريكية هو تل أبيب وليس واشنطن!

٢ ـ أن إسرائيل لديها شَبَكة مُخابرات عالية الكفاءة ـ يُساعد فيها يهود العالم ـ ومعنى ذلك أنها خَزَّان مُمتلئ دَواماً بأخبار ما يَجرى فى كل القارات خصوصاً آسيا وأفريقيا ـ وإذا كثفت روسيا نشاطها فى تل أبيب فإنها تُعطى نفسها مَورداً للمخابرات واسعاً وعميقاً يَتجَمَّع فيه كل ما تعرفه أمريكا، وكل ما يَعرفه يهود العالَم، وكل ما تَعرفه إسرائيل.

٣ ـ أن روسيا لديها فى إسرائيل إمكانيات لا يَتصَوَّرها أحد، ففى مَوجات الهجرة الروسية استطاعت الـ«كى. جى. بى.» (K. G. B.) مخابرات الاتحاد السوفيتى) أن تَسوق مئات ومئات من جواسيسها ضمن المهاجرين. هناك أيضاً أن عصابات المافيا الروسية شَحَنَت عَناصر منها بسرعة إلى إسرائيل، وقد نَشطت هذه العَناصر من عصابات المافيا على جَبهات عريضة من تجارة الماس إلى استيراد اليورانيوم، ومن تهريب المخدِّرات إلى تَصدير العاهرات ـ ولأن هذه العصابات تريد أن تظل صلتها مع روسيا قائمة فهى تَتَعاوَن مع المخابرات الروسية، وتَتَعاوَن بمَقدِرة.



٤ - هناك أيضاً إمكانية ثالثة - غير العُملاء المدسوسين وغير عصابات المافيا - يمكن توظيفها لحساب المخابرات الروسية، وهُم هؤلاء الذين غادَروا روسيا إلى إسرائيل ثم اكتشفوا بعد أن وَقَعَت الواقعة أن الجحيم الروسي أفضل من الفردوس الإسرائيلي، والآن فإن معظم هؤلاء على استعداد أن يُفتحوا طريق عَودتهم - بتقديم خَدَماتهم للوَطَن الأصيل!

وتنبَهر القيادة الروسية بما سمعته ويَصيح «ألكسندروفيتش» بزملائه قائلاً: «هل ترون؟ كان هذا الكنز من وسائل العَمَل لدينا دائماً ونحن لا ندري، ولكن «يوري» هو الذي لَفَت أنظارنا إليه وإلى إمكانية استخدامه».

□

ويأخذ الجنرال «يوري» سامعيه المبهورين به خطوة بعد خطوة إلى «الحَلّ العَبقري» الذي يَعرفه ولا يعرفونه لكنهم يَتَشَوَّقون إلى سَماع «كل شيء عنه».

يُفاجئهم «يوري» - فوق كل ما قال





وزيادة عليه - بسر توصل إليه وهو سر «العملية هبرون».

يبدو الذهول على الرئيس الروسي وزملائه المجتمعين معه في مزرعة «جوكوفكا» لأنهم لا يصدقون أن مثل ذلك ممكن، ولا يتصورون أن إسرائيل تصل بالمغامرة إلى هذا الحد. لكن الجنرال «يوري» يبدو واثقاً مما يقول معتمداً فيه كما هو ظاهر على «شبكة معلومات» لا مثيل لها في العالم كله موجودة في إسرائيل.

يتساءل الرئيس «بوبوف»:

- «هل نعرف من هو «هبرون» الذي يريدونه «رئيساً» لأمريكا والذي هو «عميلهم» في الحقيقة؟»

ويرد الجنرال «يوري» بلهجة توحي بالاقتدار:

- «لم نستطع تحديد شخصيته حتى الآن لكننا سوف نعرف بالتأكيد مع مواصلة البحث».

ويتدخل وزير الخارجية «ستراقينسكي» فيقول:

- «هناك على الساحة أربعة مرشحين:

عن الحزب الجمهوري يتنافس نائب الرئيس «هيز»، لكن الرئيس «دوجلاس» يظنه ضعيفاً وغير قادر على إدارة مرحلة يحسبونها مرحلة سيادة أمريكية مطلقة في العالم، ولذلك فهو يساعد سراً حتى الآن صديقه السناتور «جونسون» الذي يحظى باحترام كبير.

هناك عن الحزب الديمقراطي مرشح واحد هو السناتور «ويستليك».

من المستقلين هناك «كرامر» وهو رجل لا يبدو منه خطر، وسوف تزيحه الانتخابات الأولية من الساحة إلى الهامش كما حدث مع غيره ممن دخلوا الانتخابات مستقلين، أو ممن راودهم حلم إقامة حزب ثالث في الولايات المتحدة.

عميلهم الذي يسعون إلى تنصيبه رئيساً لا بد أن يكون السناتور «ويستليك»، فهو الصديق المخلص إلى النهاية. سجله في التصويت على كل مشروع قرار يخص إسرائيل معها ولصالحها دائماً وأبداً.

لا أظنهم يعلقون خطة كبيرة بهذا الحجم على نائب الرئيس «هيز» لأنه شخصية مهزوزة وسوف يكشف نفسه ويكشفهم معه بسرعة.

السناتور «جونسون» ليس رجلهم. سجله في التصويت معارض دائما لإسرائيل سواء فيما يخصها مباشرة أو لا يخصها.

وإذن فهو «ويستليك» - أراهن».

لكن الجنرال «يوري» «حريص» لا يقبل الرهان. وتقديره بالصمت أن قضية بهذا الحجم لا يعتمد فيها على الاستنتاج حتى لو سانده المنطق فبدا معقولاً - محتملاً أكثر من غيره.

والجنرال «يوري» لا يدخل في مباراة حماسة أو تخمين، وإنما يقول في غموض: «الأفضل أن ننتظر حتى نعرف .. حتى نعرف كل شيء .. وسوف نعرفه».

□

لكن الجنرال «يوري» لا يبوح لرؤسائه «بكل شيء» يعرفه. لا يقول لهم أنه على علاقة مشبوبة باللهب مع امرأة صربية شديدة الجمال اسمها «جاكي ماركوفيتش». وهو يعرف أنها على صلة بأجهزة مخابرات تستعملها عن بعد. وأنها قاتلة محترفة في مهام خاصة يكون طغيان الجمال فيها سابقاً على سفح الدم أو دس السم. على أنه برغم ما يعرفه عن سرها يجد سحرها طاغياً، وهو قبل وبعد كل شيء رجل يعرف كيف يحصن نفسه. يمسك بالوردة ويتجنب شوكها. والوردة لا تقاومه، بل هي معه تنزع شوكها مطمئنة إلى أنها علاقة جسدين يتشوق كل منهما إلى الآخر، مع بقاء العقول في مكانها، وبقاء القلوب بعيدة عن الموضوع. فهي ليلة واحدة - ما بين فترة وأخرى في تلك العاصمة أو تلك لساعة من اللهب، وفي الغد كان شيئاً لم يكن، مثل بواخر تقابلت بالليل في عرض المحيط وتلألأت أنوار كل واحدة أمام الأخرى، لكنها لحظات على الموج ثم تمضي كل باخرة نحو مقصدها إلى ميناء بعيد!

والجنرال «يوري» يعرف - وقد ترك «جاكي» تعرف أنه يعرف - أنها هي التي قامت بعملية تصفية السفير «سورنسون» في بروكسل.

وأبعد من ذلك فإن الجنرال «يوري» أوحى لعشيقته الدورية أنه «يعرف» أنها مخدوعة رغم تمرسها في عوالم الظلام.

وقد جعلها الجنرال «يوري» تفهم دون أن يصرح بأنهم «الإسرائيليون» وليس «الإيرانيون». «الموساد» الإسرائيلي حصل على الرمز الإيراني وحوله إلى إشارة لها وإلى عقد عمل. وقد وجدوا الخديعة مغرية: لا يتحملون مسئولية إشارة بعملية خطرة - ولا يدفعون أجر تنفيذ العملية - ثم يجعلون الاتهام موجهاً إلى غيرهم.

وفكرت «جاكي» فيما أوحى به «يوري»، ثم توصلت إلى تصديق ما فهمته منه!

وإذن فقد خدعوها. خدعتها المخابرات الإسرائيلية. خدعها الرجل الذي تعاملت معه بثقة لزمان طويل وهو «تيرون» مدير محطة «الموساد» الرئيسية في واشنطن .. «تيرون» وليس غيره - ولم يقل لها يوري ما هو أكثر لا بالتصريح ولا بالتلميح.

وتصمم «جاكي» على أن تنتقم. ففي هذا العالم الخفي تتعلق سمعة الأطراف بقدرتهم - على الفعل عندما يكلفون به - «بأمانة» - وعلى الانتقام عندما يحاول أحد أن يتلاعب بهم ويغش - بحزم. فهذا العالم الخفي يقوم كله على الثقة والحسم، فإذا اهتزت الثقة - أو انكشف التلاعب - حدث في عالم الجريمة كما يحدث في عالم البنوك، إفلاس وخراب.

□

بعد أيام يفاجأ الجنرال «يوري» بدعوة إلى اجتماع للقيادة الروسية العليا مع الرئيس «فلاديمير بوبوف»، ليجد كتلة من المفاجآت تنتظره. ففي القاعة الخارجية لمكتب الرئيس «بوبوف» كان في انتظاره مسئوله السياسي المشرف على النشاط الخارجي والمعلومات الذي بادره بغير مقدمات:

«عليك أن تنقذنا من كارثة. رئيسنا «بوبوف» طرأت له فكرة لتحسين علاقته بالأمريكان وكسب نقطة عند الرئيس «دوجلاس». وهو يريد أن يبلغه بسر «العملية هبرون». وأنا أعارض، ولكن وزير الخارجية المنبطح أرضاً «ستراقينسكي» يؤيد الفكرة ويراها «ضربة معلم». نحن أمام موقف خطير وعليك أن تثبت فيه. وإذا منعت الرئيس من تنفيذ خطته المجنونة فسوف تدخل تاريخ روسيا من أوسع باب. وسيلتك لمنعه أن تحذره. حاولت أنا أن أحذره لكنه لم يلتفت إلى ما قلت. أما أنت وباعتبارك المسئول العملي في ميدان الأمن فإنه سوف يأخذ كلامك أكثر جداً».

ويدخل الجنرال «يوري» مكتب الرئيس «بوبوف»، وكان الآخرون في انتظاره، وانقض عليه السؤال قبل أن يتخذ مقعده:

«ما رأيك يا يوري إيفانوفيتش في أن نقوم بإخطار الرئيس الأمريكي «دوجلاس» بسر «العملية هبرون»؟»

أجهزة سرية فوق الأرض تطارد أجهزة سرية تحتها. والجريمة على موعد مع السياسة

ثم يروح الرئيس «بوبوف» يشرح:

«نحن في حاجة إلى «دوجلاس» لضرورتين عاجلتين: نريد تأييده لانضمامنا إلى مجموعة الدول السبعة التي تدير سياسة واقتصاد العالم. ونحلم بأن يتحول السبعة بنا إلى ثمانية - هذه هي الضرورة الأولى. والضرورة الثانية أننا طلبنا من صندوق النقد الدولي قرضاً كبيراً لتثبيت الروبل، ولا أمل لنا في الحصول عليه دون تأييد «دوجلاس»..»

يستطرد «بوبوف»:

«والسؤال هو ماذا لدينا لنقدمه إلى «دوجلاس» عربوناً على حسن نيتنا وحرصنا على أمن الولايات المتحدة؟»

ويرد الجنرال «يوري» معارضاً يعدد أسبابه بهدوء:

«١ - إن تسريب سر «العملية هبرون» للرئيس الأمريكي سوف يكشف مصدراً في إسرائيل يستحق الحرص عليه، بل يلزم الحرص عليه لأن موقعه في القرار الإسرائيلي غير قابل للتعويض.

٢ - ما سوف نقوله للأمريكان سوف «يرشح» كالعادة في إسرائيل ومن ثم فسوف تعرف إسرائيل، وهي لن تقوم بتصفية مصدرنا فقط ولكنها سوف تتقصد نشاطنا كله هناك وتطارده.

٣ - إن الأمريكان لن يصدقوا ما نقوله إذا كانت إسرائيل طرفاً فيه لأن حبهم لإسرائيل أعمى!

٤ - إن الأمريكان في العادة يتشككون في أية معلومات تصلهم تطوعاً. يعتقدون أن تسليمها لهم لا يمكن أن يكون دليل حسن نية، وظنهم أن التسريب سوء نية لها ما وراءها. وهذه عقليتهم. لا يفهمون منطق أن يحصلوا على شيء مقابل لا شيء!»

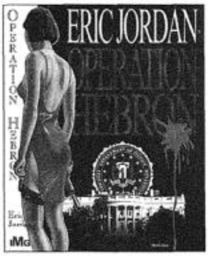
ويظهر أن اعتراضات «يوري» لم تنجح في تغيير رأي الرئيس. لأن «بوبوف» مصمم، وهو يطلق حجته النهائية قائلاً للجميع:

«أريد أن ألفت نظركم إلى أن هناك ما هو أكثر من رغبتي في مجاملة الرئيس «دوجلاس». وهنا فإنني أرجوكم أن تتصوروا صعوبة موقفنا إذا أصبح رئيس الولايات المتحدة عميلاً لإسرائيل - وتحت تصرفه ترسانتها كلها بما فيها الأسلحة النووية.

أسوأ الشرين أن نذهب إلى هذا المدى في مجاملة الولايات المتحدة - لكن أسوأ الشرور كلها أن نقف ساكتين حتى نرى روسيا خاضعة لإسرائيل إذا تمكنت من وضع عميلها في البيت الأبيض!»

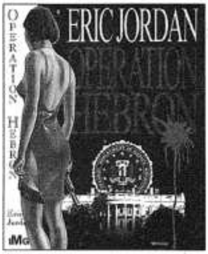
وينتهز «بوبوف» تأثير كلامه المعبأ بنذر الشؤم ثم يتخذ قراره ويكلف وزير خارجيته المؤتمن «ستراقينسكي» بأن يتولى مهمة إبلاغ رئيس الولايات المتحدة بـ«العملية هبرون» - ويلتفت «بوبوف» إلى الجنرال «يوري» ويقول:

«يوري إيفانوفيتش.. عليك أن



المؤامـرة والسياسـة والجـريمة





تسبق إلى واشنطن. وتكون جاهزاً هناك لكل الاحتمالات بما فيها تقليل حجم الخسائر المحتملة فى مصادرك».

وينتهى الاجتماع بهذه النبرة الحازمة، ويَهِمُّ الجنرال «يورى» خارجاً من القاعة، ويَلحَق به وزير الخارجية الروسى يحاول تنويم شكوكه قائلاً له :

«لا ينبغى لك أن تجعل عقلية الحَرب الباردة تَحكُم تصرُّفاتك أو مشاعرك. هذا الآن عالم مُختلف ومليء بالاحتمالات».

ويَرُدُّ الجنرال الخبير العارف قائلاً :

«إنك سوف ترى بنفسك. الأمريكان لن يُصدِّقوك. عندما يجيئهم التحذير من روسيا فأول رَد فعلهم الشك. عندما تجيئهم المعلومات مَجاناً فإنها إذن رخيصة، وهى بالتالى مما لا يُمكن الوثوق به».

ويُطمئنه وزير الخارجية بقوله:

«إن خَطر «العملية هبرون» على مستقبل روسيا أكبر من خَطره على أى طَرف فى العالم حتى على العَرب .. فكِّر كيف تَحمى مصادرك. فهذا أوْلى الآن بجهدك من القلق بسبب فكرة «بوبوف»!» ■

٦ متغيرات الموازين بين قوتين!

■ ■ فى الفصل الخامس عشر من قصة «إريك جوردان» «العملية هبرون» والتى كَتَبها، ومخزون تجربته كمسئول كبير فى وكالة المخابرات المركزية لمدّة ثلاثين سنة عماد مَعرفته ومَصدر ثقافته - تصل القصّة - الخيال الملتبس بالحقيقة والحقيقة الملتبسة بالخيال - إلى مكتب مستشار الأمن القومى للرئيس - وهو نفسه الدكتور «ويليام رَسل».

تليفونه الخاص يَدُق وهو ما زال فى بيته، والمكالمة من موسكو. ويَفهَم «رَسل» أن مكتب وزير خارجية روسيا «أندريه سترافينسكى» على الخط - ثم يَسمَع صوتاً يقول له «أنه هو نفسه سترافينسكى يَتحدّث إليه مباشرة ودون مدير مكتب يَطلب له الرَقم ويُعطيه جهاز التليفون». ويتأكد «رَسل» أنه بالفعل صوت «سترافينسكى»، وتُدهشه المكالمة، ولا يَتذكَّر سبباً ظاهراً يَستدعى توَقُّعها. ويُجيب «سترافينسكى» على تساؤله وكأنه أحس بخواطره قائلاً له : «هناك رسالة سرِّية وعاجلة من الرئيس «بوبوف»، وقد كُلِّفت أنْ أنقلها إليكم، وهى لعلم الرئيس شخصياً، ولا يجب أن يعرف بها أحد من مُساعديه غيرك، ولا من سكرتيريه مهما كانت دَرَجة قُربهم»!

ويَسمَع «رَسل» وهو يُهَمهِم بأصوات لا معنى لها إلا استعجال الحديث إلى غايته. ويُواصل «سترافينسكى» كلامه : «لا أريد أن أجىء إلى واشنطن بنفسى وأقابل الرئيس فى البيت الأبيض لأن ذلك سوف يُلفت الأنظار. رأينا أن تكون أنت الرَجُل الذى نفضى إليه بالرسالة ينقلها إلى الرئيس. وأنا قادم إلى نيويورك بعد غد، وهو يوم السبت، وأستطيع أن ألقاك فى فندق «والدورف استوريا» فى الجناح الذى التقينا فيه من قبل وأنت تعرفه. سوف يكون هَدَفى المعلن من زيارة الولايات المتحدة هو الاجتماع بالسكرتير العام للأمم المتحدة فى نيويورك لبحث التطورات فى البلقان، لكن مُهمّتى الحقيقية معك».

يَرُدُّ «رَسل» : «ألا تستطيع التلميح لى بشىء عن الموضوع من غير تفاصيل ؟ الحقيقة أننى سوف أجد صعباً علىّ أن أعرض على رئيس الولايات المتحدة موضوعاً لا عنوان له ؟».

ويَرُدُّ «سترافينسكى» بسرعة : «مُستحيل. الموضوع لا يُناقش ولا حتى بالإشارة عبر الأجواء - مع أنى أعرف أن تليفونك آمن وتليفونى كذلك، ولكن إجراءات الحماية الإلكترونية للمحادثات التليفونية تَظل مُعَرَّضة حتى على مستوى البيت الأبيض والكرملين»!

□

المشهد التالى فى هذا الفصل يَقَع خارج مكتب الرئيس «دوجلاس»، حين يَدخل مستشاره للأمن القومى ينتظره فى مكتب السكرتيرة الخاصة. والرئيس كان يَزور «مَلعَب جولف» يُمارس فيه رياضته المفضلة كلما واتته فرصة. وقد وَصَلَ الرئيس الآن فعلاً إلى البيت الأبيض، لكنه دَخَلَ الجناح الخاص لحَمّام سريع (بعد الرياضة)، قبل أن يَتوَجَّه إلى المكتب البيضاوى ليُقابل مستشاره للأمن القومى، ويَعرف منه ما هى الضرورة العاجلة التى استوجبت طلب مقابلته على الفور.

يَصل الرئيس «دوجلاس». ويَعبُر مكتب سكرتيرته داخلاً إلى المكتب البيضاوى، ويَمشى وراءه الدكتور «رَسل». ويَستمع «دوجلاس» إلى مستشاره للأمن القومى يَحكى ما لديه. ومع أن الرئيس استغرب الملابسات والتوقيت، فإنه يَقول لـ«رَسل» :

«ليس أمامنا غير أن نسمع ما عندهم. ولكنى أريدك من باب الاحتياط أن تَطلب إلى وكالة الأمن القومى (N.S.A. وهى تتولى التجسس الإلكترونى كله على مستوى العالم) أن تَجيء بالشريط الذى سَجلوا عليه مكالمة «سترافينسكى» معك، وأن يَضعوه فى ظرف مختوم وأن يبعثوا به إلى البيت الأبيض، وسوف نَرُدُّه إليهم للحفظ فيما بعد طبقاً للأصول».

يُضيف الرئيس : «أريد أن أجعل هذا الاتصال محصوراً بحيث لا يُوَزَّع نصُّه ضمن ما يُوَزَّع من التسجيلات كل يوم على المسئولين الذين لهم حَق الاطلاع. أريد ذلك حتى نَفهَم بالضبط ما هو الموضوع.

أرى من باب الاحتياط أن لا تذهَب إلى أى مطار لتأخذ منه طائرة إلى نيويورك - ظهورك فى أى مطار يُلفت النَظر. خُذ سيارة واذهب بها إلى نيويورك، ولا تَذهَب بسيارة من البيت الأبيض، وإنما استأجر سيارة تَذهَب بك وتعود.

لا أعرف ماذا يُريدون؟ وما إذا كان ما عندهم يُساوى الاحتياط إلى هذه الدَرَجة ؟ - لكننا سوف نَحكُم بأنفسنا بعد أن نعرف».

□

المشهَد الثالث فى هذا الفصل يَقَع فى جناح وزير الخارجية الروسى داخل فندق «والدورف أستوريا» فى قلب نيويورك. الساعة الحادية عشرة والنصف من مساء الأحد، والكل فى إجازة، وليس هناك «مخلوق» فى ممرات الـ«والدورف». وجناح وزير الخارجية الروسى عليه لوحة تقول «رجاء عَدَم الإزعاج». لكن الدكتور «رَسل» يَعرف أن ساكن الجناح الذى وَضَع بيده لوحة «عَدَم الإزعاج» ينتظره بلَهفة وراء الباب المغلق.

ويلتقى الرَجُلان وَجهاً لوَجه، ووزير الخارجية الروسى لا يُضَيِّع وقتاً، وإنما يبدأ على الفور:

«لدينا رسالة من الرئيس للرئيس. الرسالة بالغة الأهمية!»

يقول له «رَسل» :

«جئت بأمر رئيسى لأسمعها منك!»

يَستأنف الروسى كلامه :

«كل الأجهزة عندنا كانت تعارض قيامنا بإخباركم بما سوف أقوله لك الآن. فى الكرملين كانوا يعارضون. فى المخابرات (الـ«كى. جى. بى.») أصابهم الجنون تقريباً لأن الرئيس قَرَّر إبلاغكم بما سوف أقوله لك. إنما الرئيس «بوبوف» من باب «تأكيد الثقة» و«اعتبار الصداقة» بينه وبين الرئيس «دوجلاس» - أسقط اعتراضات الجميع وقَرَّر أن أقوم بإبلاغك بما سوف تَسمَعه الآن».

ويبدو على الدكتور «رَسل» نوع من الضيق بكل هذه المقدّمات «عما سوف يسمعه الآن».

ويَشعُر «سترافينسكى» داخله بنوع من الحَرَج فيَهمس لنفسه : «هؤلاء الأمريكان ليس لديهم عِرفان بالجميل تجاه أحد»!

لكنه يَتجاوَز حَرَجَه ويقول للدكتور «رَسل» :

«لدينا معلومات مُؤكَّدة - من مَصدَر لا يَرقى إليه شك - أن القيادة العليا الإسرائيلية اعتمدت تنفيذ «عَمَلية» أطلقوا عليها الوصف الرمزى «هبرون» - هَدَفها وَضع عميل لهم فوق مقعَد الرئاسة الأمريكية. و«هبرون» كما يَظهَر لنا واحدٌ من المشاركين فعلاً فى السباق إلى التَرشيح الرئاسى. معلوماتنا فوق ذلك تُؤكِّد أن المسئول عن إدارة «العملية هبرون» هو «دافيد تيرون» مدير محطة «الموساد» فى واشنطن. وتلاحظون أن «تيرون» سافر إلى إسرائيل خمس مرات فى ظرف شهر واحد. السفير الإسرائيلى فى واشنطن لا يَعرف فى الغالب، لأن «العَمَلية» مَحصورة ومباشرة بين رئاسة الوزارة فى إسرائيل وبين مدير محطة «الموساد» فى واشنطن ....»

يَتوَقَّف وزير الخارجية الروسى - ومستشار الأمن القومى يُحاول السيطرة على مشاعره، وبعد لحظة صَمت يسأله : «أهذا هو الموضوع السرِّى العاجل والخطير ؟»!

يُعاود وزير الخارجية الروسى شعوره بالحَرَج مَمزوجاً هذه المرة بلمسة من النَدَم على أنهم قَرَّروا «إبلاغ هؤلاء الناس عديمى العرفان بسر يُؤثر على بَلدهم وهُم لا يُقدِّرون ولا يَشكرون»!

لكن وزير الخارجية الروسى يُغالب مَشاعره ويقول :

«أفهم أن لديكم شكوكاً - أوَّلها ما هى مَصلحتنا فى إبلاغكم ؟ - ونحن نعرف أنكم لا تُؤمنون بالمشاعر بما فى ذلك الصداقة والثقة بين الأصدقاء. أنتم لا تقتنعون بشىء إلا إذا أخذتموه بأيديكم أو إذا بَدَت لكم وراءه مصلحة ظاهرة لأصحابه. ليكن. روسيا لها مصلحة أمنية، لا تُريد أن ترى عميلاً إسرائيلياً جالساً فى المكتب البيضاوى وفى يَده قرار الولايات المتحدة الأمريكية وقُوَّتها».

ولا يُعَلِّق الدكتور «رَسل»، لكنه «يَشفط» آخر قطرة فى كأسه ويقول لـ«سترافينسكى» :

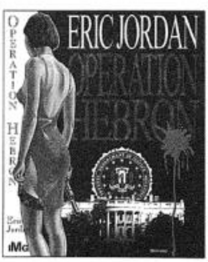
«علىَّ الآن أن أعود إلى واشنطن قبل أن يَطلع نور الصبح وأكون فى مَكتبى كالعادة مع بداية الأسبوع دون أن يَلحَظ أحد غيابى. فليس هناك من يعرف أننى هنا غير الرئيس».

□

المشهَد الرابع فى هذا الفصل يَقَع بين جُدران المكتب البيضاوى والرئيس «دوجلاس» على مقعَده وأمامه مُستشاره للأمن القومى ومعه السر.

يَسمَع الرئيس مستشاره وهو لا يكاد يُصَدِّق، وتَعليقه تلقائياً :





«أهذا معقول ؟ - هل تستطيع إسرائيل أن تُفكِّر فى عَمَل من هذا النوع وهى تعرف مخاطر انكشافه ؟ - أظن أن «الروس» مُخطئون. هُم ليسوا سَيِّئى النِيَّة فيما أظن، لكنهم فى الغالب يلعبون على ما نعرفه جميعاً من قُرب السناتور «ويستليك» من اللوبى الإسرائيلى.

ومع ذلك (يَتَرَدَّد الرئيس لحظة) لا نستطيع أن نتجاهَل ما سمعناه حتى وإن لم نأخذه جَدّاً إلى الآخر. (يَتَرَدَّد الرئيس مرة أخرى) أظن أن الحَلّ المنطقى أمامنا إدخال مكتب التحقيقات الفيدرالى فى الموضوع. نحن لا نستطيع من البيت الأبيض أن نتابع، ولكن مكتب التحقيقات الفيدرالى يستطيع. وفى إمكاننا أن نعتمد على حكمة رئيسه القاضى «بيكر»، وسوف أطلب منه أن يُكلِّف بالمهمَّة عميلاً واحداً من أعوانه. (يَتَذَكَّر الرئيس «دوجلاس» شيئاً ويُضيف) هذه الفتاة التى قامت بالتحقيق فى عَمَلية قتل المسكين «سورنسون». اسمها «بريندا» أليس كذلك ؟ - كانت فى منتهى الذكاء والنشاط فى عَمَلها لأنى تابَعت التحقيق. قتلوا «سورنسون» لأنه كان صديقى، ولن أغفر للذين فَعَلوها مهما طالَ الزَمَن».

وتجرى دعوة القاضى «بيكر» على الفور، ويجىء لمقابلة الرئيس ومعه معاونته «بريندا». ويَسمع الاثنان رواية مستشار الأمن القومى فى حضور رئيس الولايات المتحدة، وعلى وَجه كل منهما تعبيرات مُحايدة لا تكشف مشاعره (وذلك تدريب له قواعده).

ويَطلب القاضى «بيكر» تفويضاً رئاسياً يُعطيه الحق فى استعمال أجهزة حسَّاسة داخل السفارة الإسرائيلية، ولا يحتاج إلى إذن بمراقبة تليفوناتها لأن تليفونات كل السفارات فى واشنطن تحت الرقابة بطريقة «اعتيادية»!

وآخر تَوصية من الرئيس «دوجلاس» قبل أن يَنصَرِف رئيس مكتب التحقيقات الفيدرالى إلى مُهِمَّته الخطيرة الجديدة هى قوله : «إذا كانت حكاية الروس صحيحة فأظن أن تركيزكم يجب أن ينصَبّ على السناتور «ويستليك» فهو بالتأكيد رَجُلكم (يُكَرِّر مرة ثانية) هذا إذا كانت الحكاية الروسية صحيحة».

□

وتقترب قصَّة «إريك جوردان» من ذروتها وكان مُؤلِّفها يَقرأ من كتاب مَفتوح أمامه :

فى الأسبوعين السابقين على يوم الاقتراع - زادَت حَرارة السباق الانتخابي إلى دَرَجة الحُمَّى، وتَوَتَّرت الأعصاب إلى حَدّ الانفجار!

كان السباق بين المرشحين لعبة قمار، والرهان على أصوات اليهود يَرتفع، ونفوذ اللوبى الصهيوني عالى الرنين والطنين لدَرَجة مُزعجة وإلى حَدّ أن السناتور «ويستليك» تَعَهَّدَ بأنه غداة دخوله المكتب البيضاوى فسوف تكون أولى مهامه كرئيس هو توقيع قرار بإشراك إسرائيل فى صناعة الطائرة «ى. ف. ٢٢» التى تُعتَبَر الطائرة المقاتلة للقرن الواحد والعشرين.

ومع أن الشكوك حول السناتور «ويستليك» تَزيد إلا أن مكتب التحقيقات الفيدرالى رغم كل ما بذله القاضى «بيكر» ومساعدته «بريندا» من جهد - لا يَصل إلى دليل قاطع. وقد تَمَكَّنَت «بريندا» عن طَريق الرقابة المكثفة بما فيها الرقابة المباشرة على مكتب السفير الإسرائيلى فى واشنطن ومكتب مدير محطة «الموساد» - من العثور على قرينة تشير إلى أن هناك بالفعل عملية يُطلَق عليها اسم «هبرون» - لكنها لم تَتَوَصَّل هى أو غيرها إلى شىء بعد ذلك. وحتى تلك القرينة التى وَصَلَت إلى «بريندا» جاءتها بالمصادَفة حين كانت تَتَسَمَّع بنفسها على ما يجرى فى مكاتب السفارة الإسرائيلية بفضل وسائل جديدة «مُذهلة فى دقتها وتعقيدها» يستعملها مكتب التحقيقات الفيدرالى. وكانت «بريندا» تُفَضِّل هذه الوسائل لأنها تجعلها مُستمعة - كأنها ترى ما يجرى داخل السفارة وفى أى مكتب. وكانت تُفَضِّل وهى تسمع أن يكون أمامها جهاز خاص يقوم بتحليل نَبرات كل صوت تَسمَعه حتى تستطيع بلوغ أعماقه: تَكتشف مَدى المجاملة فيه - مَدى الجدِّية - مَدى الصدق - مَدى الكَذِب!

وقد استمعت «بَريندا» إلى «تيرون» (مدير محطة «الموساد» فى واشنطن) مرة وهو يُوقِف صوتاً ينطق بكلمة «هبرون» ويُقاطعه «تيرون» قبل أن يُكمِل النُطق قائلاً له : «أنت تَقصد تلك البلدة فى الضفة الغربية؟» («هبرونَ» هى الخليل).

لكن تلك القَرينة لا تكفى. وتقترح «بريندا» على رئيسها القاضى «بيكر» أن يقوما معاً بزيارة للمرَشَّحين الثلاثة : الجمهورى «جونسون» - الديمقراطى «ويستليك» - المستقل «كرامر» - ثم يُشيران بطرف خَفى لكل منهم إيحاءً بـ«تَدَخُّل أجنبى فى الانتخابات الأمريكية»، ثم يَرصُدان ردَّة الفعل ويقيسان مَضمونها على جهاز تسجيل (لا يَعرف سرَّه أحد) سوف تَخفيه «بريندا» فى حقيبة يَدها (وهو يُؤدى دوره مُستعصياً تماماً على الكشف) - وكان جل اعتماد القاضى «بيكر» و«بريندا» على لحظة تُسال فيها «بريندا» كل واحد من المرشحين الثلاثة : «هل تعرف رَجُلاً اسمه «تيرون» ؟» (والمقصود هو مدير محطة «الموساد» فى واشنطن) - ولحظتها مع المفاجأة قد تَلمَع على الجهاز إشارة تَظهَر مُسَجَّلة!

ولسوء الحظ فإن المحاولة لا تكشف دَليلاً يُعتَمَد عليه. لكن «هبرون» نفسه يُصاب بنَوبة من الرُعب تُهَيِّئ له أن أمره على وشك أن يَفتضح! ■

٧ المفاجأة الكبرى قبل أن ينزل الستار

■■ تصل قصَّة «إريك جوردان» إلى الذروة، وأحداثها تتصاعَد بسرعة خاطفة:

الحقيقة لا تبدأ فى الظهور إلا ليلة إعلان نتيجة الانتخابات، وهى ليلة ليلاء.

تُصبح عملية عَد الأصوات سباقاً مَحموماً لأن الأرقام ظلَّت حتى اللحظة الأخيرة شديدة القُرب ما بين السناتور «جونسون» (الذى ساعده الرئيس «دوجلاس» على النجاح) وبين السناتور «ويستليك» (القريب من إسرائيل بما يُرَكِّز الشُبهات عليه). وفى نهاية ساعات من التَوَتُّر العَصَبى تَميل الأرقام لصالح «جونسون» بفارق يَقِل عن خمسة آلاف صوت. ويشيع أن «ويستليك» سوف يَطلب إعادة فَرز وعَد الأصوات من جديد فى ولاية «نيو هامبشَير».

وعند منتصف الليل يبدو وكأن العاصمة الأمريكية فَقَدَت توازنها.

الرئيس «دوجلاس» فى البيت الأبيض فى حالة نشوة لأن مُرَشَّحه المفضَّل «جونسون» فاز وإن بأغلبية صغيرة، وحتى إذا طلب «ويستليك» إعادة فَرز وعَد صَناديق ولاية «نيو هامبشَير»، فإن معلومات الرئيس «دوجلاس» أن إعادة الفرز إذا أخَذت وأعطَت هنا وهناك عشرة أصوات أو عشرين صوتاً لن تُغَيِّر شيئاً فى تشكيل المجمع الانتخابي للولاية، وسوف يَحصُل «جونسون» على أصواتها ويَنجَح، وسوف يَسقُط «ويستليك» صديق إسرائيل (عميلها «هبرون» ؟!)

وفى السفارة الإسرائيلية تثور عاصفة غَضَب، بعد أن سَمَع السفير نفسه على الوَكالة الإخبارية الشهيرة «سى. إن. إن.» إعلانها بفوز «جونسون» على «ويستليك»، ومعنى ذلك فى تقدير السفير أن كل استثمار إسرائيل فى «ويستليك» ضاعَ، ولابُد أن هناك تقصيراً من جانبهم، والمسئول عن الحملة الانتخابية «تيرون» مدير محطة «الموساد»، وسوف يبدأ باتهامه قبل أن تبدأ تل أبيب باتهامه هو (السفير)، وكذلك يَستَدعيه على عَجَل إلى مكتبه ويَصُبّ عليه جام غضبه، لكن «تيرون» لا يقول له شيئاً مُقنعاً، وبالعكس فإنه يتظاهر بتماسك لا مُبَرِّر له.

«تيرون» يعرف أكثر. وهو فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ذاهِبٌ إلى مقابلة مع «هبرون» طلبها عَميله بإلحاح مَلهوف فى هذه السَاعات المجنونة لأن لديه نَوبة ذُعر أصابته فى اللحظة الحاسمة بشَكٍّ يُهَيِّئ له افتضاح أمره - بانكشاف سِرّه بعد ما سَمَع من القاضى «بيكر» ومُساعدته «بريندا» التى سألته : «هل تعرف رَجُلاً اسمه «تيرون» ؟»

ويَتَوَجَّه «تيرون» إلى موعده مع «هبرون» فى فندق بعيد على أطراف واشنطن وهو لا يَشعُر أن امرأة غامضة هى «جاكى ماركوفيتش» فى أثره - تُطارده لأنها تعتقد أنه خَدعها، وتتهمه بأنه استعملها لتحقيق هَدَف أراده ثم أنكَرَ، وأسوأ من ذلك فهو لم يدفع لها أجرها حين طالَبَت به، وهى مُصَمِّمة على القصاص - ثم أنها فى هذه اللحظة بالذات وراءه، وهو فى غفلة بسبب العَجَلة.

ويدخل «تيرون» على «هبرون» فى الفندق الذى اتفقا على الاجتماع سرّاً فيه، ويُبَنِّه أن يَلومَه على إلحاحه فى طَلَب اجتماع بينهما تلك الليلة بالذات. وفى ثوان تقتحم «جاكى» غرفة اجتماعهما السرِّى، وتُطلق النار بمُسَدَّس كاتم للصوت وتُصيب وتَقتُل الاثنين. أحدهما وهو «تيرون» أرادَت قتله، والثانى لم تكن تعرف من هو ولا كانت تَقصد قتله لكنه وَقَع فى مرمى النار وسَقَط غارقاً فى دَمه.

ويَتَّضح أن «هبرون» القتيل بالمصادفة - هو السناتور «جونسون»، الرَجُل الذى ساعَده الرئيس «دوجلاس» لينجح، والرَجُل الذى يَملك سجلاً مُبرأ من الانصياع للوبى الإسرائيلى عند التصويت على مشروعات القوانين فى الكونجرس، وأهَم من ذلك فهو - وليس غيره - الرَجُل الذى نَجَحَ بفارق ضئيل قبل ساعات ليكون رئيساً جديداً للولايات المتحدة الأمريكية.

وتنتهى قصَّة عميلة جميلة. قاتلة مُحترفة. امرأة خَدَعوها فى أجرها وصَمَّمَت على الانتقام. وفى سورة غَضَبها غَيَّرَت مَجرى التاريخ - وحَقَّقَت مفاجأة المفاجآت عن غير قصد. لكنها فى المشهَد الأخير من القصَّة تَدفع الثمَن، لأن «بريندا» عميلة مكتب التحقيقات الفيدرالى طارَدَتها إلى أركان الأرض وفَجَّرَتها بقُنبلة رَبَّتت وَضعَها فى القارب الذى خَرَجَت به «جاكى» إلى أحد خلجان جزيرة «مايوركا» الأسبانية تَحسب نفسها آمنة فى فضاء البحر. وتقيَّدت الحادثة ضدّ مجهول لأن سرّها لم يَظهَر له أثر. فهو عالَم مَجهول فوق الأرض يُطارد عالَماً تحت الأرض!!

....

....

وبالفعل فإن مَشاهد ووَقائع القصَّة مثيرة للخيال - لكن الخيالَ الملتبس بالحقيقة أو الحقيقة الملتبسة بالخيال أكثر إثارة! ■

بكاء خاتمى يزيد الموقف غموضاً

مشروع الخاتمية ومستقبل الحل الوسط التاريخى فى إيران

محمد السعيد إدريس

قبل أربع سنوات، وعقب إعلان الفوز الكاسح للسيد محمد خاتمي في انتخابات الرئاسة الإيرانية على منافسه القوى على أكبر ناطق نورى (رئيس مجلس الشورى السابق) وصف المفكر الإيرانى الليبرالى الدكتور عبد الكريم سورش هذا الفوز بأنه كان بمثابة «ثورة صامتة» عبر فيها الشعب الإيرانى عن رغبته العارمة فى ضرورة مراجعة مسار الثورة الإيرانية وإعادة النظر فى الكثير من السياسات والتوجهات التي تبنتها. كما اعتبر أن هذا الفوز كان «رسالة إنذار» للثورة الإيرانية لإجراء «وقفة مع الذات» لاستخلاص العبر، ومعرفة رغبات وآراء الشعب والتجاوب معها فى الاتجاه إلى الانفتاح والتعبير والإصلاح «قبل فوات الأوان، وقبل انفجار الشارع السياسى الإيرانى». الأهم من ذلك أن سورش اعتبر أن خاتمي يمثل بتوجهاته «حلاً وسطًا تاريخيًا» يقر فيه الشعب الإيرانى بانحيازه لخط ثورة الإمام الخمينى، لكن مع ضرورة أن تقوم بإحداث إصلاحات جوهرية فى سياساتها ومسارها بما يتوافق مع متغيرات العصر.

ماذا حدث بعد أربع سنوات تحول فيها مشروع الإصلاح الخاتمى إلى «سياسة حكم» وإلى برامج وإجراءات وقوانين وقرارات؟ هل مازالت إيران فى حاجة إلى «الحل الوسط التاريخى»، أم أن التحديات والعقبات والإخفاقات التى واجهت هذا الحل الوسط باتت تفرض الحل الجذرى الذى ربما يكون ثورة على الثورة؟

الدوافع كثيرة لهذا التساؤل، يأتى فى مقدمتها، تردد الرئيس خاتمي لفترة طويلة فى التقدم بأوراق ترشيحه لولاية ثانية. فقد بقى خاتمي مترددا إلى ما قبل إغلاق باب الترشيح بـ٤٨ ساعة فقط. وفى أول مواجهة له مع الصحفيين أمام مبنى وزارة الداخلية عقب تقديم أوراق ترشيحه لم يستطع خاتمي أن يمنع تدفق الدموع من عينيه وهو يعترف بصحة تردده عن تجديد ولايته، وبكى ثانية وهو يؤكد أنه بذل كل جهد ممكن للبقاء على العهد الذى قطعه للشعب خلال ولايته الأولى.

لقد حققت حكومة الرئيس خاتمى الكثير من الإنجازات لكنها واجهت أيضا الكثير من الإخفاقات والتحديات ترجع فى الأساس إلى خصوصية عملية صنع القرار فى النظام الإيرانى وإلى طبيعة شخصية الرئيس خاتمى وموقفه شديد الولاء لهذا النظام. ويصعب الإجابة عن سؤال مستقبل «المشروع الخاتمى» باعتباره الحل الوسط التاريخى للجمهورية الإسلامية على حد وصف الدكتور عبد الكريم سورش، الذى يمكن عن طريقه تأمين مستقبل الجمهورية الإسلامية دون مراجعة جادة لتلك الخصوصية التى تميز عملية صنع القرار، ودون تحليل لمعركة الانتخابات الرئاسية الحالية للتعرف على مواقف كافة الأطراف من هذه الانتخابات وبالتحديد موقف مرشد الجمهورية السيد على خامنئى وموقف الرئيس محمد خاتمى، وحدود التغير والثبات فى منظور خاتمى لمشروعه الإصلاحى.

أولا: شخصية خاتمى وخصوصية عملية صنع القرار

يعكس نظام صنع القرار الإيرانى هيكلا للقوة غير مركزى، بمعنى تعدد مصادر صنع هذا القرار. فانقسام هيكل القوة، خاصة بعد وفاة الإمام الخمينى، بين مؤسسة المرشد ومؤسسة الرئاسة جعل من عملية صنع القرار الإيرانى ساحة لبناء الإجماع والجدل والمفاوضات والمساومات والتبادلات لها تكاليفها وآثارها على تشكيل سياسة ثابتة مستقرة. تأسيس نظام متعدد الأقطاب لصنع القرار جعل من سياسة الحكومة محصلة للتفاعل بين قوى مختلفة ولتوازن القوة فيما بينها. فظهرت عدة كيانات ثورية موازية لأداء الوظائف العادية للأجهزة الحكومية الموروثة عن النظام السابق، واستمرت بدرجة أو بأخرى. وأبرز الأمثلة على هذه الكيانات أو التنظيمات الثورية الجديدة الحرس الثورى. ولذا غالبا ما يتم التوصل إلى القرارات فى سياق من الحلول الوسط وفقا لنمط توازن القوة، ويتم مراجعتها بشكل دورى، خاصة فى مجال السياسة الخارجية.

وتبدو معالم الثنائية أو الازدواجية واضحة داخل الهياكل المؤسسية للنظام الإيرانى ذاته. فهناك مرشد للثورة يقابله (وإن لم يكن يوازنه بشكل كامل) رئيس الجمهورية، بشكل يجعل من الأول ممثلا لقمة الدولة الإيرانية بأكملها، ومن الآخر رئيسا للسلطة التنفيذية الإيرانية. وعلى مستوى السلطة التشريعية يوجد مجلس الشورى الإسلامى (البرلمان) المنتخب، يواجهه، أو بمعنى أدق يراقبه، مجلس صيانة الدستور، ويفصل بين الاثنين مجلس تشخيص مصلحة النظام فى حالة الاختلاف على تشريع معين حيث يكون له القول الفصل. وإذا كان مجلس الشورى ينتخبه الشعب فإن مرشد الثورة هو الذى يعين مجلس تشخيص مصلحة النظام. كما حرم الدستور مجلس الشورى الإسلامى من أن يلعب دوره الكامل من خلال القيود العديدة التى أضعفت من قوته التشريعية. من أهمها ترك تنظيم الانتخابات البرلمانية للمؤسسات التشريعية الأخرى (المادة ٦٢) خاصة مجلس صيانة الدستور الذى يشترط موافقته على المرشحين الذين سيخوضون الانتخابات سواء كانت انتخابات رئاسية أم برلمانية من خلال وضع شروط تضمن عدم تمكين الأشخاص غير المرغوب فيهم من خوض عملية الترشيح للانتخابات. ولقد تمت صياغة الشروط فى عبارات فضفاضة مثل: إن ولاء المرشح للجمهورية الإسلامية لا يجب أن يكون محل شك، الأمر الذى يسمح بإقصاء أى من المرشحين دون عناء.

وإذا كان مرشد الثورة يمتلك الكثير من الصلاحيات الدستورية التى تفوق صلاحيات رئيس الجمهورية، كما أنه يحوز السيطرة على الجيش والحرس الثورى وأجهزة الأمن والاستخبارات والإذاعة والتليفزيون فإن «مجلس خبراء القيادة» الذى يتم اختياره بالانتخاب هو الذى يختار المرشد ويراقب «نظريا» أعماله. لكن مجلس صيانة الدستور الذى يعينه المرشد هو المسئول عن منح صلاحية الترشيح لمجلس خبراء القيادة، أى هو الذى يعطى رخصة الترشيح لخوض انتخابات مجلس القيادة، وبالتالى هو الذى يتحكم، بدرجة كبيرة، فى تحديد عضوية هذا المجلس.

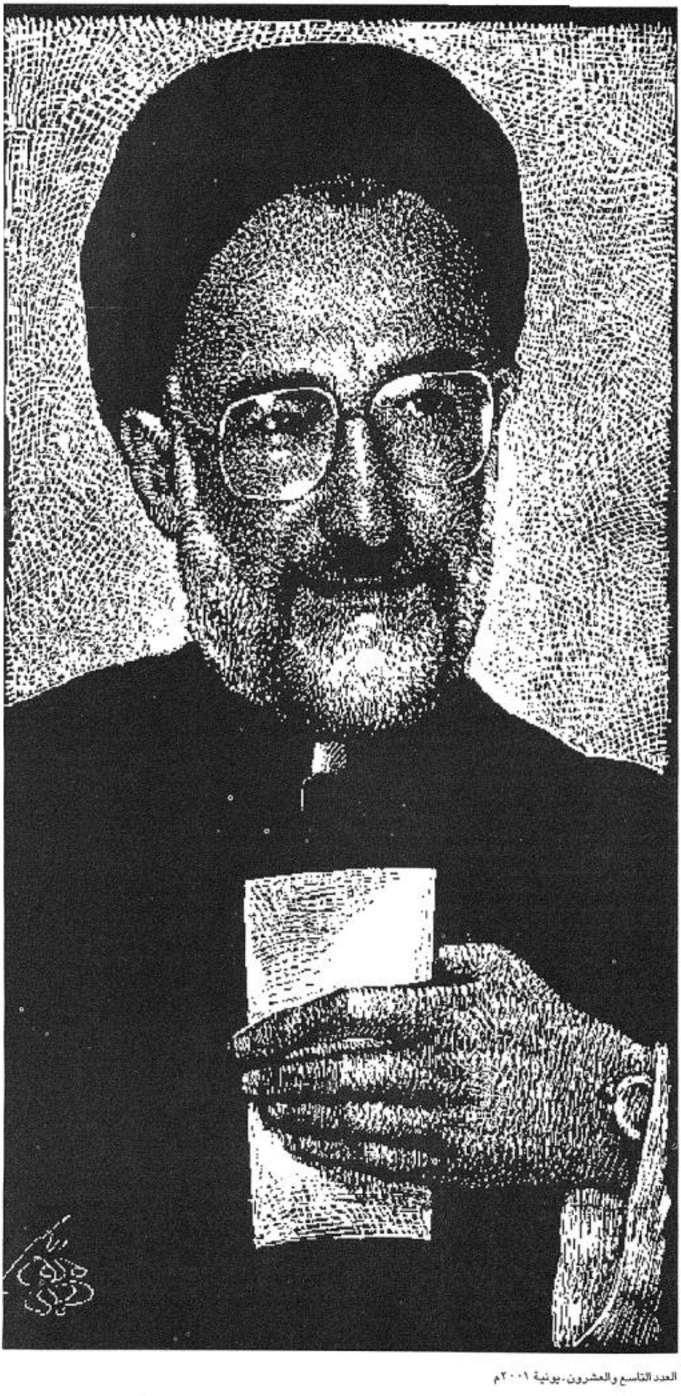
وهكذا نجد أن عملية صنع القرار السياسى حافلة بدوائر الصراع السياسى بين المرشد والرئيس وبين الرئيس والحكومة من ناحية ومجلس الشورى من ناحية أخرى، وبين مجلس الشورى ومجلس صيانة الدستور، وبين مجلس الشورى ومجلس صيانة الدستور ومجلس تشخيص مصلحة النظام، ثم بين المرشد ومجلس خبراء القيادة. كل هذه الصراعات الفرعية باتت متجمعة الآن فى صراع أساسى بين المرشد والمؤسسات التابعة له من ناحية والرئيس والرأى العام والمجتمع المدنى الإيرانى والمؤسسات المنتخبة من ناحية أخرى.

ومن هنا كان الانحياز والارتباط بين الرئيس وخاصة الرئيس السيد محمد خاتمى والناخب الإيرانى فى خوض معركة حسم القرار السياسى فى مواجهة المرشد ومؤسساته.

لقد أدرك الرئيس خاتمي مبكرا اختلال موازين القوة بينه وبين المرشد على خامنئى لذلك رفض سياسة المجابهة معه وفضل توظيف القدرات الشعبية للحصول على مكاسب من المرشد تمكنه من تحقيق برنامجه الإصلاحي. لقد فضل خاتمي، بعد انتخابه، بواقعية وذكاء وبراعة «سياسة التقارب» بل والتحالف مع المرشد على خامنئى بدلا من الصراع والمجابهة. وكان خاتمي مدفوعا نحو هذا الخيار بعاملين أساسيين. أولهما: وعيه بأن إيران تعيش تحت حكم «مبدأ ولاية الفقيه». ومن ثم فإن أية مواجهة مع المرشد تعنى الصدام مع مبدأ ولاية الفقيه، وبالتالى مع النظام الإسلامى الحاكم كله. وثانيهما: قناعات الرئيس خاتمي وموقعه داخل النظام الإيراني.

كان خاتمي واعيا بنصوص الدستور الإيرانى ومدركا أن الدستور يعطى للولى الفقيه السلطة العليا فى إصدار أى قرار. فولاية الفقيه التى هى أساس الدستور تعطى للمرشد كل الصلاحيات وتجعل منه الموجه الأساسى للبلاد، وتخضع له أهم المؤسسات بما فيها مجلس الشورى الإسلامى المنتخب (البرلمان). فالولى الفقيه يستطيع رفض مايقرره مجلس الشورى إذا اعتبر ذلك متعارضا مع مبادئ الثورة الإسلامية وتوجهاتها. ولقد كان خاتمي يعرف مقدما أنه لن يستطيع تنفيذ برنامجه للتغيير والإصلاح فعلا ما لم يملك هو السلطة الحقيقية، ومالم يتم بالتالى تقليص صلاحيات الولى الفقيه بحيث يصبح رئيس الجمهورية هو الحاكم فعلا وليس مرشد الجمهورية. ولكن خاتمي امتنع عن خوض معركة ضد ولاية الفقيه خلافا لما يتمنى ناخبوه وأنصاره، بل إنه عارض علنا دعوات بعض الشخصيات الإيرانية (من أبرزها آية الله حسين منتظرى) لتقليص صلاحيات الولى الفقيه ولم يتدخل لإنقاذ بعض كبار أنصاره ممن تعرضوا لمسألة ضرورة تقليص سلطات الولى الفقيه وإخضاعه لحكم القانون كى لا يبقى أحد فوق القانون (مثل عبد الله نورى وزير الداخلية السابق).

ولقد لعبت قناعات الرئيس خاتمي وموقعه داخل النظام القائم فى إيران دورا مهما فى تحديد أنماط علاقاته مع المرشد والمؤسسات الأخرى. فخاتمي، قبل كل شيء، ابن الجمهورية الإسلامية والثورة الإسلامية، وهو جزء من المؤسسة الدينية والسياسية الحاكمة التى ينتمى إليها خامنئى. وهو لا يريد الانقلاب على النظام الإيرانى أو الإطاحة به، بل يحاول تطويره وإصلاحه من الداخل، بحيث يصبح أكثر انفتاحا وانسجاما مع ضرورات العصر ومقتضياته، وأكثر فاعلية فى معالجة مشاكل الناس المتراكمة. فخاتمي لم يعتمد على الشعب الذى انتخبه لينفذ انقلابا ويطيح بالقيادة الحاكمة أو ليقوم بثورة على الثورة، بل اعتمد على دعم أغلبية الإيرانيين له ولتياره ليحاول ممارسة نوع من الضغوط الخفية على خامنئى والقوى المحافظة لكى تترك له هامشا يتحرك فيه لتنفيذ مشروعه الإصلاحي. فهو على قناعة بأن أفضل طريقة لحماية التجربة الإصلاحية ولمتابعة عملية التغيير فى إيران، ولو ببطء وبشكل تدريجى، هى من خلال التقارب والتحالف مع خامنئى، ومن خلال اعتماد الصفقات والمساومات والتسويات مع المحافظين، وليس من خلال اعتماد الدخول فى مواجهة مباشرة مع خامنئى والقوى المحافظة والسعى إلى تقليص صلاحيات الولى الفقيه. فخاتمي مقتنع بأن النظام الإيرانى قادر على أن يطور ويجدد نفسه بنفسه بفضل أفكاره ومشاريعه الإصلاحية. وهو يريد أن يكون مصدر قوة للنظام من



خاتمى

خلال تطويره وتحسينه وليس مصدر تهديد له عن طريق الدخول في مواجهة مع الولى الفقيه، وزعزعة استقرار النظام من الداخل.

لقد كان خاتمى حريصا كل الحرص على أن يلتقى بالسيد على خامنئى مرشد الجمهورية قبل أن يعلن ترشيح نفسه رسميا فى انتخابات رئاسة الجمهورية عام ١٩٩٧. وفى اللقاء الشهير الذى جمعهما فى يناير ١٩٩٧ أبدى خاتمى رغبة فى الترشيح للرئاسة لكنه أفصح عن قاعدة استراتيجية فى نهجه المستقبلى، وهى أنه إذا تمكن من الفوز بالرئاسة فإنه لن يصطدم بالمرشد «الولى الفقيه». وعلى هذا الأساس عرض خاتمى العناوين الكبرى لبرنامجه والتى باتت معروفة. كالعمل على قيام مجتمع مدنى يسوده القانون، وتترسخ فيه الحريات العامة فى إطار خطة حكم شعارها «التنمية السياسية» داخليا و«إزالة التوتر وحوار الحضارات» خارجيا. وصارح خاتمى المرشد وقتذاك قائلا: «إذا لم تكن راضيا عن هذا البرنامج فأنا لست مستعدا لخوض المنافسة الانتخابية الرئاسية لأننى لا أريد مطلقا أن أكون رئيسا للدولة وبرنامجى لا ينسجم مع توجهات الولى الفقيه». وهنا كانت إجابة خامنئى هو «توكل على الله، فليس لدى تحفظ جذرى على هذا البرنامج».

وبعد فوزه الساحق بأغلبية ٧٠٪ على منافسه القوى على أكبر ناطق نورى رئيس مجلس الشورى (السابق) كان خاتمى ملتزما بهذه القاعدة الاستراتيجية. لكن كان مدركا اختلال توازن القوى مع التيار المنافس لغير صالحه. فقد كان التيار المحافظ هو الأقوى والأكثر تنفذاً فى مؤسسات الدولة، وهياكل الإدارة المركزية وغير المركزية وأجهزة النظام. لكن خاتمى نجح فى استخدام نقطة قوته الأساسية وهى الدعم الشعبى، واتبع استراتيجية اعتمدت على النقاط التالية:

- نقل المعركة إلى المجتمع وليس حصرها فى المؤسسات الفوقية للدولة. أى الاستقواء بالمجتمع المدنى ومؤسساته.
- تدعيم تحالفه الشخصى مع مرشد الجمهورية السيد على خامنئى.
- الحرص على الامتداد الأفقى بتعيين كوادر ومسئولين مؤمنين بالمشروع الخاتمى وملتزمين بتنفيذه فى الإدارة والدولة وبالذات دعوة التنمية السياسية.
- الحرص على تحييد كبار «مراجع التقليد» وعلماء الدين فى الحوزة الدينية، وعدم الاصطدام بالكبار الذين يؤيدون التيار المحافظ، والتعاون مع حلفائه وأنصاره داخل الحوزة.
- الحرص على كسب المعارك السياسية والاستحقاقات الدستورية الانتخابية، وتأكيد الأبعاد المدنية للمشروع واستبعاد، بل وتفريغ دائم، لأى خيار عسكرى أو أمنى.
- الانفراج مع العالم الخارجى عن طريق إزالة التوتر فى علاقات إيران مع العالم الخارجى (إقليميا وعالميا) وتوظيف هذا الانفراج فى العلاقات الخارجية لدعم معركة التغيير والإصلاح فى الداخل.

وفى مواجهة هذه السياسات «الخاتمية» استخدم التيار المحافظ المنافس قاعدة الالتزام بالثورة والنظام والدين والدفاع عن مبادئ الثورة معتمدا على قوته المكتسبة، عبر معارك سياسية سابقة فى المؤسسات الدستورية، والمغالاة فى توظيف المؤسسات الرسمية فى المعركة ضد الرئيس وتيار الإصلاح، مما أدى إلى تآكل شعبيته وابتعاده عن الوعى بالقضايا المجتمعية الأساسية، وفى مقدمتها قضية الإصلاح والحرية، التى أصبحت الشغل الشاغل لتيار الإصلاح المساند للرئيس خاتمى (تيار الثانى من خرداد).

وهكذا خاضت إيران معارك الصراع السياسى بين التيارين وفق هذه المعادلة التى تحكمها تعددية مراكز صنع القرار، والتحالف بين المرشد على خامنئى ورئيس الجمهورية محمد خاتمى، وانخراط التيارين المتنافسين فى معاركهما السياسية وفق استراتيجية خاتمى واستراتيجية المحافظين. حيث اعتمد الإصلاحيون على الاستقواء بالمجتمع المدنى فى حين اعتمد المحافظون على القتال بمؤسسات النظام بما فيها القضاء. وهى - أى المعارك - وإن كانت قد تمركزت على الصراع حول «الإصلاح» وبرنامج خاتمى للتنمية السياسية فإنها فى الأصل تبقى معركة حسم اختلال موازين القوة بين التيارين لتحسين مواقع كل منهما فى عملية المساومة التى تحكم صنع القرار.

وقد شهد عام ٢٠٠٠ على سبيل المثال مجموعة من المعارك السياسية بين التيارين كانت أقرب إلى الحرب أو كادت أن تكون حربا بينهما. كان من أبرز هذه المعارك: معركة انتخابات مجلس الشورى وما أسفرت عنه من نتائج، ثم معركة الصحافة، ومعركة الاغتيالات والعنف السياسى، ثم احتدام معارك الصراع بين المؤسسات.



خاتمى

١. معركة انتخابات مجلس الشورى

مرت السنوات الثلاث الأولى من حكم الرئيس خاتمى (٩٧ - ١٩٩٩) صعبة ومريرة بسبب سيطرة التيار الإصلاحى على مجلس الشورى حيث لم تنقطع المواجهات بين الحكومة والبرلمان، وجاءت معركة الانتخابات البرلمانية فرصة أمام الرئيس ليدعو الشعب إلى تكرار ملحمة الثانى من خرداد (ملحمة انتخابه رئيسا). وبالفعل استطاعت صناديق الاقتراع أن تزيح الرؤوس الكبيرة للتيار المحافظ وأن تدفع إلى الواجهة بوجوه جديدة، واستطاع الإصلاحيون الفوز فى الانتخابات التى أجريت يوم ١٨ فبراير ٢٠٠٠ بـ ١٤٣ من أصل ١٨٥ مقعداً تم حسمها خلال الدورة الأولى. وفى دورة الإعادة التى أجريت يوم الخامس من مايو ٢٠٠٠ فاز الإصلاحيون بـ ٤٦ من أصل ٦٦ مقعداً، وبذلك بلغ عدد مقاعد الإصلاحيين ١٨٩ من أصل ٢٩٠ مقعداً هى إجمالى عدد مقاعد مجلس الشورى قبل تدخل لجنة الانتخابات بإلغاء بعض النتائج حيث تم اعتماد نتيجة ٢٧٩ مرشحاً فائزاً من إجمالى الـ ٢٩٠ الذين أعلن فوزهم فى انتخابات مجلس الشورى الإسلامى السادس.

لكن على الرغم من فوز الإصلاحيين بما يعادل ٦٩٪ من مقاعد البرلمان فإن الأعضاء انقسموا بين ١٨ حزباً وتجمعاً تحت الاسم الكبير لجبهة الثانى من خرداد من أهمها: جبهة المشاركة (التى شكلها حديثا أنصار الرئيس خاتمى ويترأسها شقيقه رضا خاتمى وتضم فى صفوفها منظمة مجاهدى الثورة الإسلامية برئاسة بهزاد نبوى) وتجمع العلماء المناضلين (روحانيات مبارز) بزعامة مهدى كروبى، ثم كوادر البناء (المؤيدة للرئيس السابق هاشمى رفسنجانى). وقد انفرط عقد تجمع جبهة الثانى من خرداد قبيل الانتخابات بسبب الموقف الرافض من رموز وكوادر جبهة المشاركة لترشيح رفسنجانى نفسه فى هذه الانتخابات خشية أن يشجعه فوزه للسعى إلى ترؤس المجلس، مما أدى إلى ابتعاد كوادر البناء عن الجبهة، ثم انكشف الأمر كثيراً فى التصويت لرئاسة مجلس الشورى. فقد تبين أن حزب جبهة المشاركة لا يملك من النواب المنتظمين فى إطار برنامجه سوى ٨٠ نائباً وهم أقلية فاعلة لكن ليست حاسمة. ومن ثم فإذا كان المفترض أن الإصلاحيين لهم الغلبة واليد الطولى فى السلطتين التنفيذية والتشريعية بعد انتخابات مجلس الشورى فإن هذا الافتراض يبقى رهنا باستمرار تماسك جبهة الثانى من خرداد من ناحية، واستمرار قدرتهم على الاحتفاظ بالدعم الجماهيرى من ناحية أخرى، وهذا لن يتأتى إلا بالقدرة على التعبير والإنجاز فى مجالات القضايا الشعبية (الاقتصاد والديمقراطية). كما أنه يرتبط باستمرار التيار المحافظ وبالذات رابطة رجال الدين المناضلين (روحانيات مبارز) وجمعية المؤتلفة الإسلامية فى الاستقواء بما تسيطر عليه من مؤسسات رسمية والصدام مع الطموحات الشعبية فى الإصلاح.

٢. معركة حرية الصحافة

سبقت معركة التيارين الإصلاحى والمحافظ حول حرية الصحافة كمرتكز أساسى للمشروع الإصلاحى معركة انتخابات مجلس الشورى، حيث لعبت الصحافة الإصلاحية الدور الأساسى فى تشويه موقف المحافظين ومناصريهم وفى مقدمتهم الرئيس رفسنجانى، بعد أن وضعه المحافظون على رأس قائمتهم الانتخابية فى طهران. لقد كان الهم الأكبر للصحافة الإصلاحية هو إسقاط المحافظين كى يكون النجاح مزدوجاً، الفوز للإصلاحيين وإظهار ضعف المحافظين.

وبعد فوز الإصلاحيين بأغلبية كبيرة فى مجلس الشورى انقسمت رؤية الإصلاحيين إلى قسمين:

- الأول: رؤية الجناح القريب من الرئيس خاتمى فى جبهة المشاركة ورابطة علماء الدين المناضلين. وكانت هذه الرؤية تفهم الفوز فى الانتخابات على أنه مبايعة جديدة من الشعب للنظام الإسلامى ولولاية الفقيه ممثلة بالمرشد على خامنئى. وكان الرئيس خاتمى شخصيا وراء هذه الرؤية والترويج لها.
- الثانية: كانت على العكس ترى أن نتائج الانتخابات وسقوط أسهم رفسنجانى تحمل رسالة إلى من هم أكبر منه ولا يجرؤون على النزول إلى ساحة الرأى العام «كى يدركوا حجمهم الشعبى». ومن ثم يجب كشف هشاشة كل هؤلاء وخوض المعركة معهم إلى أبعد مدى، أى إلى فتح ملف سلطات واختصاصات الولى الفقيه. وقاد هذا التوجه بعض أطياف التيار الإصلاحى، وخصوصاً صحيفة «الفتح» التى ولدت من رحم صحيفة «خرداد» التى كان

عقب تقديم أوراق ترشيحه لم يستطع خاتمى أن يمنع تدفق الدموع من عينيه وهو يعترف بصحة تردده عن تجديد ولايته، ويبكى ثانية وهو يؤكد أنه بذل كل جهد ممكن للبقاء على العهد الذى قطعه للشعب خلال ولايته الأولى

يديرها وزير الداخلية السابق عبدالله نوري قبل الحكم عليه بالسجن وإغلاقها بتهم ممارسة النشاط ضد النظام. وكانت الصحافة هي السلاح القوي في يد هذا التيار مما عجل بدفع التيار المحافظ إلى الدخول بقوة إلى ساحة المواجهة مع الصحافة ورموزها من السياسيين، بعد أن دعا بعضها إلى إعادة النظر في بعض الأحكام الإسلامية التي لا تتماشى مع حقوق الإنسان مثل حكم الإعدام (مقالة الصحفي عماد الدين باقي وتمت محاكمته بسببها).

هنا بالتحديد ظهرت قراءتان لهذا الواقع الجديد من جانب المحافظين :

الأولى: تحذر من مغبة الاستمرار في التعاطي «الديمقراطي» مع ما يجري على الأرض في إيران والقبول بقواعد اللعبة الانتخابية. أصحاب هذه القراءة كانوا على ثقة بأن فوز الإصلاحيين في انتخابات مجلس الشورى ونهج الصحافة الإصلاحية «المنفلت» لن يكون على حساب المحافظين فقط بل على حساب النظام بكامله. وهؤلاء كانوا مقتنعين بأن وجود خاتمي «المتعقل» و«رجل الدولة» مؤقت ولن يستمر طويلا، وأن التيار الإصلاحي سوف ينشط في مطالبه ومحاولته لتغيير كل الضوابط والمعايير، ولن ينتهي إلا وقد عدّل الدستور لتقليص صلاحيات «الولي الفقيه» تمهيداً لإلغاء الموقع نفسه، ثم القضاء على الهوية الإسلامية للنظام في الجمهورية الإسلامية. ورأى هؤلاء أن موقف خاتمي أمام هذه التطورات المحتملة لن يخرج عن أمرين: إما الاستجابة لـ «شطط» هؤلاء من الإصلاحيين، وإما التنحي لبديل أكثر ليبرالية. ومن ثم لا يرى أصحاب هذه القراءة من المحافظين من حل سوى تصعيد المجابهة بالعنف والقوة والضغط المستمر على الإصلاحيين، واستخدام كل الوسائل لضبط والقضاء على هذا الخطر.

الثانية: يرى أصحابها أن الأمر ليس بهذه الخطورة وأن مكاسب الإصلاحيين جاءت بسبب عجز وضعف المحافظين، ولذلك فهم ينصحون بمراجعة النهج والخطاب والأفكار والسياسات في اتجاه التأقلم مع الواقع الجديد، ودراسة وفهم أسباب ما جرى وسبل المعالجة بما يحول دون المواجهة واستنزاف الطاقات والقدرات.

بين هاتين القراءتين كانت هناك اتجاهات وتباينات ركزت على خوض معركة شرسة ضد الصحافة باللجوء إلى دعم مرشد الجمهورية علي خامنئي وجهاز القضاء، لكن البعض فضل تصعيد المواجهة باستخدام العنف المسلح. وأخذت المواجهة مع الصحافة طريقين: أولهما: قانون الصحافة بدعم من مرشد الثورة. وثانيهما: استخدام القضاء لإغلاق الصحف، والمجلات غير المرغوبة وإصدار أحكام بالسجن على عدد من الكتاب والصحفيين ممن تورطوا في مواجهة مع المحافظين والقيم والمبادىء الإسلامية التي تحكم النظام الإسلامي في إيران.

أ- قانون الصحافة والمطبوعات

أخذ المحافظون المبادرة عقب الجولة الأولى



خامنئي

من انتخابات مجلس الشورى واستغلوا سيطرتهم على المجلس القائم (المجلس الخامس) فأقروا في ١٧ أبريل ٢٠٠٠ (أي قبل أسابيع من انتهاء ولاية المجلس ومجيء المجلس الإصلاحي) بنود «جديدة في مشروع قانون المطبوعات تحرم معارضي النظام من ممارسة أي نشاط صحفي. ومن بين ما تمت إضافته من بنود للقانون: «يمنع منعاً باتاً تحت أي ظرف وبأي شكل على أعضاء ومناصري المجموعات المعادية للثورة، أو التنظيمات السياسية غير الشرعية ومن صدرت بحقهم أحكام من المحاكم الثورية العمل في أي مطبوعة، ويجب أن يحظى أولاً بموافقة وزارات الاستخبارات والعمل والأمن». وهذه الوزارات تحت سيطرة المحافظين. كما أدخل المجلس في إطار القانون نفسه تعديلاً على تشكيل لجنة الصحافة في المجلس، وشدد على أن يكون من «المخلصين للثورة الإسلامية». وأوضح التعديل أن «قرارات اللجنة في مجال النشاطات الصحفية لا تقبل المراجعة». كما منع التعديل نشر أية موضوعات تنتقد الدستور.

جاء هذا التعديل في أعقاب تحذير وجهه الحرس الثوري (الباسدران) إلى الصحافة الإصلاحية، وندد بالذين يدافعون عن الإصلاحات على الطريقة الأمريكية، والصحف التي «تنتهك القيم والمبادىء الإسلامية».

وعقب ممارسة مجلس الشورى الجديد مهامه طرحت فكرة مناقشة موضوع تعديل قانون الصحافة والمطبوعات في بداية الدورة البرلمانية، ولكن المرشد علي خامنئي طلب تأجيل تلك المناقشة وعدم طرح التعديلات وتم التأجيل بالفعل في هدوء ودون إعلان، لكن احتدام المواجهة خارج المجلس من الصحافة المحافظة والصحافة الإصلاحية، وغلبة التيار الداعم لتصعيد المواجهة بين المحافظين والإصلاحيين، أعدت مجموعة من أعضاء المجلس من الإصلاحيين مشروع قانون بتعديل قانون الصحافة والمطبوعات خشية أن يتحول التأجيل الذي طلبه المرشد إلى استبعاد، فقدموا المشروع الجديد مما دفع المرشد إلى أن يبعث بخطاب إلى رئيس المجلس مهدي كروبي يطلب فيه سحب المشروع المعروض مما أثار استياء داخل المجلس. وطالب النواب بضرورة قراءة خطاب خامنئي الذي أنهى الجدل حول تعديلات القانون مما اضطر مهدي كروبي إلى الاستجابة وقرأ الخطاب الذي جاء فيه: «أن صحافة البلاد تصنع الأفكار العامة وتمنح الهمة والإرادة للشعب، ولو سيطر أعداء الإسلام والثورة والنظام الإسلامي على الصحافة، أو نفذوا إليها، فسيكون ذلك خطراً كبيراً يهدد أمن الشعب وإيمانه ووحدته، ولا أعتقد أنه من الجائز صمتكم والعاملين معكم على هذا الأمر المصيري. إن القانون المعمول به حاليا قدر استطاعته يمنع ظهور هذه الآفة الكبرى، والتعديلات التي اقترحت في لجنة المجلس ليست مشروعة وفي غير مصلحة الدولة والنظام».

ب- إغلاق الصحف

دفع هذا التدخل من جانب خامنئي بالصحافة الإصلاحية إلى التوجه نحو تصعيد المواجهة، ودفعت بالتصعيد إلى فتح ملف «ولاية الفقيه». فقد أعادت هذه الصحف طرح مجموعة من الأسئلة الجوهرية من قبيل: هل الولاية مطلقة أم نسبية؟ وهل الفقيه فوق القانون، وهل يمثل الأمة أم أنه يمثل قوى غيبية غير مرئية؟ ومن أين يستمد سلطته من الشعب أم من الله ؟

ومع هذا التصعيد لجأ المحافظون إلى القضاء كسلاح لمواجهة الإصلاحيين وصحافتهم، فصدرت قرارات وأحكام بإغلاق أكثر من عشرين صحيفة يومية ومجلة أسبوعية وشهرية، خصوصا بعد أن رفض وزير الثقافة والإرشاد عطاء الله مهاجراني التدخل لوقف هذه الصحف وقوله «لو خُيّرت بين إقفال الصحف أو الاستقالة فسأختار الاستقالة». وكانت استقالته مطلباً دائماً للمحافظين، لكن الرئيس خاتمي كان يدافع عنه، لكنه اضطر في النهاية إلى قبول استقالته كوزير لكنه احتفظ به إلى جانبه مستشاراً لشئون حوار الحضارات، وعين بدلاً منه كوزير للثقافة أحمد مسجد جامعي الذي كان يعمل نائباً لمهاجراني للشئون الثقافية.

وتبريراً لقرارات وأحكام إغلاق الصحف قال المرشد علي خامنئي «إن عناصر الصحافة تحولت إلى قواعد للعدو»، وأنها «دأبت على نشر مواد تحط من قدر الإسلام وما تدعو إليه الثورة الإسلامية، وأن هناك دلائل تؤكد وجود عملاء للعدو داخل وسائل الإعلام». لكن الرئيس خاتمي مع حرصه على ضبط النفس كان له رأي آخر مختلف على قرارات إغلاق الصحف واعتقال عدد من الكتاب والصحفيين حيث قال في مقابلة إذاعية وتليفزيونية مساء ٢١ أغسطس ٢٠٠٠: «إن الوسائل التي استخدمها القضاء لإغلاق الصحف غير مقبولة». وأكد أنه سيظل وفيا للشعارات والبرامج التي أعلن عنها خلال حملته الانتخابية قبل ثلاث سنوات، وأكد أنه يجب تطبيق القانون والعمل في نطاق الدستور الذي يسمح بحرية الكتابة ومزاولة العمل السياسي.

وجاءت مشاركة عدد من الشخصيات الإصلاحية في مؤتمر عقد في برلين حول «مستقبل الحركة الإصلاحية» ليفتح فصلاً جديداً من المواجهة المستمرة. إذ اعتبر المحافظون المؤتمر الذي عقد بين ٧ـ٨ أبريل ٢٠٠٠ كان «مؤامرة ضد النظام». وما أثار حفيظة المحافظين وغضبهم الذي انتقل إلى الشارع في تظاهرات كبيرة هو وجود شريط فيديو للحفل اظهر حدوث رقص وخلع ملابس في هذا المؤتمر من بعض معارضي النظام، وهم إيرانيون ينتمون إلى منظمة «مجاهدي خلق» المحظورة، وغيرها من قوى المعارضة في الخارج التي تدعو إلى إسقاط النظام، وإلى فصل الدين عن الدولة في إيران، مما أدى إلى تحرك القضاء على مستوى المحاكم الثورية حيث تم تقديم عدد من قادة الإصلاح ممن شاركوا في هذا المؤتمر للمحاكمة مثل عزت الله سحابي أحد أبرز وجوه التيار الليبرالي، ورجل الدين الإصلاحي حسن يوسف أشكوري وجميلة كديور النائبة في البرلمان زوجة وزير الثقافة عطاء الله مهاجراني، والمفكر والكاتب الصحفي علي أكبر غنجي وغيرهم. وقد تجددت حملة الاعتقالات ضد المعارضين وبالذات من التيار القومي

أدرك الرئيس خاتمي مبكرا اختلال موازين القوة بينه وبين المرشد علي خامنئي، لذلك رفض سياسة المجابهة معه وفضل توظيف القدرات الشعبية للحصول على مكاسب من المرشد تمكنه من تحقيق برنامجه الإصلاحي

والليبرالي والتقدمي ووجهت لبعضهم تهم خطيرة أبرزها «التخطيط لمؤامرة ضد النظام». اعتقل بعضهم من منزل محمد بستيهنيغار يوم الأحد ١١ مارس ٢٠٠١. وكان حجة الإسلام على مبشري رئيس محاكم الثورة في طهران أعلن يوم الثلاثاء ١٣ مارس ٢٠٠١ أن أولئك الأشخاص كانوا يسعون إلى تدبير مؤامرة ضد النظام ويخططون لتحركات من أجل إثارة الرأي العام وتجمعات استفزازية.

وتكتسب هذه الاعتقالات أهميتها من كونها تأتي في فترة استنفار صعبة للتيارين المحافظ والإصلاحي وهما على شفا خوض معركة انتخابات الرئاسة. ويؤكد هذه الأهمية توجه عائلات المعتقلين للرئيس خاتمي بالتدخل لوقف هذه الحملة والتدخل لإطلاق سراحهم مؤكدة أن هذه الاعتقالات من شأنها «أن تطوي صفحة الإصلاحات».

٢. معركة الاغتيالات والعنف السياسي

عاد ملف الاغتيالات بقوة عندما تعمد على أكبر غنجي تفجير هذه القضية مجدداً في جلسات محاكمته أمام المحكمة الثورية في طهران بتهم كثيرة عقب ندوة برلين المشار إليها أبرزها الإساءة إلى الأمن القومي. فقد وجه غنجي اتهامات إلى شخصيات محافظة بالتورط في عمليات الاغتيالات التي تفجرت منذ عام ١٩٩٨، منهم علي فلاحيان ودري نجف أبادي وزيرا الاستخبارات السابقان. وكان القضاء العسكري قد استدعى دري نجف أبادي للتحقيق معه أكثر من مرة، ثم أصدر قراراً بوقف أي ملاحقة له بعد توصله إلى قناعة بعدم تورطه في إصدار أية أوامر للمتورطين في عمليات الاغتيالات.

وقد أثارت هذه الاتهامات أهمية كبيرة للقضية المعروضة أمام القضاء العسكري خصوصاً أن القتلة والمخططين مسئولون كبار في أخطر وزارة وهي وزارة الاستخبارات، الذين تم كشف تورطهم بعدما أصر الرئيس خاتمي على استئصال ما أسماه بـ «الورم السرطاني» في هذه الوزارة، وأيده في ذلك مرشد الجمهورية علي خامنئي.

وفي ٢٧ يناير ٢٠٠١ أصدر القضاء العسكري أحكاماً قاسية بحق المتهمين باغتيال أربعة من المعارضين القوميين والليبراليين عام ١٩٩٨. فقد حكم على ثلاثة بالإعدام هم منفذو الاغتيالات والسجن المؤبد لخمسة عشر من مسئولي وزارة الاستخبارات. وكان الرأس المدبر لهذه الاغتيالات سعيد أمامي المحسوب على التيار المحافظ قد انتحر في سجنه عام ١٩٩٩، أما مساعده مصطفى كاظمي فقد حكم عليه بالسجن المؤبد أربع مرات مع غيره ممن شملهم هذا الحكم.

وشهد عام ٢٠٠٠ محاكمة المتهمين من رجال الشرطة باقتحام الحرم الجامعي في طهران في يوليو ١٩٩٩، وصدرت أحكام بتبرئة معظم المتهمين وعلى رأسهم الجنرال فرهاد نظري القائد السابق لشرطة العاصمة مما أثار استياءً في أوساط الإصلاحيين وخاصة في مجلس الشورى (البرلمان) حيث تجدد الخلاف حول مدى وقيود تدخل الشرطة والأجهزة الأمنية الأخرى في الحرم الجامعي. وكانت الذكرى الأولى لاقتحام الشرطة الحرم الجامعي مناسبة لتجديد الصدامات في طهران بين مناصري التيارين المحافظ والإصلاحي، ولم يكن ما حدث في مدينة خرم أباد عاصمة إقليم لرستان في الأسبوع الأخير من شهر أغسطس بعيداً عن هذا التوتر الطلابي المقترن بالعنف السياسي.


خاتمي

وقد مثلت أحداث خرم أباد جولة جديدة من الصراع بين التيارين فبعد هزيمة الإصلاحيين في ملف أحداث المدينة الجامعية ومعركة حرية الصحافة ردوا باستصدار قانون يمنع دخول الشرطة إلى الجامعات (لم يتعرض القانون إلى قوى الأمن والاستخبارات الأخرى). وجاءت أحداث خرم أباد لتعيد المواجهة من جانب المحافظين حيث تصدوا لأنصار حزب تدعيم الوحدة (تنظيم حزبي طلابي مثل اليسار التقليدي حتى بداية التسعينيات ثم أخذ يعدل مواقفه وبرامجه ليصبح نموذجا لليسار الجديد)، وحالوا دون إنجاح معسكرهم بمدينة خرم أباد، حيث تصدوا بالقوة لأنصار الحزب ولرجال الشرطة ومنعوا كلا من الدكتور عبدالكريم سورش المفكر الإصلاحي الشهير وحجة الإسلام الدكتور محسن كديور صاحب المؤلفات الجريئة والشهيرة عن ولاية الفقيه، من دخول المدينة لإلقاء محاضرات في معسكر حزب تدعيم الوحدة، ثم اعتدوا على محافظ إقليم لرستان أثناء تشييعه لجنازة شهيد الشرطة الذي قتل في المواجهات التي شنها المتمردون.

وكانت جبهة المشاركة قد أعلنت في بيانها الصادر في ٢٧ أغسطس أن الأحداث الأخيرة في خرم أباد أحداث مدبرة من معارضي الإصلاح. وجاء في البيان: «أن ما حدث في خرم أباد يعبر، للأسف، عن أن عصابات مافيا السلطة عادت مرة أخرى لخلق الأزمات». واعتبرت جبهة المشاركة أن الهدف من خلق الأزمة هو «إشاعة الشعور باليأس من عملية الإصلاحات وسيادة القانون، من خلال نشر العنف والتطرف في المحيط السياسي للمجتمع».

وفي ١٥ مارس ٢٠٠١ أصدرت محكمة خرم أباد أحكاماً بالسجن لمدة خمس سنوات على ستة أشخاص كما أصدرت أحكاماً على ١١٠ أشخاص تراوحت بين السجن لمدة شهر والغرامة ٧٠ دولاراً.

٤. معركة صراع الأجهزة

تعتبر المعركة الدائرة بين الأجهزة الرسمية في الدولة حول الإصلاحات من أهم المعارك التي ستحسم مستقبل الجمهورية الإسلامية في إيران حيث يتم توظيف هذه الأجهزة لتصفية الحسابات بين تياري الإصلاحيين والمحافظين بما يعوقها دون أداء المهام الوطنية الموكولة إليها.

فكما استخدم الإصلاحيون الصحافة كوسيلة لتشويه مواقف وسياسات المحافظين والنيل منهم، استخدم المحافظون جهاز القضاء لتصفية دور الصحافة، إما بالاعتقال والمحاكمة للكتاب والمفكرين والصحفيين، وإما بإغلاق الصحف والمجلات، كذلك استخدم المحافظون مجلس الشورى (البرلمان) لإصدار تشريعات تحقق برنامجهم الإصلاحي بما لا يتوافق مع مواقف المحافظين، الذين ردوا باستخدام مجلس صيانة الدستور كخطوة أولى لرفض أي تشريع لا يوافقون عليه تحت زعم التعارض مع القيم الإسلامية ومبادىء الجمهورية الإسلامية، أو اللجوء إلى مجمع تشخيص مصلحة النظام كخطوة ثانية لحسم الموقف لصالحهم قبل اللجوء إلى مرشد الجمهورية علي خامنئي كخطوة أخيرة. وجاء تدخل وزارة الاستخبارات من ناحية والحرس الثوري من ناحية أخرى لدعم المحافظين ضد الإصلاحيين ليخدم ليس فقط تصفية الحسابات بين تيارين ينتميان إلى الجمهورية الإسلامية، بل ويدفع باتجاه انتكاسة تجربة الحكم الإسلامي كلها في إيران، مما دفع بالكثيرين إلى التحذير من سوء عاقبة التمادي في كل هذه المواجهات بين مؤسسات وأجهزة الدولة على نحو ما جاء على لسان أبوالفضل شاكوري عضو مجلس الشورى عندما أعلن أمام المجلس أن «الأزمة وصلت إلى ذروتها»، وإذا استمر ذلك «فمركب الثورة قد يغرق بإصلاحييه ومحافظيه». كما انضم مهدي كروبي رئيس مجلس الشورى إلى قائمة الداعين إلى «وقف إطلاق النار السياسي، ووقف الاتهامات المتبادلة بين الأطراف المتنافسة في الساحة الإيرانية».

عرض خاتمي العناوين الكبرى لبرنامجه والتي باتت معروفة، كالعمل على قيام مجتمع مدني يسوده القانون، وتترسخ فيه الحريات العامة في إطار خطة حكم شعارها «التنمية السياسية» داخليا و«إزالة التوتر وحوار الحضارات» خارجيا

وقد احتدمت المواجهة في الأشهر الأخيرة من عام ٢٠٠٠ مع ظهور مؤشرات معركة الترشيح لانتخابات رئاسة الجمهورية حيث تعمد المحافظون توجيه ضربات موجعة للإصلاحيين عن طريق توظيف الأجهزة والمؤسسات التي يسيطرون عليها لإضعاف الرئيس خاتمي ومحاصرته وربما دفعه للتخلي عن فكرة تجديد الترشيح للانتخابات الرئاسية في يونيو القادم.

فعقب نجاح تيار الإصلاحيين بمجلس الشورى في إصدار تشريع يحظر دخول رجال الشرطة والقوى الأمنية حرم الجامعات ومعاهد التعليم العالي وبيوت مراجع التقليد الديني والحوزات الدينية، تصدى مجلس صيانة الدستور لهذا التشريع ورفضه باعتباره «مخالفاً للدستور» معتبراً أنه «يعرض للخطر أمن طلاب الجامعات ورجال الدين». كما انحاز مجمع تشخيص مصلحة النظام إلى مجلس صيانة الدستور ورفض كل المواد «التقدمية» في مشروع الموازنة الجديد الذي قدمه مجلس الشورى باعتبار أن هذه المواد مناهضة للإسلام والدستور. في الوقت نفسه استخدم الإصلاحيون مجلس الشورى لمحاصرة دور جهاز القضاء عندما أعلن مهدي كروبي رئيس المجلس رفض منح القضاء سلطة القيام بملاحقات قضائية ضد النواب أو استدعائهم أمام المحاكم. وقال كروبي: «إننا نطالب بأن يمر أي تحرك قضائي ضد النواب أو أي استدعاء لهم عبر مجلس الشورى. وكان مجلس النواب قد انتقد على لسان رئيسه مهدي كروبي كلا من مجلس صيانة الدستور ومجمع تشخيص مصلحة النظام. فقد انتقد كروبي آية الله جنتي أمين مجلس صيانة الدستور على قوله: «إن النواب يفقدون تمثيلهم للشعب في حال أقدموا على طرح مشروع يتناقض مع الإسلام ويكون مخالفاً للشرع الإسلامي». وقال كروبي «إن مجلس الشورى لا يقوم بأي عمل

يخـالف الشـرع الإسـلامى»، ودافع عن دور النواب قائلاً: «إن الدستور كفل لهم حرية إبداء آرائهم فى كل القضايا التى تخص البلاد. كما حمل كروبى على مجلس صيانة الدستور بسبب رفض الأخير مشروع قانون يخفف القيود على الصحافة وقال فى كلمة افتتح بها جلسة للمجلس: «ليس هكذا ندافع عن المرشد الأعلى أو الإسلام أو النظام».

وامتدت المواجهة إلى مطاردة القضاء لرجال خاتمى فبعد نجاحهم فى إبعاد عبدالله نورى وزير الداخلية السابق ومحاكمته وسجنه، أجبر الرئيس خاتمى على قبول استقالة وزير الثقافة عطاء الله مهاجرانى، ولم يشفع ذلك لمهاجرانى حيث يؤكد القضاء على أن الملف المالى له لايزال مفتوحاً ولم يقفل مما يعنى احتمال محاكمته. وامتدت المطاردة لوزير الداخلية الحالى حجة الإسلام موسوى لارى ونائبه مصطفى تاج زاده الذى حكم عليه بالسجن لمدة عام ومنعه خلال ٣٩ شهرا من تولى أى منصب عام وحرمانه لمدة ست سنوات من حقوقه المدنية لاتهامه بالتورط فى تزوير الانتخابات البرلمانية لمحافظة طهران. وقد رفض الوزير الحكم وأعلن أن تاج زاده «سيبقى فى منصبه وليس وارداً استبداله. وليس هناك من يحل محله فى تنظيم العملية الانتخابية المقبلة». ويقصد انتخابات رئاسة الجمهورية. وربما بسبب هذا الموقف للوزير أعلن قصر العدل أن ملف وزير الداخلية أرسل إلى النيابة العامة للمحكمة الدينية الخاصة «وهى الهيئة القضائية المكلفة بمحاكمة رجال الدين». فى الوقت نفسه رفض رئيس لجنة الأمن القومى والسياسة الخارجية بمجلس الشورى محسن ميرد امادى المثول أمام محكمة الثورة، الأمر الذى يعنى احتمال إصدار مذكرة جلب لاعتقاله إذا أصر على موقفه. هذه المحاكمة سبقه إليها عزت الله سحابى أحد رموز التيار الليبرالى الذى اعتقل مساء ١٧ ديسمبر ٢٠٠٠ بتهمة الإساءة إلى المرشد الأعلى. وجاء قرار حظر «حركة تحرير إيران» النشطة فى صفوف التيار الإصلاحى وإغلاق أربع صحف فى ١٨ مارس ٢٠٠١، ليكشف أن الصراع فى إيران بين المحافظين والإصلاحيين دخل مرحلة جديدة وخطيرة من التصعيد، وبات مفتوحاً على كل الاحتمالات مع انخراط التيارين فى معركة انتخابات رئاسة الجمهورية.

ثانيا: معركة انتخابات رئاسة الجمهورية ومستقبل الخاتمية

كانت تلك المواجهة كافية لدفع الرئيس محمد خاتمى لفتح ملف صلاحيات رئيس الجمهورية مما أدى إلى تسريع الخوض فى معركة الرئاسة مبكراً وإثارة التساؤلات حول مستقبل الإصلاح فى ظل النتائج المحتملة لتلك المعركة التى بدت ساخنة منذ الوهلة الأولى.

فخلال الاجتماع السنوى الثالث للجنة «المتابعة والرقابة على تطبيق الدستور» والذى عقد فى ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٠ تعمد الرئيس خاتمى فتح ملف صلاحيات رئيس الجمهورية عندما قال: «إن رئيس الجمهورية استناداً إلى اليمين الدستورية التى أقسم عليها يتولى مهمة شرعية وتعهداً إلهياً وقوميا بحماية الدستور، وذلك جنباً إلى جنب مع حفظ الاستقلال والحرية وحراسة الحدود». واستطرد خاتمى قائلاً أنه واستناداً إلى هذا الأمر «فإننى أعلن أنه بعد قضاء ثلاث سنوات ونصف السنة فى منصب رئاسة الجمهورية ليس لدى السلطة الكافية - حتى الآن - لتنفيذ هذه الوظيفة». وحتى لايؤخذ عليه أى اتهام بالتقصير أو التهاون قال: «أعترف أمامكم أننى لم أقدم للشعب تقريراً وافياً وجامعاً، لكننى رفعت تقريراً، بهذا الصدد، إلى المرشد وإلى مجلس الشورى الإسلامى. على أن السبب الذى منعنى من تقديم تقرير للشعب هو الرغبة فى حفظ الهدوء القائم فى المجتمع، والحيلولة دون وقوع صدامات ومواجهات. مع التأكيد على أن نقض الدستور الذى حدث بشأن بعض النقاط لم يكن عن سوء نية، ولكن حدث بسبب الاختلافات القائمة فى وجهات النظر. لذلك فسوف أقدم تقريراً شاملاً للشعب فى نهاية فترة الرئاسة الحالية حول الجهود التى اتخذت فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ومن جملتها الجهود الخاصة بتنفيذ الدستور».

فور إعلان هذه التصريحات انفجرت موجة من الانتقادات من جانب رموز التيار المحافظ، ركز بعضها على توقيت الإعلان وركز البعض الآخر على المضمون. فقد رأوا أن التوقيت يعنى فتح ملف الانتخابات الرئاسية وأن الرئيس خاتمى يريد أن يفتح الجدل مبكراً حول انتخابات الرئاسة من خلال التساؤل عن مدى احتمالية رفض خاتمى تجديد ولايته الرئاسية، أما من ناحية المضمون فقد كان واضحاً أن خاتمى يهدف أولاً إلى تبرئة نفسه من أى قصور قد يتهم به عندما يعرض نفسه للترشيح إلى انتخابات الرئاسة حيث سيكون المسئول فى هذه الحالة هو الإطار الدستورى نفسه، كما أنه يهدف ثانياً إلى تعديل الدستور لإعطاء الرئيس صلاحيات جديدة تمكنه من تحقيق برنامجه الإصلاحى، وهى صلاحيات اعتبروا أنها ستكون على حساب صلاحيات مرشد الجمهورية وإنقاص من سلطات الولى الفقيه، ووصل البعض فى تطرف المطالبة بإلغاء منصب رئيس الجمهورية، واستعادة منصب رئيس الوزراء وتركيز كل السلطات فى يد مرشد الجمهورية. كما دعا أمين عام «جمعية المؤتلفة»، أكبر الأحزاب اليمينية المحافظة حبيب الله عسكر أولادى، الرئيس خاتمى إلى إعلان موقف صريح وواضح من الدستور الراهن ملمحاً بطريقة ذكية تحرج خاتمى أمام نظام ولاية الفقيه، إلى أن خاتمى بتصريحاته كرئيس للبلاد يرمى إلى تعديل الدستور بالشكل الذى يضعف فيه صلاحيات الولى الفقيه.


خامنئى

ومما ضاعف من تحفز المحافظين نحو هذا الموقف الجديد من الرئيس خاتمى قوله إن عدم شنه حربا ضد انتهاكات الدستور لم يكن ضعفاً وإنما حرص على عدم نقل المعركة إلى المجتمع، وإعلان مواجهة مكشوفة، الأمر الذى يعنى، كما قال، أنه عازم فى نهاية فترة رئاسته أن يفتح كل الملفات أمام الشعب ويضع منافسيه فى مواجهة مباشرة مع الرأى العام، ومن ثم يحول دون إمكانية فوز أى منافس محافظ أمامه فى الانتخابات ويتيح له فرص بداية عهد جديد من الإصلاح بآليات أكثر اقتداراً على تنفيذ وحماية الدستور.

لم يكن المحافظون وحدهم الذين استاءوا من تصريحات خاتمى بل وفصائل من الإصلاحيين وخاصة الليبراليين، الذين استاء بعضهم من الغموض الذى يكتنف موقف خاتمى من الترشيح لولاية ثانية، والذين لوح بعضهم الآخر بمرشح بديل لخاتمى، على نحو ما ذكر الناشط السياسى عباس عبدى، وكان من الطلبة الذين احتلوا السفارة الأمريكية فى طهران عام ١٩٧٩، الذى قال: «إن الدستور يمنح الرئيس وظيفة النائب التنفيذى للولى الفقيه، وإذا كان خاتمى يرضى بهذا الدور وهو يتعارض مع ما يؤمن به فعليه الا يترشح لدورة ثانية». وامتد الأمر إلى مطالبة آخرين بتعديل الدستور الإيرانى بما يتوافق مع مطالب الإصلاح، لذلك حرص الرئيس خاتمى خلال الاحتفال بالذكرى الثانية والعشرين للثورة أن يرد على المتطرفين من التيارين المحافظ والإصلاحى، فقد هاجم غلاة المتطرفين بقوله: «إن جمود الفكر يمثل تهديداً كبيراً للثورة والجمهورية، وإن أصحاب الأفق الضيق والأفكار المظلمة يقفون ضد الشعب». إنهم يضعون القيم الدينية ضد رغبات الشعب، والدين ضد الحرية بصرف النظر عن حقوق المواطنين. إنهم يسعون لكبح الآراء التى لا تتماشى مع آفاقهم الضيقة وآرائهم الظلامية. ونبه خاتمى إلى وجود خطرين، يتمثل الأول بإمكان قيام «قطيعة بين المبادىء الدينية وقيم الاستقلال والحرية». ويتمثل الثانى بـ«إعطاء صورة سيئة وتفسير ماضوى وشخصى للدين». وأضاف: «يجب ألا يقوم تعارض بين الدين والحرية، أو قمع الحرية باسم الدين، أو قمع الدين باسم الحرية».

وأمام الغموض الذى اكتنف موقف خاتمى من ترشيح نفسه لفترة رئاسية ثانية، وزيادة درجة الاحتقان بين التيارين على نحو ما ظهر فى المظاهرات الطلابية والشبابية وشعاراتها المطالبة بالإصلاح أو عودة الملكية. وجد المحافظون أنفسهم فى الموقف الأكثر صعوبة أمام تصاعد شعبية الرئيس خاتمى كمرشح صعب المنافسة. إذا قرر خوض معركة الانتخابات، مما دفع بعضهم إلى تحبيذ عدم خوض المحافظين معركة الانتخابات بمرشح منافس لخاتمى، فى حين رأى البعض الآخر أن الانسحاب يعد هزيمة مسبقة ومبكرة أكثر إذلالاً وخطورة، لذلك دعوا إلى خوض المنافسة حتى لو كانت بغرض المنافسة ذاتها وليس من أجل الفوز، بينما فضل رأى ثالث الاستمرار فى المواجهة الراهنة مع خاتمى وإجباره على عدم خوض معركة الانتخابات.

ويبدو أن الرئيس خاتمى كان مدركاً لتلك التفاعلات فما كان منه إلا أن بادر بالتلميح إلى جدية عزمه على الترشيح للانتخابات مما وضع المحافظين بين خيارين أحلاهما مُر: إما التراجع عن خوض معركة الرئاسة، أو التورط فى خوض معركة خاسرة. وجاء خطاب الرئيس خاتمى فى مجلس الشورى (١١ مارس ٢٠٠١) ليزيد المواجهة سخونة حيث ألمح إلى احتمال خوض معركة الانتخابات الرئاسية مع عزمه على المضى فى طريق الإصلاح حيث قال «سأقولها صريحة، لست ميالاً للاحتفاظ بأى موقع أو بالسلطة، إلا أنه ليست هناك أية قوة عليها أن تثنينى عن معتقداتى». وأضاف: «سأبقى مادمت أعرف أننى أستطيع أن اتخذ خطوات للأمام ومادام الشعب أرادنى، وسأبقى موالياً للأصوات التى منحها لى».

وأكد خاتمى أن إرادة الشعب والحاجة إلى التغيير دفعتا به إلى سدة الحكم «وإذا ما تجاهلنا تلك الحاجة إلى التغيير ستدفع بالمجتمع فى اتجاه سبيل نهاية

أخذت المواجهة مع الصحافة طريقين: أولهما: قانون الصحافة بدعم من مرشد الثورة. وثانيهما: استخدام القضاء لإغلاق الصحف، والمجلات غير المرغوبة وإصدار أحكام بالسجن على عدد من الكتاب والصحفيين ممن تورطوا فى مواجهة مع المحافظين

كتاب الزاوية

من كتابات حسين فوزى

ولد الدكتور حسين فوزي في عام ١٩٠٠ بحى الحسين بالقاهرة. درس الطب ثم حصل علي شهادة العلوم من جامعة السوربون، كما درس علوم البحار والأحياء المائية بجامعة تولوز بفرنسا. تولى عمادة كلية العلوم بجامعة الإسكندرية عام ١٩٤٢. وأسس مع فتحى رضوان وزارة الثقافة في مصر. كما شارك في تأسيس العديد من المعاهد مثل المعهد العالى للفنون المسرحية والباليه والسينما والكونسرفتوار والموسيقى.

وقد أنشأ البرنامج الثانى بالإذاعة المصرية وظل سنوات طويلة يتولى بالشرح والتقديم عرض روائع الموسيقى الكلاسيكية على مستمعى البرنامج الثانى. وتوفى في أغسطس ١٩٨٨. وقد اخترنا بعض المختارات من ٣ كتب صدرت له وهى «سندباد مصرى» و«سندباد إلى العالم الجديد» و«سندباد إلى الغرب».

مصر منبع الفضائل والعلوم

خلاصة التاريخ المصرى منذ نهاية الأسرات حتى مجىء المأمون إلى مصر، أى فى نحو ثلاثة عشر قرنًا، أنه لم يفت فى عضد المصريين اضطهاد ولا ظلم ولا جبروت.

ولا يسع المؤرخ المنصف إلا أن يتابع تصوير المصريين، وقد تحولت غالبيتهم العظمى إلى الإسلام، كشعب حريص على شخصيته، متمسك بعقيدته. وإذا كان المصريون الأقباط قد نسوا تاريخهم الفرعونى، وفقدوا أسرار الكتابة المصرية القديمة، وإذا كان المصريون المسلمون قد نسوا تاريخهم الوثنى والمسيحى، فإن تاريخ مصر الإسلامية الذى يمتد إلى أربعة عشر قرنًا، مؤيد بذاته لحظ المصريين الدائم من الحضارة. فما كان أسرعهم إلى أن يجعلوا من مصر واسطة عقد العروبة، وأن يحولوا الأزهر إلى حصن اللغة الحصين. وحصن السُّنة، الحافظ الأعظم لتراث الإسلام.

أعادت هذه الصحف طرح مجموعة من الأسئلة الجوهرية من قبيل: هل الولاية مطلقة أم نسبية؟ وهل الفقيه فوق القانون، وهل يمثل الأمة أم أنه يمثل قوى غيبية غير مرئية؟ ومن أين يستمد سلطته من الشعب أم من الله؟

محزنة وتدعو للأسف». وأبدى «أسفه» حيال تعليق صدور الصحف منذ عام على يد القضاء داعيا إلى «مواصلة العمل من أجل ديمقراطية دينية «وقال» ليس لدينا أى حل آخر سوى إرساء الديمقراطية فى بلدنا». واعتبر خاتمى أن إيران بإمكانها أن تضمن مستقبلها عبر «عملية تدريجية من الإصلاحات تنفذ بهدوء واعتدال وحكمة وعلى أساس قيم ومرجعيات النظام الإسلامى». وأضاف: «أطلب من كل منكم أن يصمد فى مواجهة هذا التحدى واختيار «طريق الاعتدال» بغية تحقيق الإصلاحات فى إطار الدستور.

كان المتصور بعد ذلك أن يستمر الرئيس فى الإمساك بخيط المبادأة وأن يواصل الطريق الذى افتتحه، لكن على العكس، دخل خاتمى فى دائرة صمت مريب فى حين تولى التيار المحافظ خط الهجوم العنيف ضد تيار الإصلاحيين وضد مشروع خاتمى من خلال التوسع فى عمليات مصادرة الصحف واعتقال الكتاب والسياسيين دون قدرة من الرئيس على حماية رجاله، أو على الأقل، الدفاع عن مشروعه.

وهنا يجدر السؤال: لماذا كان صمت خاتمى؟ ولماذا جمد نشاطه فى إطار معركة انتخابات الرئاسة للدرجة التى كاد التيار المحافظ أن ينجح فى مخططه الرامى إلى منع الرئيس من تجديد ترشيح نفسه؟

لقد وضع صمت خاتمى وتردده فى الترشيح لانتخابات رئاسة الجمهورية من ناحية وتسخين المحافظين المتشددين المواجهة ضد الإصلاحيين الذين ظهروا فى صورة منقسمة وضعيفة وعاجزة عن الرد أمام آلة التصفية القضائية والأمنية مستقبل الخاتمية كله فى خطر، وبدت الساحة وكأنها قد عادت إلى ما قبل عهد الثانى من خرداد حيث يتسيد الموقف تيار المحافظين وتتشتت جهود الإصلاحيين دون وجود الرمز الذى يبلور نشاطهم ويوحد كلمتهم، ولذلك فإن احتمال عدم خوض خاتمى الانتخابات الرئاسية كان حافزا للمئات وليس للعشرات كى يعدوا أنفسهم للترشيح فى انتخابات الرئاسة. ويبدو أن اهتزاز موقف خاتمى قد وصل بالفعل إلى مداه بدليل أنه على الرغم من تقدمه بأوراق ترشيحه فإن عدد الذين سجلوا أنفسهم فى قائمة المرشحين قبيل إغلاق مكاتب التسجيل أبوابها مساء الأحد ٦ مايو بلغ رقما قياسيا لم يحدث من قبل، إذ وصل العدد إلى ٨١٧ مرشحا، فى حين لم يزد عدد المرشحين فى الانتخابات الرئاسية السابقة (مايو ١٩٩٧) أكثر من ٢٥٠ مرشحا بينهم أعداد كبيرة من المحافظين والإصلاحيين، ومن المستقلين والنساء.

هذه الحالة من عدم اليقين بالنسبة لموقف الرئيس خاتمى تجدد التساؤل عن مستقبل الخاتمية كمشروع حل وسط تاريخى بين تيارى اليمين المحافظ المتشدد واليسار الإصلاحى والليبرالى، وكمشروع مستقبلى لإيران ينطلق من عمق النظام الإسلامى نحو آفاق ما بعد الحداثة والعالمية.

بعض الغموض الذى اكتنف الموقف المتردد والصامت للرئيس خاتمى تكشف فى الزيارة التى قام بها السيد حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله فى لبنان للسيد على خامنئى مرشد الجمهورية أثناء زيارته للعاصمة الإيرانية ضمن مشاركته فى مؤتمر دعم الانتفاضة الفلسطينية الذى نظمته إيران فى الأسبوع الأخير من أبريل الماضى.

ففى هذا اللقاء طلب حسن نصر الله من خامنئى دعمه لتجديد ترشيح السيد خاتمى لفترة رئاسية ثانية باسم شباب حزب الله «الذين ينتظرون بشوق بالغ إعلان ترشيح الرئيس خاتمى فى الانتخابات باعتباره سياسيا من نوع آخر، جمع بين الديمقراطية والدين، والحرية والأخلاق، والحداثة والتقليد، وأثبت أن تعايش الدين والديمقراطية ممكن، وأن المجتمع المدنى يمكن أن تسوده القيم الأخلاقية والمبادئ الدينية».

كلمات حسن نصر الله كانت بمثابة صرخة فى جو الصمت الذى يغطى كمًا هائلاً من الانفعالات المكبوتة بين مؤسستى المرشد والرئاسة. فالصمت جاء أولا من جانب المرشد على خامنئى على ما يمكن تسميته بمبادرة «عقد سياسى - اجتماعى جديد» بين المرشد والرئيس وفق ما جاء فى حديث خاتمى أمام لجنة «المتابعة والرقابة» على تطبيق الدستور» فى ٢٦ نوفمبر ٢٠٠٠»، يهدف إلى تمكين الرئيس من القيام بوظائفه فى تنفيذ الدستور بعد الشكوى التى أعلنها الرئيس أمام اللجنة من أنه «بعد انقضاء ثلاث سنوات ونصف السنة فى الرئاسة ليست لديه السلطة الكافية لتنفيذ وظيفته».

كان خاتمى يتوقع مفاتحة المرشد له فى كيفية معالجة الثغرات الموجودة فى الدستور وتعديلها، وفق تجربة حكم خاتمى الأولى، لتمكينه من أداء وظيفته، لكنه لم يفعل، وظل خاتمى فى انتظار مبادرة خامنئى، ولم يشأ أن يتقدم بأوراق ترشيح نفسه لولاية ثانية دون حسم أمر الخلاف القائم حول تفعيل دور الرئيس.

هل تردد خامنئى فى التجاوب مع دعوة خاتمى كان سببها الوشايات التى قام بها عتاة المحافظين المعادين لمشروع الخاتمية والذين

بكـــــاء خـــــــاتمى



خاتمى

صوروا دعوة خاتمى على أنها مسعى للانتقاص من اختصاصات وسلطات المرشد لحساب اختصاصات وسلطات الرئيس ؟

ربما ، وقد ساعد الإعلام الغربى طيلة الأشهر الأخيرة فى تعميق الفجوة بين الرجلين من خلال تلميع صورة خاتمى على حساب خامنئى ، واستخدم بعض المنافسين لخاتمى ذلك ورقة لتعميق الفجوة بينه وبين المرشد، ولذلك طال انتظار خاتمى، ولم يقطع هذا الانتظار إلا طلب حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله اللبنانى مباشرة من خامنئى مساندة ترشيح خاتمى، حيث كان رد المرشد خامنئى على طلب نصر الله إيجابيا وجاء فيه : إن الرئيس خاتمى «مصدر اعتزاز وفخر لنا. إنه الابن البار للثورة والإمام الخمينى. وما من شك فى أن الشعب سيمنحه ثقته مرة أخرى فى الانتخابات المقبلة».

هذه الكلمات حسمت بدرجة كبيرة الموقف ومهدت للقاء شديد الأهمية لم تتكشف تفاصيله بعد بين خامنئى وخاتمى، لكن المهم أن خاتمى خرج من هذه المقابلة ليعلن عزمه على ترشيح نفسه فى انتخابات الرئاسة وليذهب فى اليوم التالى (الجمعة ٤ مايو) ليتقدم بأوراق ترشيحه .

والآن تبدو الصورة هكذا ..

١ ـ أن خاتمى أصبح مسنوداً ، بدرجة ما، من جانب خامنئى لولاية ثانية.

٢ ـ أن الدعم النسبى والمتأخر جدا من جانب خامنئى لخاتمى يعنى ثلاثة أمور :

أولها : أن دعم خامنئى لتيار عتاة المحافظين المتشددين فى مواجهة مشروع خاتمى الإصلاحى سيبقى قائما بما يعنى استحالة نجاح خاتمى فى جعل مشروعه هو المشروع المستقبلى لإيران، ومن ثم فإن الاستقطاب السياسى بين التيارين المحافظ والإصلاحى، ومن ثم القصور فى الأداء الحكومى سيبقى سمة غالبة فى مرحلة حكم خاتمى القادمة .

ثانيها : أن ربط خاتمى تجديد ترشيحه بلقائه مع خامنئى والحصول على مباركته على غرار ما حدث فى الرئاسة الأولى يكشف عن استمرار الخط التوفيقى للرئيس بين تياره الإصلاحى وتوجيهات المرشد واستفزازات المحافظين المتشددين. وهذا سوف يفتح بدوره أبواب الانقسام فى صفوف الإصلاحيين ، وسوف يغذى فرص الانشقاق على زعامة خاتمى. وهذا ما حدث بالفعل ومبكرا عندما أقدم إبراهيم أصغر زاده وهو من رموز الإصلاحيين على ترشيح نفسه للرئاسة فى مواجهة خاتمى متهما إياه بأنه « ترك أنصاره من دون حماية» وقد فسر أصغر زاده تحفزه للترشيح بأنه جاء فى أعقاب سماعه لحديث خاتمى مع الصحفيين عقب التقدم بأوراق ترشيحه حيث كان ذلك سبباً لتأكيد قناعته بضرورة «المشاركة بشكل أكثر جدية فى عملية الانتخابات».

ثالثها : أن المحافظين الذين فشلوا فى التوافق على شخصية واحدة وقوية من وزن خاتمى (على فلاحيان رئيس الاستخبارات الأسبق، وعلى شمخانى وزير الدفاع ليسا بوزن خاتمى) فإنهم سيركزون على جعل فوز خاتمى ضعيفاً وباهتا ومفتقدا التفويض الشعبى، الأمر الذى سيمكنهم مستقبلاً من التحرك بمزيد من الحرية لاحتواء التيار الإصلاحى وتفتيته والإجهاز عليه.

٣ ـ أن فوز خاتمى، شبه المؤكد ، لم تعد له الأهمية الكبرى بالنسبة لمستقبل مشروعه الإصلاحى، الأهم الآن هو نسبة التأييد التى سيحصل عليها. فإذا حصل على نسبة الـ ٧٠٪ أو أكثر فإن المعادلة ستتغير كثيراً، أما إذا حصل على نسبة نجاح متدنية ، فإن مشروعه سيواجه بتحديات هائلة ستؤدى حتمًا إلى ذبول ومن ثم تلاشى مشروعه الإصلاحى. ستتوحد مجدداً فصائل الثانى من خرداد، وسيتقوى موقف خاتمى فى مواجهة المرشد على خامنئى، وعندها سيكون قادرا على تجديد عرضه بصياغة عقد سياسى ـ اجتماعى جديد بين مؤسستى المرشد والرئاسة يحقق قدرا أكبر من التوازن بين المؤسستين ويمكن الرئيس من الانطلاق فى تنفيذ الدستور وتحقيق خياره فى الديمقراطية الدينية والإصلاح بما يجدد شباب الثورة ويؤمن لها طريق التفاعل مع المستقبل، وسيتحول هو إلى مجرد أداة أو منفذ لتعليمات المرشد وفق ما يطمع عتاة المتشددين الذين سبق أن طالبوا بتصفية دور الرئيس وتجديد الدعوة لرئيس وزراء يعمل تحت يد المرشد بصفته «الولى الفقيه». واجب الطاعة .

مثل هذا الاحتمال يفرض من الآن وحتى انتهاء الانتخابات على التيار الإصلاحى إما أن يتوحد تحت راية خاتمى، ليمتلك أهلية المنافسة على صنع المستقبل وإما أن يقبل بالهزيمة، ويضيع على إيران ونظامها الإسلامى فرصة إنجاح الحل الوسط التاريخى القادر على العبور بها إلى عصر ما بعد الحداثة والعولمة دون تقلصات مجتمعية مؤلمة ودون الوقوع فى خطر فرض الحل الجذرى ومواجهات التصفية بين تيارين يفترض أنهما ينتميان إلى ثورة واحدة مازال خاتمى يحلم لها بالعبور السلمى إلى المستقبل. ■

كتـــاب الـزاويــة

من كتابات حسين فوزى

حضارتنا وحضارة أوروبا

نحن المصريين أحق الناس بدراسة الحضارات ، لأننا أثبتهم حقًا فى تراث الإنسانية العظيم الذى تواضع الناس على تسميته «الحضارة الغربية» ، لا لأنها حضارة اختص بها الغرب ، أو ورثها عن أبيه ، بل لأنها فى التسلسل التاريخى للحضارات نمت وترعرعت أخيراً فى غربى أوروبا ، بعد أن تشربت وتمثلت تيارات الحضارة من طيبة وممفيس وصور وصيدا ، وأثينا والإسكندرية وروما وبيزنطة ، وبغداد ودمشق والقاهرة .

فلست أفهم أننا نحن المصريين بالذات نطارح أوروبا فضل الشرق على الغرب ـ والغرب أخر من ينكر هذا الفضل ـ فنذهب فى المناظرة إلى الانتقاص من الحضارة العربية ، بحجة ماديتها . ثم نسدل ستاراً أسود على تاريخنا المجيد كله ، ماعدا حقبة واحدة من هذا التاريخ ، كأننا فى حاجة إلى هذا الستار لنؤكد الجوانب الروحية ، وهى موجودة على مدى تاريخنا من مدرسة هليوبوليس إلى مدرسة الإسكندرية إلى الأزهر الشريف .

وحضارة اليوم هى حقى وملكى ، بقدر ماهى حق لبعض الأوروبيين . لأننى أنا المصرى من كبار بنائيها . فكيف أنكر نفسى ، وتاريخى ، وجهاد فلاسفتى وعلمائى والمفكرين من أجدادى وضيوفهم على مدى آلاف السنين . لأقف من حضارة اليوم هذا الموقف السلبى ، وهى من غرس يدى وفكرى ومشاعرى ، بأكثر مما هى من غرس الصقلبى أو الإسكندنافى ، فليست حكاية الشرق والغرب هذه أكثر من «شخص مقاته» يلوح بها الرجعيون .

الجـــزائـــر: عـلـى هـــامـش

بعد أكثر من سنوات تسع على اندلاع أزمة الجزائر المأساوية يبدو منطقياً في ظل ما سببته من سقوط أكثر من مائة ألف قتيل، وعلى الأقل مثلهم من الجرحى واختفاء عدة آلاف آخرين، وخسارة مادية يصل تقديرها إلى أكثر من ستين مليار دولار، أن تكون القضية الأكثر إلحاحاً بشأنها هي التساؤل عن المسئول الحقيقي عن العنف المجنون الذي أوصل بلاد «المليون ونصف المليون شهيد» إلى تلك الحالة

ضيـــــاء رشـــــوان

■■ لعل الميزة الكبرى والرئيسية لكتاب «الحرب القذرة - شهادة ضابط سابق في القوات الخاصة بالجيش الجزائري» أنه يفجر مجموعة من القضايا المهمة التي ربما تتجاوز كثيراً مما كان مؤلفه الشاب وناشره الفرنسي المعروف يرميان إليه من كتابته ونشره في ذلك التوقيت بالذات. وإذا كان المؤلف قد ركز في كتابه على أحداث العنف المجنون التي تشهدها الجزائر منذ بداية عام ١٩٩٢ ملقياً بالمسئولية شبه الكاملة عنها على عاتق الجيش الجزائري، وبصفة خاصة جنرالاته الكبار وأجهزة وقوات الأمن العسكري ومكافحة الإرهاب، فمن الممكن اعتبار أن تلك هي القضية الأولى المهمة التي يثيرها الكتاب، أو بصياغة أدق: على من تقع المسئولية الحقيقية في ذلك العنف؟ كذلك يمكن اعتبار الأزمة الجزائرية الممتدة بكل ملابساتها وتفاصيلها هي القضية الثانية المهمة التي يثيرها الكتاب، على الرغم من تناوله لها بصورة مسطحة لا تتناسب مع كل ما بها من تعقيدات وتطورات داخلية وخارجية. وغير بعيد عن مضمون الكتاب ولا عن الجزائر ولا عن العاصفة التي أثارها نشر الكتاب في باريس، تبدو قضية العلاقات الجزائرية - الفرنسية بأبعادها المركبة وبخاصة صلتها بالأزمة الجزائرية الراهنة القضية الثالثة المهمة التي تثيرها قراءة هذا الكتاب.

أما بعيداً قليلاً عن مضمون الكتاب والقضايا المباشرة وشبه المباشرة التي يثيرها، فإن مطالعته تدفع إلى التفكير في قضيتين أخريين - على الأقل - لا تقلان أهمية عن الأزمة الجزائرية وإن كانتا أكثر عمومية منها، إلا أن الروابط الوثيقة بينها وبينهما تصل إلى الحد الذي يمكن معه اعتبار تلك الأزمة واحدة من تجليات هاتين القضيتين في الواقع الجزائري الخاص. وترتبط أولى هاتين القضيتين بالظاهرة الإسلامية التي راحت تجتاح منذ النصف الثاني للسبعينيات معظم أرجاء العالم الإسلامي طارحة تحديات متنوعة على دوله ومجتمعاته وقواه الفكرية والسياسية، وبصفة خاصة ما يتعلق بطبيعة جماعات وحركات تلك الظاهرة، خصوصاً ما هو موجود منها في الواقع العربي وحقيقة ومرتكزات مواقفها من العنف الذي مارسه البعض منها بلا حدود أو ضوابط، كما يحدث في الجزائر منذ اندلاع أزمتها أو كما حدث في مصر في الفترة من منتصف عام ١٩٩٢ وحتى نهاية عام ١٩٩٧. وتعد القضية العامة الثانية الوجه الآخر للقضية السابقة، حيث تتعلق برؤية الدول والأنظمة العربية للظاهرة الإسلامية ومواقفها منها والاستراتيجيات السياسية والأمنية التي اتبعتها تجاهها طيلة السنوات الخمس والعشرين الماضية.

بعد أكثر من سنوات تسع على اندلاع أزمة الجزائر المأساوية يبدو منطقياً في ظل ما سببته من سقوط أكثر من مائة ألف قتيل، وعلى الأقل مثلهم من الجرحى واختفاء عدة آلاف آخرين، وخسارة مادية يصل تقديرها إلى أكثر من ستين مليار دولار، أن تكون القضية الأكثر إلحاحاً بشأنها هي التساؤل عن المسئول الحقيقي عن العنف المجنون الذي أوصل بلاد «المليون ونصف المليون شهيد» إلى تلك الحالة. وقد ظلت هناك إجابة واحدة واضحة ومتداولة طيلة العامين الأولين للأزمة لا يتطرق إليها الظن أو الشك، وهي أن القوى الإسلامية الجزائرية هي المسئولة الوحيدة عن ذلك وبخاصة الجيش الإسلامي للإنقاذ، الذراع العسكرية للجبهة الإسلامية للإنقاذ ومعه جماعات أخرى إسلامية أقل حجماً وأكثر تطرفاً من أبرزها الجماعة الإسلامية المسلحة. وكانت مقدمات تلك الإجابة - النتيجة تبدو منطقية فيما يخص الجبهة الإسلامية للإنقاذ، حيث إن حصولها على الأغلبية الساحقة لمقاعد البرلمان الجزائري في الجولة الأولى للانتخابات التشريعية في ديسمبر ١٩٩١ كان هو بداية الأزمة الجزائرية بإلغاء الانتخابات، ودفع الجيش الرئيس الشاذلي بن جديد للاستقالة ثم حل الجبهة الإسلامية بعد ذلك، لتدخل الجزائر من يومها نفق العنف الذي لم تخرج منه بعد. فالجبهة وذراعها العسكرية وفقاً لتلك المقدمات كانت هي المسئول الوحيد عن العنف الذي اجتاح الجزائر لأنها كانت تسعى إلى الانتقام من إبعادها عن الساحة السياسية وحرمانها من المكاسب السياسية والانتخابية التي حققها لها وجودها الشرعي في الجزائر منذ عام ١٩٨٩.

إلا أن ملامح إجابات أخرى راحت تتشكل منذ عام ١٩٩٤ حيث وقعت أحداث عديدة دفعت إلى التشكيك في صحة الإجابة السابقة منها الاغتيال الغامض للرئيس محمد بوضياف في ٢٩ يونية ١٩٩٢ ثم لحليفه القوي ورئيس المخابرات العسكرية السابق قاصدي مرباح في ١٢ أغسطس ١٩٩٣ بما يفوق وفقاً للمراقبين المحايدين قدرات أي من القوى الإسلامية في الساحة الجزائرية. كذلك فإن نطاق وحجم المجازر والاغتيالات الكبرى قد اتسع في نفس الوقت الذي نشط فيه التحرك السياسي للجبهة الإسلامية للإنقاذ وحواراتها واتفاقاتها العلنية مع أحزاب المعارضة الأساسية الأخرى، مثلما حدث في اتفاقي روما الأول والثاني، أو السرية ونصف العلنية مع رئاسة الدولة التي تولاها اللواء الأمين زروال في ٣٠ يناير ١٩٩٤ عبر مستشاره القوي اللواء محمد بتشين. وقد أوضحت تلك التطورات أن هناك بالفعل فوارق - بل اختلافات عميقة - حقيقية بين الجبهة الإسلامية للإنقاذ والجماعات الأكثر تشدداً وفي مقدمتها الجماعة الإسلامية المسلحة مما ألقى ظلالاً كثيفة من الشكوك حول مسئولية الذراع العسكرية للجبهة عن كل أحداث العنف وعلى قدرة الجماعات الأخرى الأكثر تشدداً على القيام بها جميعاً. وهكذا راحت ملامح الإجابة الأخرى تتشكل وتضاف إليها في الطريق خلال السنوات التالية أحداث جديدة وتقارير صحفية عالمية وأخرى صادرة عن منظمات دولية لحقوق الإنسان... وأخيراً شهادات مباشرة من ضباط سابقين في الجيش الجزائري منذ عام ١٩٩٨ الذي شكل فيه البعض منهم منظمة سرية لترويج تلك الشهادات أسموها «الحركة الجزائرية للضباط الأحرار»، كانت آخرها شهادة الملازم حبيب سويدية في كتابه «الحرب القذرة».

وكما حدث في العامين الأولين للأزمة الجزائرية من انتشار إلقاء مسئولية أحداث العنف البشعة جميعها على الجبهة الإسلامية للإنقاذ والجماعات الأخرى الأكثر تشدداً، فقد شهد العامان الماضيان شيوع اختزال كل المسئولية في الجيش الجزائري وبصفة خاصة المخابرات العسكرية وجهاز الأمن العسكري والقوات الخاصة بمكافحة الإرهاب، وهي الرؤية التي حملها بصورة نموذجية كتاب «الحرب القذرة». ويوحي تأمل الأزمة الجزائرية بتعقيداتها وتطوراتها المتعددة بأن كلا من الإجابتين المطلقتين غير دقيقة وأن الحقيقة توجد في نقطة ما بينهما تتقاطع عندها مسئولية كل تلك الأطراف، بحيث تتحدد



1 - La Sale Guerre
(الحرب القذرة)
Habib Souaidia
Paris: La Decouverte, 2001, 204p

2 - La crise algérienne n'est pas finie
(الأزمة الجزائرية لم تنته بعد)
International Crisis Group, Rapport Afrique N 24, Octobre 2001,

نسب المسئولية وفقاً للحظة الزمنية التى تمت فيها الأحداث. فتلك النقطة التى تتقاطع عندها المسئوليات لم تكن قط ثابتة بل كانت تتحرك نحو هذا الطرف أو الآخر بحسب السياق المحيط بوقوع أحداث العنف. من هنا فإن تحديداً أدق للمسئولية لا يمكن التوصل إليه فقط عبر شهادات مثل تلك التى حملها كتاب «الحرب القذرة» على ما فيه من بعض الروايات والحقائق التى لا يمكن إغفالها - أو إهمالها - فى تحديد المسئوليات الخاصة بأجهزة الأمن العسكرى وقوات مكافحة الإرهاب وبعض القيادات العليا فى الجيش الجزائرى عن بعض وقائع العنف الكبرى والإجرامية فى مسار الأزمة الجزائرية. فالأمر يتطلب الانتقال من «التحقيق الجنائى» حول المسئولية إلى «التحليل السياسى» للأزمة الجزائرية، وهى القضية الثانية المهمة التى يثيرها الكتاب.

ولعل البداية الصحيحة للنفاذ إلى جوهر تلك الأزمة هى التأكيد على أن ما تشهده الجزائر على ارتباطه فى جزء كبير منه بخصوصية هذا البلد التاريخية والجغرافية والثقافية مما أعطى للأزمة طابعاً مميزاً، قد لا يتكرر فى بلد آخر، فهو لا يعنى أن تلك الأزمة منبتة الصلة بما يحدث حولها من تفاعلات فى العالمين العربى والإسلامى حول علاقة الدين بالدولة والصراعات المحتدمة بين الرؤى والقوى المختلفة حول طبيعة تلك العلاقة. فقد بدأت الأزمة الجزائرية واستمرت فى عاميها الأولين على الأقل على شاكلة الأزمات الأخرى المماثلة فى الجوهر - وإن اختلفت فى النطاق والعمق - باعتبارها صراعاً بين طرفين رئيسيين هما: الحركة الإسلامية بجماعاتها المختلفة السياسية المعتدلة والدينية المتشددة، والدولة بأجهزتها السياسية والأمنية والعسكرية والإدارية، وهو صراع فى جوهره بين تصورين مختلفين بعمق لما يجب أن يكون عليه المجتمع والدولة بل وأحياناً لصورة العالم والوجود الإنسانى برمته.

كان من الممكن أن يسير الصراع فى الجزائر ضمن الحدود «المعقولة» والمفهومة التى سارت بها صراعات مماثلة فى دول عربية أخرى مثل مصر وسوريا وتونس والعراق وليبيا، إلا أن عوامل جزائرية خاصة كان لها دورها المباشر فى إعطائه ذلك الطابع الدموى المأساوى الممتد. فمن ناحية كان الصعود الصاروخى للجبهة

الحرب القذرة



الجزائر

إن تحديداً أدق للمسئولية لا يمكن التوصل إليه فقط عبر شهادات مثل تلك التى حملها كتاب «الحرب القذرة» على ما فيه من بعض الروايات والحقائق التى لا يمكن إغفالها ـ أو إهمالها ـ. فالأمر يتطلب الانتقال من «التحقيق الجنائى» حول المسئولية إلى «التحليل السياسى» للأزمة الجزائرية، وهى القضية الثانية المهمة التى يثيرها الكتاب

الإسلامية للإنقاذ انتخابياً غير متكرر سوى فى الجزائر، فبعد اكتساحها الانتخابات المحلية فى صيف ١٩٩١ حصدت فى الجولة الأولى للانتخابات التشريعية فى ديسمبر ١٩٩١ أكثر من ثلاثة ملايين صوت، أعطتها بسبب النظام الانتخابى أكثر من ثلاثة أرباع مقاعد البرلمان. من ناحية ثانية فإن قرار قيادات الجيش الجزائرى بإلغاء الانتخابات وعزل الرئيس وفرض حالة الطوارئ ثم حل الجبهة والقبض على كل قياداتها وأعداد غفيرة من عناصرها الفاعلة، كانت له آثار مباشرة على مختلف التيارات والمكونات الإسلامية التى كانت تضمها الجبهة والتى رأت فى نفسها حينذاك الممثل الشرعى المنتخب للشعب الجزائرى والذى يغتصب الجنرالات بغير سند حقه فى حكم البلاد وإدارة شئونها. وبالرغم من اتفاق كل تيارات الجبهة على ضرورة مقاومة انقلاب الجيش على العملية الديمقراطية والانتخابية، إلا أنها اختلفت وتفرقت حول صور تلك المقاومة وحدودها. ولما كانت الجبهة فى الأصل تجمعاً لقوى إسلامية عديدة مختلفة الروافد والطبائع ولم يتيسر لها وقت كاف لتصهر خلافاتها فى تصور واحد، حيث كانت قد نشأت قبل نحو عامين فقط من تلك الأحداث (سبتمبر ١٩٨٩)، فقد تفرقت السبل مرة أخرى بتياراتها وعاد بعضها إلى معسكراته الدينية المتشددة الأصلية ليحارب منها الدولة والمجتمع بدون أى ضوابط أو حدود لتلك الحرب.

من ناحية ثالثة وعلى الجانب الآخر راح الحلف الموحد الذى كان يضم مختلف قطاعات الدولة وأجهزتها يتشقق تحت وطأة عوامل عديدة عاتية، وهو ما لم يحدث فى الصراعات المماثلة فى الدول العربية الأخرى سوى فى الجزائر. فقد وجدت القيادات السياسية لجبهة التحرير الوطنى الحاكمة للبلاد منذ انتزاعها استقلالها بحرب دامية دامت ثمانى سنوات، نفسها معزولة عن الشارع الذى أعطى ثقته باكتساح للجبهة الإسلامية للإنقاذ وعن الدولة التى تقدم الجيش لكى يقودها مباشرة وبدون حاجة إليها كوسيط سياسى كما جرت العادة. كذلك فقد تشقق الحلف حول الموقف من الجبهة الإسلامية خصوصاً والطرح الإسلامى عموماً بالنظر إلى الارتباط المبكر بين الإسلام والمقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسى ذى الطبيعة الخاصة، باعتبار أن الإسلام يمثل جوهر الهوية الجزائرية المستقلة وأحد مصادر المقاومة لفرنسا والتميز عنها. فعلى اختلاف الأطر الفكرية التى تبناها جناحا الدولة الجزائرية منذ اندلاع حرب الاستقلال فى الأول من نوفمبر ١٩٥٤، أى جبهة التحرير الوطنى والجيش الوطنى الشعبى، ظل هذا الجوهر للإسلام حاضراً فيها، وهو ما أدى إلى تشقق إضافى لذلك الحلف عندما اشتد الصراع مع القوى الإسلامية وبخاصة جبهة الإنقاذ.

وبالإضافة إلى تلك التشققات بين الأجنحة المدنية والسياسية للدولة وجناحها العسكرى ـ الأمنى، فقد شهد ذلك الأخير تشققات داخلية أكبر تحت وطأة عوامل ستة على الأقل كما يحددها التقرير المهم الصادر عن جماعة الأزمات الدولية (ICG) فى بروكسل ببلجيكا فى أكتوبر ٢٠٠٠ بعنوان: «الأزمة الجزائرية لم تنته بعد».

فهناك أولاً النزاعات التاريخية بين ضباط الجيش الذين التحقوا به منذ اندلاع ثورة الاستقلال عام ١٩٥٤ وهؤلاء الذين لحقوا به قبل نهاية الحرب مع الفرنسيين وانتزاع الاستقلال وبخاصة من كانوا يخدمون منهم ضمن قوات الجيش الفرنسى. من ناحية ثانية فهناك الاختلافات الجيلية بين قيادات الجيش من الجيل الأول من المجاهدين فى حرب التحرير الذين يرون أن للجيش دوراً سياسياً وطنياً يتحدد فى الحفاظ على الأمة واستقلال الدولة، وبين الجيل التالى لهم والذى تلقى تعليماً عسكرياً متخصصاً يرى بموجبه أن دور الجيش إنما هو مهنى وفنى وليس سياسياً فى الدفاع عن التراب الوطنى وحفظ السيادة الوطنية من أى اعتداء خارجى. كذلك يصعب إغفال تأثير الانقسامات الجهوية فى الجيش الجزائرى حيث إن أغلبية الضباط الذين بدأوا حرب التحرير كانوا من المنتمين لشرق البلاد مما انعكس على تزايد وزنهم فى قيادة الجيش الحالية على خلاف القادمين من المناطق الغربية الذين يمثلون أقلية فى تلك القيادة. أيضاً فإن صراعات أخرى يعرفها الجيش الجزائرى بين جماعات المصالح والنفوذ المختلفة والتى غذاها تصاعد معدلات الفساد فى أحشاء الدولة والجيش معاً خلال السنوات السابقة على اندلاع الأزمة ثم، بعد ذلك فى أثنائها حتى اليوم. ويضيف التقرير المشار إليه إلى ما سبق التعارضات بين أقسام الجيش وبخاصة قيادة الأركان وجهاز الأمن العسكرى فيما يخص الموقف من الإسلاميين وكيفية التعامل معهم، حيث إنه بالرغم من الخضوع النظرى للجهاز لقيادة الأركان فإن دوره الرئيسى فى مكافحة العنف والإرهاب أعطى له استقلالاً واضحاً عنها وساعد على تغلغله بوضوح فى أنحاء المجتمع والدولة. ويوضح التقرير حقيقة كثيراً ما أشارت إليها الدراسات الجادة حول أزمة الجزائر، وهى أن موقف الطرفين تجاه التعامل مع الإسلاميين ظل موحداً حتى تولى الرئيس الأمين زروال الحكم فى يناير ١٩٩٤ حيث بدأ التعارض الذى كانت أبرز أحداثه قيام اللواء محمد بتشين بفتح قنوات حوار سرية مع القيادة السياسية لجبهة الإنقاذ فى نفس الوقت الذى قام فيه اللواء إسماعيل العمارى قائد جهاز الأمن العسكرى بعقد اتفاق الهدنة الشهير مع قيادة الجيش الإسلامى للإنقاذ والذى بدأ سريانه من الأول من أكتوبر ١٩٩٧. ويضيف التقرير عاملاً سادساً وأخيراً لتشقق وحدة الجيش الجزائرى فى مواجهة الإسلاميين وهو الخلاف بين الجناح «الاستئصالى» فى القيادة والذى يرى ضرورة التخلص التام من كافة التيارات الإسلامية بغض النظر عن اعتدالها أو تشددها وهو ما يتطلب اختراقهم وتفتيتهم بل والقيام ببعض العمليات «القذرة» التى يمكن تحميلهم وزرها إعلامياً وقانونياً، وبين الجناح الباحث عن حلول وسطى مع جبهة الإنقاذ والتيارات الوسطى والمعتدلة الأخرى دون أن يؤثر ذلك على موقفه المتشدد تجاه التيارات العنيفة والإرهابية.

لكل تلك الأسباب خرج الصراع فى الجزائر عن الحدود «المعقولة» والمفهومة التى سارت بها صراعات مماثلة فى دول عربية أخرى، وكان لتلك العوامل الجزائرية الخاصة دورها المباشر فى إعطائه ذلك الطابع الدموى المأساوى الممتد حتى اليوم. كذلك كان لتلك الأسباب والعوامل الخاصة تأثيرها فى تأرجح وتفاوت نسب المسئولية عن العنف الدامى فى كل مرحلة من الأزمة بين أطرافها الذين لم يظلوا كما هو الحال فى تلك الدول العربية الأخرى طرفين فقط لكل منهما ملامحه ومصالحه الواضحة التى تفصله عن الطرف الآخر. ولعل هذا التأرجح والتفاوت من مرحلة إلى أخرى هو الذى يقف اليوم ـ ضمن عوامل أخرى بالتأكيد ـ وراء مقولة المسئولية الكاملة للجيش عن وقائع العنف الدامى، وهى التى تمثل الأطروحة المركزية وشبه الوحيدة لكتاب «الحرب القذرة».

ويفتح الحديث عن العوامل الأخرى لنشر وشيوع تلك المقولة الباب فوراً للقضية الثالثة التى تثيرها قراءة الكتاب، أى العلاقات الجزائرية ـ الفرنسية بأبعادها المركبة خاصة صلتها بالأزمة الجزائرية الراهنة. ولعله من التزيد التوسع فى تناول طبيعة العلاقات التاريخية والثقافية التى ربطت فرنسا بالجزائر منذ احتلالها عام ١٨٣٠ حتى استقلالها عام ١٩٦٢ ثم خلال مراحل ما بعد الاستقلال حتى اليوم، إلا أنه قد يكون ضرورياً التطرق إلى موقع الجزائر فيما يمكن تسميته «السياسة الإسلامية» لفرنسا والذى يعد لأسباب عدة موقعاً محورياً. فعلى الصعيد الداخلى الفرنسى يمثل المسلمون الديانة الثانية بعد الكاثوليك وبأعداد يتراوح تقديرها ما بين ٢,٥ و ٤ ملايين شخص منهم أكثر من مليون من حاملى الجنسية الفرنسية، بالإضافة إلى أن المسلمين يمثلون نحو ٦٠٪ من المهاجرين الأجانب فى فرنسا والمقدر عددهم بحوالى ثلاثة ملايين شخص. ومن بين هؤلاء المسلمين فى فرنسا، سواء من حاملى جنسيتها أو المهاجرين إليها، يمثل الجزائريون نحو نصف عددهم. وقد اختلطت مشكلات البطالة بين الفرنسيين ومدى مسئولية المهاجرين ـ والمسلمون تحديداً منهم ـ عنها مع مشكلات دمج الحاصلين منهم حديثاً على الجنسية فى المجتمع الفرنسى، لتتحول مع صعود الجبهة الإسلامية للإنقاذ فى الجزائر فى الانتخابات المحلية فى صيف ١٩٩١ ثم اكتساحها الجولة الأولى للانتخابات التشريعية واندلاع الأزمة فى الجزائر إلى تحد مباشر للأمن القومى الفرنسى الذى راح المسئولون عنه يهتزون أمام تصاعد حجم الظاهرة الإسلامية فى فرنسا وتعرض العاصمة ومدن فرنسية أخرى لبعض الهجمات الإرهابية التى بدأت فى سبتمبر ١٩٨٦ على أيدى عناصر ذات صلة بإيران ثم بعد ذلك على أيدى عناصر جزائرية بعد اندلاع الأزمة عام ١٩٩٢.

أما على الصعيد الخارجى فقد كان لفرنسا أيضاً اهتمامها المبكر بالظاهرة الإسلامية وبخاصة التيارات العنيفة منها، حيث من المعروف أن باريس قد قدمت مساعدة أمنية واسعة وفعالة ـ ضمن دول غربية أخرى ـ للسلطات السعودية فى إنهاء حركة جهيمان العتيبى التى احتلت الحرم المكى الشريف فى غرة المحرم عام ١٤٠٠ هجرية / ١٩ نوفمبر ١٩٧٩ ميلادية. وقد عادت باريس مرة أخرى مع ظهور الجبهة الإسلامية للإنقاذ للاهتمام المكثف بما يحدث على الصعيد الإسلامى بعيداً عن أراضيها، أى فى الجزائر، وذلك تخوفاً من أن يهدد ذلك أوضاعها الداخلية السابق شرحها

يضيف التقرير عاملاً سادساً وأخيراً لتشقق وحدة الجيش الجزائرى فى مواجهة الإسلاميين وهو الخلاف بين الجناح «الاستئصالى» فى القيادة والذى يرى ضرورة التخلص التام من كافة التيارات الإسلامية بغض النظر عن اعتدالها أو تشددها، وبين الجناح الباحث عن حلول وسطى مع جبهة الإنقاذ والتيارات الوسطى والمعتدلة الأخرى



ومصالحها الخارجية الكبرى في الجزائر. فالجزائر بالنسبة لفرنسا هي حجر الزاوية لمصالحها في مجالها الحيوي الخارجي الجديد وهو حوض البحر المتوسط الذي يحقق لها من ناحية التواجد في منطقتي نفوذها التقليديتين، أي شمال أفريقيا والشرق الأوسط، ويتيح لها من ناحية ثانية صياغة مجال نفوذ واسع توازن به مجال النفوذ الألماني في وسط أوروبا وشرقها، فضلاً عن ارتباطه المباشر بأبرز قضاياها الداخلية ذات البعد الخارجي، أي الهجرة التي يأتي معظمها من جنوب المتوسط.

وكما هو الحال في الجزائر فقد انقسم رجال السياسة والأمن والثقافة في فرنسا بين تيارين رئيسيين أحدهما استئصالي يدعم نظيره الجزائري بلا حدود والآخر أقرب للتيار التوازني الجزائري، وإن كان لا يملك كثيراً مما يمكن أن يقدمه له. وقد ظل حاضراً في فرنسا وموزعاً بين هذين التيارين تيار آخر ذو وجهة مختلفة يحتفظ بتصورات عن الجزائر غير بعيدة عن ماضي فرنسا الاستعماري فيها، حيث لا يزال يرى فيها أرضاً فرنسية أو شبه ذلك نجح سكانها بغير حق في فصلها عن فرنسا وهو السبب الرئيسي في تدهور أوضاعها ووصولها إلى ما هي عليه اليوم سياسياً واقتصادياً وأمنياً. وقد كان لتلك التيارات الثلاثة تأثيراتها المباشرة وغير المباشرة على مسار الأزمة الجزائرية في مراحلها المختلفة سواء عبر الدعم الفني والتسليحي والأمني وكذلك الصمت والتواطؤ عن بعض التجاوزات الكبرى الذي حظي به الجناح الاستئصالي في الدولة الجزائرية من نظيره في أجهزة الدولة الفرنسية، أو الدعم السياسي والثقافي الذي أتى من قطاعات ذلك الجناح في الدولة الفرنسية وخارجها لأنصارهم في الجزائر وبخاصة التيارين الفرانكوفوني والقبائلي المتشددين. كذلك قام الجناح التوازني الفرنسي في الدولة وخارجها بتقديم صور مختلفة من الدعم السياسي والمعنوي ليس فقط لنظيره الجزائري عبر الإعلام والمنظمات الأهلية الفرنسية والدولية، ولكن أيضاً وفي أحيان أخرى لبعض التجمعات والحركات الإسلامية السياسية الجزائرية غير المتشددة سواء في الجزائر نفسها أو لفروعها وممثليها في فرنسا والخارج عموماً.

أما التيار الثالث، أو الاستعماري، فقد رأى في الأزمة الجزائرية فرصة حقيقية لتأكيد مقولاته حول خطأ فصل الجزائر عن فرنسا وسعى من خلالها لدفع الجزائر إلى أكبر مساحة ممكنة من الانهيار وإلى «الانتقام» التاريخي ممن يرى أنهم المسئولون عن ذلك الخطأ. ولاشك أن جبهة التحرير الوطني والجيش الوطني الشعبي ظلا في نظر هذا التيار هما المسئولان الوحيدان اللذان يجب أن تتوجه إليهما سهام ذلك الانتقام، وهو ربما يكون ذا علاقة ما بنشر كتاب «الحرب القذرة» الجزائرية في ذلك التوقيت بالذات. فمن الصعوبة فصل هذا النشر وذلك التوقيت وما حواه الكتاب من اتهامات - وبعض الحقائق بالطبع - للجيش الجزائري عن الحملة الإعلامية والسياسية الواسعة التي أحاطت بنشر الجنرال الفرنسي بول أوساريس شهادته في كتاب حول «الحرب القذرة» التي شنها الجيش الفرنسي في الجزائر أثناء حرب التحرير بكل ما حواه من تفاصيل متعلقة بالتعذيب المنظم والقتل الجماعي لمجاهدي جبهة التحرير وللمواطنين العزل وربما يكون إعلان السلطات الجزائرية في هذا السياق عن اكتشاف مقابر جماعية للمجاهدين شرق العاصمة الجزائرية والذين قتلهم الجيش الفرنسي دون تمييز أو تحقيق أثناء حرب التحرير، يعبر بصورة واضحة عن إدراك الدولة الجزائرية لهذا المعنى لنشر كتاب الضابط الجزائري وما أحاط به من ضجة. إلا أن تلك الضجة الواسعة حول هذا الكتاب في الأوساط الإعلامية والسياسية الفرنسية لا يكفي تفسيرها فقط بدور التيار الاستعماري الفرنسي، فقد أسهم التياران الآخران - ولكل منطقه وأسبابه - في خلقها بما أدى إلى إعادة طباعته سبع مرات حتى الآن وتوزيعه ما يزيد على خمسة وستين ألف نسخة في طبعته الفرنسية.

وبعيداً قليلاً عن القضايا المباشرة وغير المباشرة التي أثارها الكتاب فيما يخص الحالة الجزائرية الخاصة، فالقضيتان الأكثر عمومية منها والمرتبطتان بها ارتباطاً وثيقاً تستحقان أيضاً بعض التوقف. وتتعلق القضية الأولى العامة بطبيعة جماعات وحركات الظاهرة الإسلامية خصوصاً ما هو موجود منها في الواقع العربي وحقيقة ومرتكزات مواقفها من العنف. فبصفة عامة تجنح معظم الكتابات حول هذه الظاهرة إلى تقسيمها عموماً ما بين جماعات وتيارات معتدلة وأخرى متطرفة أو متشددة، انطلاقاً من مواقفها تجاه النظم السياسية والاجتماعية في بلادها ومن النموذج الغربي عموماً ومن مدى لجوئها إلى العنف في ممارسة تلك المواقف. وقد خضعت الظاهرة الإسلامية في الحالة الجزائرية - وفي غيرها من حالات عربية أخرى مثل مصر وسوريا وتونس - لهذا التصنيف الذي أضحت بموجبه الجبهة الإسلامية للإنقاذ والجماعة الإسلامية المسلحة والجماعة السلفية للدعوة والجهاد ضمن فئة واحدة هي المتشددة العنيفة، وذلك بسبب لجوئها جميعاً في أوقات مختلفة للعنف في صراعها مع الدولة الجزائرية. كذلك ففي مصر استندت كتابات عديدة لنفس التصنيف والمعيار لكي تزج بجماعة الإخوان المسلمين مع الجماعة الإسلامية وجماعة الجهاد ضمن نفس المعسكر المتشدد العنيف استناداً أيضاً إلى لجوئهم جميعاً لممارسة العنف في مراحل مختلفة من تطورهم وصراعاتهم في المجتمع ومع الدولة.

والحقيقة أن انتقادات كثيرة ترد على هذا التصنيف الذي يستند فقط لعوامل سياسية ويغفل بعض الخصائص المهمة التي تنفرد بها الظاهرة الإسلامية عن غيرها من الظواهر الأخرى التي تبدو قريبة منها، والتي يمكن لها أن تساعد في التوصل لتصنيف أدق لجماعات وتيارات تلك الظاهرة. والأكثر دقة في هذا التصنيف هو أن العامل الفكري يظل هو الأكثر حسماً في تطور تلك الظاهرة وانقسامها إلى جماعات وتيارات متباينة ومتميزة عن بعضها البعض على الرغم من انتسابها جميعاً إلى الإسلام كإطار ديني واجتماعي وتاريخي. ووفقاً لذلك فمن الممكن بصورة عامة تقسيم تلك الظاهرة داخلياً - وهو ما ينصرف بالطبع إليها في الجزائر - إلى نوعين رئيسيين من الجماعات: الجماعات الدينية الإسلامية، والجماعات السياسية - الاجتماعية ذات الأيديولوجية الإسلامية.

تقوم النوعية الأولى من الجماعات على أساس فكري يأخذ بالمطلقات الكبرى في الإسلام وبخاصة العقيدة، حيث لا تولي اهتماماً يذكر لما هو دون ذلك من مستويات فقهية وشرعية إلا إذا تماست مباشرة مع هذا الأساس. والإشكالية الرئيسية لتلك الجماعات تتعلق بما تراه إقامة للتوحيد والعبودية الحقة لله سبحانه وتعالى، وبالتالي فاهتمامها الوحيد تقريباً ينصب على مدى صحة إيمان وإسلام الأفراد والمجتمعات والدول، ومن ثم تتحدد مواقفها منهم وفقاً لما تراه في ذلك الشأن استناداً إلى تفسيرات بعينها لبعض النصوص القرآنية الكريمة. وتركز تلك الجماعات بصورة لا تخطئها العين على تلك النصوص العقيدية بتفسيراتها هذه دون اهتمام مماثل بالنصوص الأخرى التشريعية والإنتاج الفقهي التشريعي الإسلامي الضخم، ومن ثم يبدو واضحاً في أدبياتها وحركتها الحضور الطاغي للعقيدة والغياب الملحوظ للشريعة. وتُضم تلك الجماعات الدينية الإسلامية «النصية» فيما يخص موضوعنا إلى اتجاهين فرعيين يختلفان بحسب المرجعية التاريخية التي يستند إليها كل منهما، وهما الاتجاه الجهادي واتجاه الغلاة. ويستند الاتجاه الأول، الذي تمثله في الجزائر الجماعة الإسلامية المسلحة وفي مصر الجماعة الإسلامية والجهاد قبل تحولاتهما الأخيرة، إلى المرحلة المدنية للرسول (ص) حيث اختلطت العقيدة والدين بالدولة والسياسة ولم يعد هناك من مهرب من استخدام العنف أو «الجهاد» لمواجهة أعداء الإسلام ومحاربيه والمرتدين عنه دون الحاجة إلى إعادة دعوتهم إلى الإسلام. أما اتجاه الغلاة، والذي تمثله في الجزائر ومصر الجماعات المعروفة باسم «التكفير والهجرة»، فهو يستند في الحقيقة إلى المرحلة المكية بتفسير خاص يرى عدم اللجوء إلى العنف في مواجهة مجتمعات الكفر التي هي كل مجتمعات الأرض اقتداءً بالرسول (ﷺ) الذي لم يحارب الكفار قط في مكة، مع استبعاد إعادة الدعوة إلى الإسلام لأنها لن تجدي مع حالة الكفر هذه أو الجاهلية الجديدة. ويظل الحل بالنسبة لتلك النوعية من الجماعات هو اعتزال المجتمعات

الجزائر بالنسبة لفرنسا هي حجر الزاوية لمصالحها في مجالها الحيوي الخارجي الجديد وهو حوض البحر المتوسط الذي يحقق لها من ناحية التواجد في منطقتي نفوذها التقليديتين، أي شمال أفريقيا والشرق الأوسط، ويتيح لها من ناحية ثانية صياغة مجال نفوذ واسع توازن به مجال النفوذ الألماني في وسط أوروبا وشرقها

كتاب الزاوية

من كتابات حسين فوزى

خلاصة التاريخ المصرى

فى هذه الجملة خلاصة تاريخ مصر كله : الحكم الصالح يقى المصريين شر الفيضان العالى والنيل المنخفض . وقديمًا استطاع يوسف الصديق أن يحسن التدبير ، فيجتاز بمصر السنوات العجاف .

اعتنق الشعب المصرى المسيحية ، بعد أن فقد الإيمان بألهته القديمة فتخلى عنها ، إذ شعر بأنها تخلت عنه منذ زمن طويل ، ورأى كيف يمالئ كهنته السلطان الأجنبى . واستشهد المصرى متمسكًا بعقيدته المسيحية ، عندما فرضت عليه روما عبادة إمبراطورها ؛ واستشهد أكثر ما استشهد عندما أراد الإمبراطور البيزنطى أن يفرض عليه مذهبًا مسيحيًا بعينه ، يخالف مذهبه المصرى .

أمن بالإسلام فلم يحمه إسلامه من اضطهاد الولاة والحكام والسلاطين والباشوات ، ولم يكن حظه خيراً - إلا قليلاً - من حظ أخيه المصرى الذى بقى على مسيحيته . ليتعبد وثنيًا ، أو ليؤمن بعيسى ، أو لينطق بالشهادتين ، فلعنة حكامه قائمة دائمة ، لا تفارقه أبد الدهر . يحارب الوثنية نصرانيًا ، ويعارض الأرثوذكسية الملكية قبطيًا ، ويقاوم الصليبيين مسلمًا ، ولن يغير كل هذا من شراهة حكامه المخادعين ، ولن يغير ما بنفوسهم من نهم الاستيلاء على أرضه ، وخيرات أرضه وصناعته . لأن بغيتهم كلهم من الحكم ، هى عرق جبينه ودمه ، ونتاج عقله وذراعيه .

والشعب المصرى المغلوب على أمره انتصر دائمًا على ظلمته ، إذ لم يستطع حكامه أن يذلوا عليه طويلاً ، بل هو الذى خدعهم فى نفسه ليحتفظ لنفسه بشخصيته المتكاملة .

من الصعوبة فصل هذا النشر وذلك التوقيت وما حواه الكتاب عن الحملة الواسعة التى أحاطت بنشر الجنرال الفرنسى بول أوساريس شهادته فى كتاب حول « الحرب القذرة » التى شنها الجيش الفرنسى فى الجزائر بكل ما حواه من تفاصيل متعلقة بالتعذيب المنظم والقتل الجماعى لمجاهدى جبهة التحرير وللمواطنين العزل

الكافرة سواء بالمفاصلة الشعورية عنها عند الاضطرار للعيش فيها أو الهجرة منها - وهو الحل الأمثل - حتى يأتى الله بنصره. ومع ذلك فإن تلك النوعية من الجماعات تكون غاية فى العنف عند ممارستها له فى ظل ظروف معينة وهو الأمر الذى تعد بعض أحداث الجزائر شاهداً عليه.

أما النوع الثانى الرئيسى من جماعات الظاهرة الإسلامية فهو الجماعات السياسية - الاجتماعية ذات الأيديولوجية الإسلامية، والتى تمثلها فى الجزائر الجبهة الإسلامية للإنقاذ وفى مصر وسوريا والأردن جماعة الإخوان المسلمين وفى تونس جماعة النهضة. وتستند تلك الجماعات فى طرحها للإسلام على أنه برنامج تشريعى يعد الأفضل لتنظيم الوجود الاجتماعى للبشرية جميعها، وذلك دون إهمال لأسسه العقيدية ولا توغل فيها إلى حد اتهام الأفراد والمجتمعات والدول بالكفر أو الجاهلية. وانطلاقاً من رؤية تلك الجماعات للمجتمعات للإسلام باعتباره برنامجاً لتنظيم المجتمع والدولة، فهى تتوجه بصورة مباشرة نحو السلطة السياسية باذلة كل الجهود السياسية الممكنة من أجل الوصول إليها لتطبيق برنامجها هذا. ولا تتوقف المرجعية التاريخية لتلك الجماعات فى صياغتها لهذا البرنامج عند المرحلة النبوية فقط ولا النصوص القرآنية وحدها على أهميتها بالنسبة لها، ولكنها تتوسع لكى تجعلها تمتد إلى التاريخ الإسلامى كله وتراثه الفقهى الموزع على أربعة عشر قرناً. وفى سعى تلك الجماعات لتطبيق برامجها، أو «الشريعة»، كما تدعوها فهى تذهب أحياناً إلى استخدام العنف بصور مختلفة ضمن الصراعات السياسية التى تخوضها مع مخالفيها وخصوصاً مع الدولة دون أن تصفه بأنه «جهاد» كما تفعل الجماعات الدينية الإسلامية، ودون أن يكون الهدف منه هو إعادة الناس إلى الإسلام أو معاقبتهم لمحاربتهم إياه كما تفعل تلك الأخيرة، بل باعتباره عنفاً سياسياً مشروعاً فى تلك النوعية من الصراع السياسى.

فى ضوء ذلك يمكن إعادة توصيف ما حدث فى الجزائر منذ اندلاع أزمتها باعتبارها قد بدأت بصراع سياسى - وليس دينياً - مع الجبهة الإسلامية للإنقاذ التى هى جماعة سياسية - اجتماعية تطرح أيديولوجية إسلامية لإعادة تنظيم المجتمع والدولة هناك وفقاً لما ترى أنه الشريعة الإسلامية. وفى هذا السياق فقد كان العنف الذى مارسته تلك الجبهة ضد الدولة فى حقيقته عنفاً سياسياً ضمن ظروف تاريخية لم يكن لها غير أن تؤدى إلى ذلك. ولا شك أن ظهور وتنامى الجماعات الإسلامية الدينية بجناحيها الجهادى والتكفيرى قد حدث أيضاً ضمن تلك الظروف وأدى إلى ممارستها العنف الدينى الذى وصل فى كثير من الأحيان إلى الإرهاب والممارسة الإجرامية. وقد بدا واضحاً الفارق بين هذين النوعين من الجماعات فى مسار الأزمة الجزائرية، بالإضافة إلى نوعية العنف، فى مدى استجابة كل منهما للتفاوض مع الدولة وقبول الجماعات السياسية - الاجتماعية الإسلامية عقد بعض الاتفاقات العلنية أو السرية معها بما فى ذلك توقفها عن ممارسة العنف بل وحل ذراعها العسكرية كما فعلت الجبهة الإسلامية بالجيش الإسلامى للإنقاذ، بينما رفضت الجماعات الدينية تماماً أى حلول وسطى وظل بعضها يقاتل حتى اليوم مثل الجماعة الإسلامية المسلحة والجماعة السلفية للدعوة والجهاد.

أما القضية العامة الثانية، أو الوجه الأخر للقضية السابقة، فهى تتعلق برؤية الدول والأنظمة العربية - بما فيها الجزائر - للظاهرة الإسلامية ومواقفها منها والاستراتيجيات السياسية والأمنية التى اتبعتها تجاهها طيلة السنوات الخمس والعشرين الماضية. ويبدو المشترك الأعظم بين مختلف تلك المواقف والاستراتيجيات هو إعطاؤها وزناً كبيراً للظاهرة الإسلامية واعتبارها التحدى الأول الذى يواجه الدولة العربية فى الربع الأخير من القرن العشرين. كذلك تشترك تلك الاستراتيجيات انطلاقاً من ذلك فى تبنى أحد هدفين فى التعامل مع تلك الظاهرة: إما السعى إلى تصفية الظاهرة ومختلف جماعاتها وتياراتها باعتبارها تمثل تهديداً للدولة واستقرارها واستمرارها، أو العمل على توظيف نفس الظاهرة برموزها وشعاراتها وجماعاتها من أجل خلق قواعد للشرعية السياسية ذات المحتوى الدينى بغية تأمين ذلك الاستقرار وهذا الاستمرار. وعلى الرغم من التناقض الواضح ما بين هذين الهدفين إلا أن الدولة العربية قد انتقلت بينهما بيسر خلال ربع القرن الماضى بكل ما ترتب على ذلك من استخدام استراتيجيات متعارضة. وتبدو الجزائر حالة مثالية لهاتين الخاصتين، فالدولة هناك - بالإضافة إلى جماعات ثقافية وسياسية أخرى - قد حرصت منذ اكتساح الجبهة الإسلامية للإنقاذ الانتخابات المحلية فى صيف ١٩٩١ على اعتبارها ومعها الظاهرة الإسلامية كلها التحدى الأول الذى يواجهها منذ نهاية حرب الاستقلال. أما المراوحة فى تعامل الدولة والنظام السياسى مع الظاهرة ما بين تصفيتها واستخدامها كقاعدة للشرعية فإن مظاهره



تتعدد منذ نشاة جبهة التحرير الوطنى التى تخلل الإسلام رؤيتها الفكرية وسلوكها الحركى وحتى الخطاب والأداء السياسى للرئيس عبدالعزيز بوتفليقة وحكوماته المتعاقبة وتحالفاته مع قوى إسلامية «معتدلة» مثل حزب النهضة وحزب حركة السلم والمجتمع (حمس).

كذلك فإن الاستراتيجيات الأمنية والسياسية العربية تجاه الظاهرة الإسلامية اشتركت فى تعاملها مع الحركة الإسلامية عموماً وفى معظم الوقت باعتبارها كتلة واحدة صماء لا تمايزات حقيقية بين جماعاتها وتياراتها، ومالت دوماً إلى إسباغ سمات الجماعات الدينية الإسلامية وبخاصة الجهادية العنيفة عليها. والحقيقة أن هذا التوجه ينسجم من جهة مع اشتراك تلك الاستراتيجيات فى اعتبار الظاهرة الإسلامية التحدى والخطر الرئيسى عليها، ويبرر من جهة أخرى التعامل الأمنى والإعلامى الموحد مع الحركة الإسلامية ككل دون الأخذ فى الاعتبار الفوارق المهمة والعميقة فيما بين جماعاتها وتياراتها. ولم تكن الحالة الجزائرية أيضاً بعيدة عن استخدام ذلك التعميم والخلط لتحقيق نفس الأهداف، وكانت الأجنحة الاستئصالية سواء فى الدولة أو المجتمع الثقافى والسياسى هى الأكثر استخداماً له وإزالة كل فوارق بين الجيش الإسلامى للإنقاذ والجماعة الإسلامية المسلحة وترويج صورة واحدة لهما كإرهابيين يقترفون نفس الجرائم والمذابح التى لا يمكن لعاقل الدفاع عنها أو تبريرها. وربما يكون ذلك التوجه هو الذى يفسر ما جاء فى كتاب «الحرب القذرة» ومصادر عديدة أخرى من ارتكاب مجموعات استئصالية فى الجيش الجزائرى جرائم ومذابح مماثلة ثم السعى لإلصاقها بالقوى الإسلامية سواء كانت جبهة الإنقاذ أو الجماعة الإسلامية المسلحة.

كذلك تشترك تلك الاستراتيجيات الأمنية والسياسية العربية فى إعطاء وزن مبالغ فيه فى معظم الأحيان للأبعاد الخارجية للظاهرة الإسلامية والتى تحولت لدى بعضها إلى مجرد امتداد داخلى لجذور وقواعد خارجية ما كان يمكن لها أن تنشأ وتستمر بدون دعمها. وقد زاد من ذلك التوجه للمبالغة فى أهمية الأبعاد الخارجية للظاهرة الإسلامية ثلاثة عوامل مهمة هى: الحرب الأفغانية التى مثلت بوتقة حقيقية لتجميع وصهر كثير من الجماعات الدينية الجهادية فى العالم معاً، واللجوء المتزايد لقيادات مختلف جماعات الحركة الإسلامية إلى الدول الغربية حيث استفادت من مناخ الحرية فيها لبث دعايتها المضادة لدولها، وأخيراً وجود بعض النظم الإسلامية سواء الثورية أو المحافظة التى أقامت بعض العلاقات مع بعض جماعات الحركة الإسلامية سواء السياسية أو الدينية. وقد تأثرت الجزائر أثناء أزمتها الممتدة مباشرة بتلك الخاصية، حيث ساد فى كثير من الأوقات تأكيد الدولة على أهمية وحسم العوامل الخارجية فى تشجيع ودعم جماعات الحركة الإسلامية، وهو ما وصل فى إحدى الفترات إلى قطع العلاقات مع الجمهورية الإسلامية فى إيران بعد اتهامها رسمياً بتقديم هذا الدعم والتشجيع.

وعلى الوجه المقابل تشترك الاستراتيجيات الأمنية والسياسية العربية فى التوجه نحو التعاون مع أطراف وقوى خارجية عديدة فى مواجهتها لمختلف جماعات الحركة الإسلامية التى تتفق معها حول خطورتها وضرورة مواجهتها. ويعد التعاون الأمنى والتسليحى هو القلب الحقيقى لهذا التعاون الذى شمل دولاً عربية وإسلامية وغربية، والذى اتخذ بدوره ثلاثة أشكال على الأقل: الأول هو العمل من خلال لجان مشتركة يتم بداخلها تبادل المعلومات بين الأجهزة المختصة لاستكمال ملفاتها وسد الفجوات الموجودة بها. أما الشكل الثانى فيتمثل فى التعاون المشترك بين تلك الأجهزة لإعاقة تحركات القيادات الإسلامية الهاربة من بلادها فى بلدان المهجر - الغربى خصوصاً - مع السعى إلى توفير بعض الركائز القانونية سواء لحرمانها من الحصول على حق اللجوء السياسى أو لطردها من تلك البلدان. ويتمثل الشكل الثالث فى اشتراك تلك الأجهزة فى بعض العمليات الدقيقة والخاصة المتعلقة بتعقب وضرب بعض القيادات والجماعات الإسلامية - وبخاصة الجهادية العنيفة - سواء فى بلدانها الأصلية أو فى المهاجر. وتوضح الأزمة الجزائرية لجوء الدولة - أو بعض أجنحتها وأجهزتها - إلى التعاون الخارجى طوال الأزمة مع أجهزة مناظرة فى دول أخرى وبخاصة غربية وبالأخص فرنسية، والذى تركز بصورة أكثر فى الشكلين الأول والثالث لمثل هذا النوع من التعاون. وإذا كانت مبررات هذا التعاون واضحة فيما يخص الطرف الجزائرى، فهو فيما يخص الأطراف الخارجية الأخرى كان منطلقاً من اعتبارات المصالح المباشرة لها، ولعل تداخل الأزمة الجزائرية مع الأوضاع الفرنسية كما سبقت الإشارة يعطى مثالاً واضحاً لمبررات مثل ذلك التعاون. ■

الفئات الرأسمالية الجديدة
والأوضاع الاحتكارية فى السوق المصرية

محمود عبد الفضيل



[١]

ليس هناك من شك فى ضرورة قيام قطاع أعمال خاص قوى فى مصر، لأن عملية التنمية ينوء بحملها القطاع العام وحده. ويمكن تشبيه الموقف، بسيارة تريد أن تنطلق بسرعة على الطريق .. ولكن لابد لها من عجلتين أماميتين، وعجلتين خلفيتين. وحسب مراحل التطور الاقتصادى، قد تكون العجلتان الأماميتان والخلفيتان هما القطاع العام، كما كان الحال فى الستينيات ومعظم السبعينيات. بينما فى ظل «اقتصاد السوق» وعمليات «الخصخصة»، قد تكون العجلتان الأماميتان هما قطاع الأعمال الخاص، والعجلتان الخلفيتان هما قطاع الأعمال العام. ولكن ذلك يتطلب شروطًا خاصة تتعلق بالدور التنموى لقطاع الأعمال الخاص، وإلا ظلت العجلتان الأماميتان للقطاع العام، والعجلتان الخلفيتان للقطاع الخاص.

وإذا ما دققنا النظر فى طبيعة «الفئات الرأسمالية الجديدة» فى مصر، نجد أنها تعتمد فى تمويل جانب هام من أنشطتها الاقتصادية على:

(١) تدفقات أموال المعونات الأجنبية.

(٢) الاقتراض المفرط من القطاع المصرفى.

(٣) الحصول على «التوكيلات التجارية»، من «الشركات دولية النشاط»، لتسويق وترويج «المنتجات الأجنبية» لتلك الشركات.

(٤) الاعتماد على وجود درجة عالية من «الاحتكار» فى السوق المحلية ، تساعدها على تحقيق أرباح احتكارية «وغير تنافسية».

كما أن هياكلها القانونية والتنظيمية تقوم على نظام الشركات العائلية «المفتوحة» أو المغلقة ، فلا توجد جمعيات عمومية حقيقية تحاسب وتسلط الضوء على أنشطة الشركات وممارسات مجالس الإدارة التى تسيطر عليها «العائلية» !

وكل هذه العناصر تؤثر بدورها على «مرجعيتها» الفكرية وعلى منطق تطورها الاقتصادى والاجتماعى.

وفى أحوال كثيرة، نجد أن العديد من تلك «الفئات الرأسمالية الجديدة» تقوم بالتوسع فى نشاطها بالاعتماد المفرط على الاقتراض (من المصارف وغيرها من القنوات التمويلية)، وتقوم بالتوسع غير الرشيد فى أنشطتها مادام يحقق «الربح» ، وبغض النظر عن «العائد الإنمائى». ولا غرو فى ذلك مادام التوسع فى النشاط يتم «بأموال الغير» ، مما يؤدى إلى «تحميل المخاطر» للممولين.

كذلك، فإن تلك «الفئات الرأسمالية» غير منشغلة بقضية الاختراع والتجديد، ناهيك عن التجويد الذى يجعل السلعة قابلة للتصدير والتنافسية فى الأسواق العالمية (باستثناء منتجات محدودة، مثل السجاد والسيراميك). ودعونا نقارن ذلك السلوك بما أنجزه رجال الأعمال المبدعون فى بقاع أخرى عديدة فى العالم. وخير مثال لذلك هو «أكيو موريتا» (Akio Morita)، مؤسس ورئيس

فى أحوال كثيرة، نجد أن العديد من تلك «الفئات الرأسمالية الجديدة» تقوم بالتوسع فى نشاطها بالاعتماد المفرط على الاقتراض (من المصارف وغيرها من القنوات التمويلية)، وتقوم بالتوسع غير الرشيد فى أنشطتها مادام يحقق «الربح»، وبغض النظر عن «العائد الإنمائى». ولا غرو فى ذلك مادام التوسع فى النشاط يتم «بأموال الغير» مما يؤدى إلى «تحميل المخاطر» للممولين

«شركة سونى» (SONY) اليابانية الذى توفى فى أكتوبر ١٩٩٩. فلقد بدأت «شركة سونى» بداية متواضعة للغاية عام ١٩٤٦، بعدد لا يزيد على عشرين موظفاً، وانتهت فى التسعينيات بكونها إمبراطورية كبرى للأعمال، ذات سمعة عالمية ذائعة الصيت.

ولقد اهتم «موريتا» منذ البداية، بالتجديد والاختراع والدقة المتناهية فى تصنيع المنتجات. إذ يشير «موريتا» فى الكتيب التأسيسى لشركة «سونى» إلى انه: «يجب أن تكون الشركة مكانًا مثاليًا للعمل، يحقق السعادة والديناميكية لجميع أفراد فريق العمل، على اختلاف مستويات مهاراتهم ودرجاتهم الوظيفية. وأن يتم التركيز على الأنشطة الجادة وليس لمجرد تحقيق الربح. كما يجب ألا نسعى نحو التوسع فى الحجم والنشاط لمجرد التوسع .. بل يجب أن يواكب كل موجة توسع، أنشطة جديدة «ذات محتوى ابتكارى».

ونتيجة هذه السياسة، أصبحت مصانع «سونى» تنافس أكبر الشركات الدولية الكبرى فى البلدان الغربية الكبرى، التى ترسخت أقدامها فى السوق الدولية منذ عشرات السنين. وهكذا منذ البداية، كان «موريتا» يضع نصب عينيه دائماً كيف يحول منتج «سونى» اليابانى إلى منتج يحمل علامة تجارية له صفة «العالمية»، يخترق الأسواق الدولية «بسرعة الصوت»!

وهكذا يكون «رجال الأعمال» العظام: بعيدى الرؤية، يتحملون المخاطر، ويحققون «العالمية» انطلاقاً من «المحلية». ونتيجة لكل هذه الجهود أصبحت «شركة سونى»، ليست مجرد شركة يابانية، بل شركة من الشركات التى تصنع سمعة اليابان كعملاق اقتصادى على الصعيد العالمى، وتساهم فى دعم ميزان المدفوعات اليابانى. وانطلاقاً من هذه «المعادلة»، يتحقق التوافق الكامل بين ربحية المشروع الخاص، من ناحية، والنفع العمومى للاقتصاد الوطنى والمجتمع فى مجموعه، من ناحية أخرى. ولقد ألحّ الراحل «طلعت حرب» (مؤسس بنك مصر وشركاته)، على تلك العلاقة الوثيقة بين «المنافع العمومية» و«الربحية الخاصة». وكان يؤكد دوماً على أنّ الثروة الفردية إذا لم تتحول فى ذات الوقت إلى ثروة عمومية، فلن ينجح «قطاع الأعمال الخاص» أن ينهض بمهامه فى تحقيق تنمية اقتصادية حقيقية، وتحقيق الرخاء لمجمل أفراد المجتمع.

ولعلّ خير ما ندلل به على ذلك، قول «طلعت حرب» فى حفل الغرفة التجارية بالإسكندرية (مايو ١٩٣٥)، بمناسبة مرور خمسة عشر عاماً على تأسيس بنك مصر: «ليس يهم بنك مصر بالنسبة لطبقات الأمة كلها، وخاصة طائفة التجار، أن يعنى بالمال وحده قدر ما يهمه من أمر الأخلاق وما ينطوى تحت الأخلاق من معانى الشرف واحترام العهود. ونحن نقول اليوم إننا لا نستغل المال حباً فيه، فإننا لسنا من عباده أو ممن يتعلقون بنواصيه. إنما نحن نعرف أن المال قوة فى هذا العالم، وأن المال كما يكون قوة للشر فى أيدى الأشرار، كذلك يكون قوة للخير فى أيدى الأخيار».

[٢]

ويمكن بصفة عامة، رصد نماذج من الأوضاع «ذات الطبيعة الاحتكارية» فى السوق المصرية، على النحو التالى:

١ـ اقتسام السوق بين شركتين رئيسيتين، أو ما يسمى فى علم الاقتصاد بالاحتكار الثنائى(Dupoly) وينطبق ذلك بشكل واضح على سوق التليفون المحمول. إذ تقتسم «سوق التليفون المحمول» شركتان هما «موبينيل» (بنسبة ٥٧٪ من جملة السوق) و«كليك» (بنسبة ٤٣٪ من الحصة السوقية).

٢ـ ظهور «احتكار القلة» (Oligopoly) فى سوق بعض السلع الاستراتيجية مثل: الأسمنت، الحديد، الأغذية والمشروبات. وعلى سبيل المثال، فإن التركيبة الاحتكارية «لسوق الأسمنت» هى على النحو التالى: السويس وطره ٣٠،١٪، حلوان ١٢،٤٪، الأهلية ١١،٢٪، الأميرية ١٠،٧٪، المصرية للأسمنت١١،٩ (وهى عبارة عن تحالف بين مجموعة «أوراسكوم» بنسبة ٥٣،٧٪ من رأس المال وهولدربنك التى تمتلك النسبة الباقية)، وأسيوط ١٤،١٪. وهكذا تسيطر الشركات الست، على نحو ٩٠،٤٪ من جملة «سوق الأسمنت» فى مصر.

كذلك تتعدد مظاهر «احتكارات القلة» فى السوق المصرية. ومثال ذلك تحكم بعض كبار التجار فى التسويق المحلى للخضر والفاكهة تلك التى تصل قيمتها الإجمالية عام ١٩٩٦ إلى نحو ١٦ مليار جنيه. وكذلك تجارة الدواجن التى تبلغ قيمتها السوقية نحو ٣ مليارات جنيه فى السنة، والبيض الذى تبلغ قيمة المتعامل عليه محلياً نحو ٧٠٦ ملايين جنيه سنوياً. كما يتعامل نحو ٤٪ فقط من تجار الجلود فى حوالى ٤٣٪ من القيمة الكلية للجلود فى السوق المصرية. وهناك عدد محدود من المنشآت يتعامل فى نحو ٤٥٪ من القيمة الكلية للجلود المدبوغة فى السوق. (راجع: الأهرام الاقتصادى، العدد الصادر فى ٢٢/١١/٢٠٠١، ص ٤).

٣ـ شيوع حالة المنافسة الاحتكارية، حيث يوجد العديد من البائعين، ولكن يقومون بتمييز منتجاتهم عن طريق العلامات التجارية والدعاية والإعلان، مما يؤدى إلى خلق مزايا احتكارية فى مجال التسعير.

كذلك هناك مخاطر نشوء «أوضاع احتكارية» فى المستقبل، فى بعض قطاعات الخدمات الحيوية مثل: قطاع المستشفيات والعلاج الطبى، قطاع المواصلات، قطاع توزيع الكهرباء، قطاع الاتصالات. وتلك قطاعات حيوية تقوم بتقديم خدمة السلع العامة للمواطنين بغض النظر عن مستويات دخولهم. ونشوء أوضاع احتكارية فى تلك القطاعات يؤدى إلى ممارسة أساليب احتكارية للتسعير، قد لا تتناسب مع «القدرة على الدفع» لمستهلكى الطبقة الوسطى، ناهيك عن عدم قدرة الفئات الشعبية على الاستفادة من تلك الخدمات بالجودة المناسبة والسعر المناسب، فى ظل تلك الأوضاع الاحتكارية.

ولذا، فإنه فى ظل عمليات «الخصخصة» و«عمليات التحرير السعرى» الجارية، هناك مخاطر شديدة تحيط بنشوء «أوضاع احتكارية» فى سوق بعض السلع والخدمات الرئيسية فى الاقتصاد المصرى. ومن المعروف، كما جاء فى الكتب المدرسية، أن «سلوك المحتكر» يؤدى، فى أحوال كثيرة، إلى «تقييد الإنتاج»، من ناحية، وفرض «أسعار احتكارية» فى السوق، أى السيطرة على «الكميات» و«الأسعار» معاً. وقد سبق أن شدد الاقتصادى البولندى البارز «مايكل كاليسكى» (M. Kalecki) على ضرورة التعرف على «درجة الاحتكار» فى فروع النشاط الاقتصادى المختلفة، من خلال دراسة «سياسات التسعير»، ولا سيما من خلال حساب نسبة «هوامش الربح» إلى «التكلفة الأولية» للسلعة أو الخدمة.

وأخيراً، لابد من التنويه بأن «التكنولوجيا السائدة» لبعض فروع الإنتاج والخدمات تتطلب حداً أدنى من الحجم ورأس المال، لكى تتم الاستفادة من «وفورات الحجم» ومزايا الإنتاج الكبير، الأمر الذى يجعل السوق فى تلك الأنشطة تحكمها «منافسة القلة» بالضرورة.

ألحّ الراحل «طلعت حرب» (مؤسس بنك مصر وشركاته)، على تلك العلاقة الوثيقة بين «المنافع العمومية» و«الربحية الخاصة». وكان يؤكد دوماً على أنّ الثروة الفردية إذا لم تتحول فى ذات الوقت إلى ثروة عمومية، فلن ينجح «قطاع الأعمال الخاص» أن ينهض بمهامه فى تحقيق تنمية اقتصادية حقيقية، وتحقيق الرخاء لمجمل أفراد المجتمع

[٣]

وعلى صعيد «المجموعات المالية الكبرى» ذات الطبيعة القابضة، يمكن رصد ما يمكن تسميته «العشرة الكبار» فى هذا المجال. تلك المجموعات التى توسع نشاطها بشكل هائل خلال حقبة التسعينيات، لتشكل «إمبراطوريات» جديدة فى عالم المال والأعمال، وهى:

١ـ مجموعة أنسى ساويرس (وآل ساويرس).
٢ـ مجموعة منصور والمغربى.
٣ـ مجموعة النساجون الشرقيون (محمد فريد خميس وشركاه).
٤ـ مجموعة أحمد عز.
٥ـ مجموعة إبراهيم كامل.
٦ـ مجموعة أحمد بهجت.
٧ـ مجموعة محمد أبو العينين.
٨ـ مجموعة شركات «غبّور».
٩ـ مجموعة طلعت مصطفى.
١٠ـ مجموعة سلام (أوليمبيك).

ويوضح الجدول (١) بياناً بأهم المؤشرات المالية والاقتصادية لتلك «المجموعات القابضة» التى تم نشر ميزانيات وقوائم مالية حديثة لها. ويلاحظ أنه لم يتم نشر قوائم مالية «منفردة» أو «مجمعة» للمجموعات التالية:

ـ مجموعة شركات «إبراهيم كامل».
ـ مجموعة «منصور والمغربى».
ـ مجموعة «أبو العينين».
ـ مجموعة شركات «غبور».

هذا ناهيك عن «مجموعة البليدى»، التى قضت نحبها مؤخراً، رغم أنها كانت من أقدم المجموعات. ولعل السبب فى ذلك هو أنها ذات «طبيعة عائلية مغلقة»، ولا تعقد لها جمعيات عمومية تستدعى نشر القوائم المالية.

ورغم الطابع المختصر لمعظم تلك القوائم، ومحدودية درجة الإفصاح (de-gree of disclosure) التى

جدول (١) بيـــان بأهم المؤشـــرات الماليـــة والاقتصاديـــة لعـــدد مـــن المجموعـــات القابضـــة

المصدر: أحدث القوائم المالية المنشورة

م	اسم الشركة القابضة (المجموعة)	النشاط الرئيسي	تاريخ التأسيس	حجم رأس المال المدفوع: مليون جنيه	حجم رأس المال المدفوع: الرصيد في	نسبة المساهمة العائلية في رأس المال	الشركات التابعة: عدد الشركات	الشركات التابعة: متوسط نسبة مساهمة «الشركة الأم»	حجم الأرباح: مليون جنيه	حجم الأرباح: الرصيد في	إجمالي الالتزامات (مليون جنيه)	نسبة إجمالي الخصوم إلى حقوق الملكية
١	شركة أوراسكوم تيليكوم القابضة	خدمات الاتصالات والتليفون المحمول		٩٠٠	يونيو ٢٠٠٠							(القروض إلى صافي حقوق الملكية) ١:٣,٧ (الديون إلى صافي حقوق الملكية)
٢	شركة أوراسكوم هولدنج للفنادق	فنادق ومنشآت سياحية		٤٥٢,٤	مايو ١٩٩٨		١٩	٪٨٨,٨	٣- (خسائر مرحلة)	ديسمبر ١٩٩٩	٤٩٧,٤	١:١,٠٩
٣	الشركة القابضة للاستثمارات المالية (لكح جروب)	توريد المعدات الطبية والوساطة في مجال الاستثمارات المالية	نوفمبر ١٩٩٨	١٤٤٩,٩	ديسمبر ٢٠٠٠	٪٥٧,٧٠	٨	٪٩٧,٧	٢٩٩- (خسائر مرحلة)	ديسمبر ٢٠٠٠		١:١,٣
٤ ٤/١	مجموعة العز شركة العز لصناعة حديد التسليح	صناعة وتجارة وتوزيع مستلزمات مواد البناء وصناعة الحديد بجميع أنواعه	أبريل ١٩٩٤	٤٣٠	ديسمبر ١٩٩٩		١	٪٩٠,٧				١:٣,٢
٤/٢	شركة العز للسيراميك والبورسلين (الجوهرة)	صناعة وتجارة وتوزيع بلاط السيراميك وبلاط البورسلين	يناير ١٩٩٥	١٨١	ديسمبر ١٩٩٩		١	٪٩٧,٨				١:١,٩
٥	شركة أوليمبيك جروب للاستثمارات المالية (مجموعة السلام)	إنتاج السخانات والمنتجات الهندسية	١٩٩٢ (دمج شركة نيازي سلام واوليمبيك الكتريك)	٣٤٠,٩	ديسمبر ٢٠٠٠		٩	٪٧١,٢	٥٤,٣٥٦	للفترة ١/٤-٣١ ديسمبر ٢٠٠٠	١٨٨,٢	١:٠,٤٩ (التزامات متداولة: حقوق الملكية)
٦	شركة الاسكندرية للاستثمار العقاري (طلعت مصطفى وشركاه)	العمل في كافة مجالات الاستثمار العقاري، وإقامة المجمعات والوحدات السكنية	نوفمبر ١٩٨١ ١٩٨٤	١٩٥	ديسمبر ٢٠٠٠	٪٤٢,٥٧	٣	٪٢٩,٦	٤٤,٢	ديسمبر ٢٠٠٠	٢٤٥	١:١,٠٢
٧	شركة النساجون الشرقيون	صناعة السجاد		١٢٥	ديسمبر ٢٠٠٠		٣	٪٨٥,٣	٪١٢٥,٨	ديسمبر ٢٠٠٠	٤٥٣,٩	١:١,٤
٨	المجموعة المالية المصرية (هيرمس)	القيام بالخدمات والسمسرة المالية بأنواعها		١٢٢,٥	ديسمبر ٢٠٠٠		١٢	٩١,٤	٥٣,٠١	ديسمبر ٢٠٠٠	٣٠٩٤ (الالتزامات المتداولة)	١:١,٤ (الالتزامات المتداولة إلى حقوق المساهمين
٩	شركة الأهرام للمشروبات (مجموعة الزيات)	صناعة وبيع البيرة الكحولية وغير الكحولية والنبيذ والمياه الغازية والمولت والمشروبات الأخرى	تم شراء الشركة القائمة التي تأسست عام ١٩٦١	١٠٢,٤٥	ديسمبر ٢٠٠٠		٣	٪٩٨,٠	١٧٢,٣٩	ديسمبر ٢٠٠٠		١:٠,٤٣ (الالتزامات متداولة إلى حقوق الملكية) (الالتزامات طويلة الاجل تساوي الصفر)
١٠	شركة إنترناشونال إلكترونكس العالمية للإلكترونيات (أحمد بهجت وشركاه)	تصنيع الأجهزة الكهربائية والإلكترونية بكافة أنواعها وصيانتها والإتجار فيها	يناير ١٩٨٥	٥٤	ديسمبر ٢٠٠٠		٦	٪٦٠,٠	٤٩,٣٤٠	ديسمبر ٢٠٠٠	٧٤٨	١:٤,٩ (الالتزامات إلى حقوق المساهمين)

تحـويهـا تلك القـوائـم، فـقـد أمكـن لنا تركـيـب الجـدول (١) ليـشـيـر إلى أهـم السـمـات الاقـتـصـادية والمالـيـة، لتلك المجموعات، وهى:

(١) حجم رأس المال المدفوع.

(٢) نسـبـة المساهمـة العـائليـة (الأبناء والزوجات والأصهار).

(٣) عـدد الـشـركـات التـابعـة، ومتـوسط نسبة المساهمة فى رؤوس أموالها.

(٤) نسـبـة حـقـوق الملكيـة إلى مـجـموع الالتزامات (قروض ودائنون)،

أو ما يسمى فى الكتابات المالية المتخصصة (gearing ratio).

(٥) حجم الأرباح السنوية.

وفى ضوء بيانات هذا الجـدول، يمكن إبداء عدد من المـلاحظات حـول بعض «الخـصـائص البنيوية» لتلك «المجموعات القابضة»:

١ـ أن هناك طبيـعة عائلية غالبة فى هيكل ملكية تلك المجموعات المالية القابضة. وتتراوح تلك الصبـغـة العـائلية من شركات تكاد تكون مـغلقـة بالـكامل (مـجـمـوعـة العـز، الأهرام للمـشـروبات، المجـمـوعـة الماليـة المصـرية هيـرمس)، إلى شركات نشأت نشأة عائلية ثم تم بيع حصـة محـدودة من رأس المـال إلى الجـمـهـور عن طريـق الاكـتـتـاب العـام (مجـموعـة النساجون الشـرقيون، شـركة الإسكندرية للاسـتـثـمـار العـقـارى «طلعـت مصطفى وشركاه).

٢ـ ارتفـاع عدد الشركات التابعة للشركة الأم، التى تصل فى بعض الحـالات إلى ثمانى أو تسع شركات، وتصل نسبة مساهمة «الشركة الأم» فى هذه الشركات إلى نسبة كبيرة تتراوح فى معظم الأحوال بين ٨٩ ـ ٩٨٪ (راجع جدول (١) والملحق الإحـصـائى حـول الشـركـات التابعة).

هنـــــاك مخـاطـــر نشـــوء «أوضـــاع احتكاريـــة» فى المســـتقبل، فى بعض قطاعـــات الخدمـــات الحيويـــة ممـــا يـــؤدى إلى ممـــارســـة أســـاليب احتكاريـــة للتســـعير، قـــد لا تتنـــاســـب مـــع «القـــدرة عـــلى الدفع» لمستهلـــكى الطبقـــة الوســـطى

٣ـ أن عـضـويـة مـجـالس إدارة تلك المجموعـات، يظـل معظمهـا محـصـوراً فى أيدى أعـضـاء «مـجلس العـائلة» من المؤسسين.

٤ـ أن هناك قدراً كبيراً من الشك حول حجم «رأس المال المدفـوع» للشـركـة القـابضـة للاستثمارات المالية (لكح جروب)، حيث يبدو أن هناك مغالاة واضحة فى حجم راس المال مما يؤدى إلى تصـوير نسـبـة إجـمـالى الخصـوم والمديونيـات إلى حقوق الملكية بأقل من حقيقتها.

[٤]

يمكن القول بأن «حقبة التسعينيات» قد شهدت تمثيلاً قوياً لرجال الأعمال فى الجهاز المصرفى، سواء كمشترين لحصص رئيسية من أسـهم البنوك المطروحـة للخـصـخـصـة، أو كأعضاء فى مجالس إدارات البنوك المنشأة وفقاً لقانون الاستثمار. ولعل أبرز الأمثلة فى هذا الصدد:

(١) بنك مصر إكستيريور: حيث يظهر أنسى ساويرس (الأب) كعضو مجلس إدارة، كما يظهر محمد الجارحى ـ أحد رجال الأعمال «المتعثرين مالياً» ـ كمساهم رئيسى فى رأس مال البنك.

(٢) بنك مصر العربى الأفريقى: (مجموعة منصـور ـ المغـربى)، وتحديداً: محـمـد لطفى منصور، ياسين إبراهيم لطفى منصور، أحمد أمين المغربى ومحمد عاكف أمين المغربى.

(٣) البنك الوطنى المصرى: عـبـد المنعم سعودى وصفوان أحمد ثابت.

ومن ناحية أخرى، يتواجد معظم رؤساء تلك المجموعات المالية الكبرى كأعضاء فى مجلس إدارة المركز المصرى للدراسات الاقتصادية. وقد تأسس هذا المركز فى عام ١٩٩٢، بمبادرة من القطاع الخاص «لتدعيم ومساندة الإصلاح الاقتصادى، عن طريق القيام ببحوث تطبيقية ونشرها وتقديم المشورة والعون للقائمين على صنع السياسة الاقتصادية»، وذلك حسبما جاء فى ديباجة نشراته.

وتضم عـضـويـة مـجلس إدارة المركـز شخصيات من كبار رجال الأعمال:

ـ جلال الزربة، رئيس مجلس إدارة شركة النيل للملابس الجاهزة (نائب رئيس مجلس إدارة المركز).

ـ محـمـد لطفى منصـور، رئيس مجلس الإدارة والعـضـو المنتـدب لشـركـة مـانتـراك، ورئيس مـجلس إدارة مجـمـوعـة «منصـور موتورز» (الأمين العام للمركز).

ـ إبراهيم كـامل، رئيس مـجلس إدارة «شركة كاتو أروماتيك».

ـ أحـمـد بهـجت، رئيس مـجلس إدارة «مجموعة شركات بهجت».

ـ أحمد عز، رئيس مجلس إدارة «مجموعة العز».

ـ أحـمـد المغـربى، رئيس مـجلس إدارة «شركة أكور» للفنادق.

ـ رشيد محـمد رشيد، رئيس مجلس إدارة شركة فاين فودز جروب.

ـ شـفـيق بغـدادى، رئيس مـجلس إدارة شركة فريش للمواد الغذائية.

ـ محمد شتا، رئيس مجلس إدارة المجموعة الدولية للاستثمار.

ـ محمد شفيق جبر، رئيس مجلس إدارة مجموعة أرتوك.

ـ محـمـد فريـد خـمـيس، رئيس مـجلس إدارة مـجـمـوعـة شـركـات «النسـاجـون الشرقيون».

ـ معتز الألفى، العضو المنتدب ـ الشركة الكويتية للأغذية (أمريكانا).

ـ محمد تيمور، العضو المنتدب ـ المجموعة المالية المصرية (هيرميس).

ـ منير عبد النور، رئيس مجلس

الإدارة والعضو المنتدب - شركة فيتراك للصناعات الغذائية.

والذى يلفت النظر بهذا الصدد، هو أن هذا المركز «المصرى» يتم تمويل أنشطته، بصفة أساسية، بواسطة أموال «هيئة المعونة الأمريكية»، و«مديره التنفيذى» هو أحد خبراء البنك الدولى القادمين من الخارج. ولعل هذه الأوضاع المؤسسية تؤثر (من حيث التمويل) على «الرؤية المستقلة» لمجتمع كبار رجال الأعمال، ومنهج المعالجة لقضايا التنمية والتطور الاقتصادى فى مصر. ولعل تلك «الصيغة» تعتبر صيغة فريدة من نوعها لمراكز «البحث والفكر» التى ينشئها رجال الأعمال فى بلدان العالم النامى.

ولاشك أن الوضع أفضل فى اتحاد الصناعات، والغرف التجارية، من حيث الاستقلالية والمرجعية الفكرية.

على صعيد «المجموعات المالية الكبرى» ذات الطبيعة القابضة، يمكن رصد ما يمكن تسميته «العشرة الكبار» فى هذا المجال. تلك المجموعات التى توسع نشاطها بشكل هائل خلال حقبة التسعينيات، لتشكل «إمبراطوريات» جديدة فى عالم المال والأعمال

[٥]

وحول الدور السياسى والمسئولية الاجتماعية لرجال الأعمال يشير الزعيم «سعد زغلول» فى مذكراته الخاصة إلى العلاقة بين التجارة والحياة السياسية. إذ يقول «سعد زغلول» فى مذكراته: «التجار لا يشتغلون بالأمور العمومية إلا بمقدار ما تروج به بضاعتهم عند العامة. لا يهمهم بعد ذلك «شكل الحكومة» إن كانت مقيدة أو مطلقة»!

وهذه الأقوال لسعد زغلول - زعيم الأمة فى مطلع العشرينيات من هذا القرن - لها أهميتها، من حيث إنها تطرح العلاقة بين «التجار» و«أرباب السوق» عموماً وقضية الديمقراطية فى مصر. وهل هناك مصلحة حقيقية وأصيلة لرجال الأعمال و«أرباب السوق» فى النظام الديمقراطى، وتعاظم دور قنوات التعبير عن الرأى العمومى؟! إذ إنه وفى ظل انتشار العديد من «الممارسات الفاسدة»، التى نشهدها من حولنا فى عالم الأعمال والمال الجديد، تصبح الرغبة فى الحفاظ على الأشكال والمؤسسات الديمقراطية وحرية الرأى رغبة واهنة إن لم تكن معدومة.

وضمن هذا السياق، لابد أن نطرح السؤال المهم التالى: هل يقوم رجال الأعمال بمسئوليتهم الاجتماعية فى مصر؟ وهل يتم ذلك من تلقاء أنفسهم أم تحت ضغوط معينة؟ وما هو الهدف الحقيقى من تبرعات ومساهمات رجال الأعمال الاجتماعية؟ هل هى الرغبة فى تدعيم النفوذ والفوز فى الانتخابات البرلمانية أو رئاسة وعضوية الجماعات والمنتديات الاقتصادية التى أصبحت تمثل كيانات ذات تأثير قوى فى صنع القرار؟

تلك التساؤلات كانت محور دراسة استطلاعية أجراها مركز البحوث والدراسات الاقتصادية والمالية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة مؤخراً، حول المسئولية الاجتماعية لرجال الأعمال. وبلغ مجموع العينة التى تناولتها الدراسة ٦٤ رجل أعمال.

وعن أهم الإسهامات الاجتماعية لرجال الأعمال فى مصر، فقد جاءت بالترتيب التالى، وفق نتائج الاستطلاع المذكور: ١٤٪ لتوفير فرص عمل للشباب، ١٣٪ لسداد مصروفات الطلاب غير القادرين، ١٠٪ لتقديم مساعدات للفقراء، ٨٪ لدعم المشروعات الصغيرة، ٨٪ لإنشاء وتطوير المدارس، ٧٪ لتوفير الرعاية الصحية للمحتاجين، ٦٪ لتوفير الملابس للطلاب، ٦٪ لتطوير الخدمات الطبية، ٥٪ لشراء الكتب المدرسية.

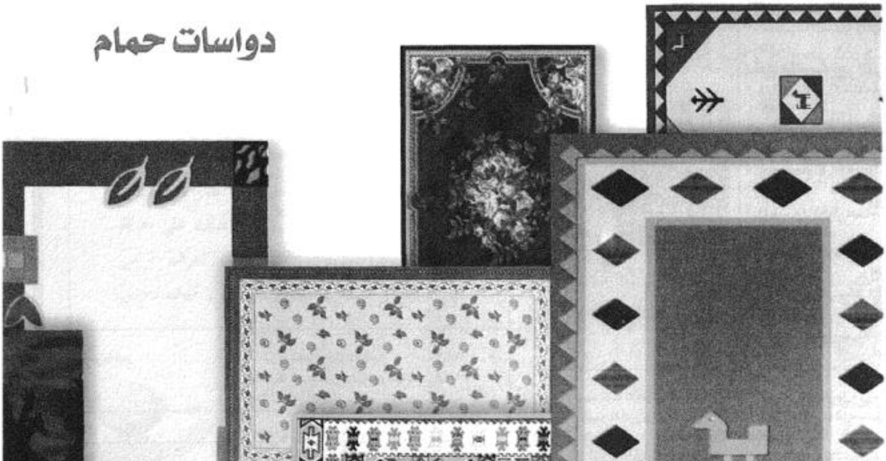
وحول المقصود بجمعيات رجال الأعمال، أكد ٦٢٪ من رجال العينة أنها «تجمع لرجال الأعمال» لتبادل الآراء وخدمة مصالحهم، و١٠٪ يرون أنها «كيان اجتماعى»، و٣٪ أنها قامت بهدف التنسيق مع «أجهزة صنع القرار». ويؤكد ٢٥٪ من رجال الأعمال أن الهدف من هذه الجمعيات التعرف على مجموعة أخرى من نظرائهم، و٢٠٪ يرون أن الهدف هو «تحقيق الربح» للمشاركين فيها، و١٦٪ يشيرون إلى أن الهدف اجتماعى، و١٠٪ يؤكدون أنها «جماعات ضغط لتحقيق مصالحهم».

ولعل ما جاء فى مقال حديث للدكتور إبراهيم شحاتة يؤكد قصور جانب «المسئولية الاجتماعية» فى مجمل نشاط كبار رجال الأعمال فى مصر. إذ يشير إلى أنه من المفترض: «أن مهمة القطاع الخاص لا تقتصر على تحقيق أكبر قدر من الربح، وإنما تشمل أيضاً الإسهام بجزء من هذا الربح فى تقديم الخدمات الاجتماعية أو لتحقيق قدر أكبر من الرفاهية للمجتمع». ويستطرد: «هذه المسئولية الاجتماعية هى إحدى السمات الرئيسية للرأسمالية المستنيرة، بالمقارنة برأسمالية من يغتنمون فرص النهب السريع ويتبعونها بتهريب أموالهم إلى الخارج (رأسمالية النصابين) أو برأسمالية الذين يتكسبون من وراء فرص تتيحها لهم قرابة أو صداقة فى دوائر الحكم (رأسمالية المحاسيب) وكلاهما من شأنه - بعد فترة تطول أو تقصر - انهيار الاقتصاد الحر والمزيد من التوتر الاجتماعى. والثروة كسماد الأرض، إذا انتشرت تفيد الجميع، وإذا تمركزت على بقعة معينة أفسدتها» (راجع: الأهرام، ١٧ أبريل ٢٠٠١، ص١٠).

ملحق
بيان بالشركات التابعة للمجموعات القابضة محل الدراسة ونسبة المساهمة فيها

المصدر: أحدث القوائم المالية المنشورة

م	اسم الشركة القابضة (المجموعة)	الشركات التابعة: اسم الشركة	الشركات التابعة: %
١	شركة أوراسكوم هولدنج للفنادق	١ . شركة مقبلا للفنادق	٩٩,٩٩٪
		٢ . شركة الخمسة للفنادق والمنشآت السياحية	٩٩,٩٧٪
		٣ . شركة الشبة للفنادق والمنشآت السياحية	٩٩,٩٪
		٤ . شركة أوراسكوم للإسكان	٩٩,٩٪
		٥ . شركة شدوان للفنادق (النور سابقًا)	٩٩,٩٪
		٦ . شركة مارينا (١) للفنادق والمنشآت السياحية	٩٩,٩٪
		٧ . شركة الجولف للفنادق والمنشآت السياحية	٩٩,٩٪
		٨ . شركة مارينا (٢) للفنادق والمنشآت السياحية	٩٩,٩٪
		٩ . شركة مارينا (٣) للفنادق والمنشآت السياحية	٩٩,٩٪
		١٠ . شركة باراديسيو للفنادق والمنشآت السياحية	٩٠,٠٪
		١١ . شركة الدوار للفنادق	٩٩,٩٪
		١٢ . شركة الجونة	٨٧,٠٪
		١٣ . شركة الميزة للفنادق	٩٩,٩٪
		١٤ . شركة ميد طابا	١٠٠,٠٪
		١٥ . شركة ريحانة للفنادق	٥٩,٩٪
		١٦ . شركة الجونة للفنادق	٧٦,٠٪
		١٧ . شركة طويلة للفنادق	٦١,٤٪
		١٨ . شركة الجونة للنقل السياحي	٥١,٠٪
		١٩ . شركة أكاسيا للفنادق	٦٢,٩٪
٢	الشركة القابضة للاستثمارات المالية (لكح جروب)	١ . شركة تريدنج ميديكان سيستم إيجبت	٩٧,٦٪
		٢ . شركة ميديكيب للتجارة والمقاولات	٩٧,٨٪
		٣ . شركة إميتريد للتجارة والمقاولات	٩٧,٠٪
		٤ . شركة الاستثمارات الصناعية	٩٨,٠٪
		٥ . شركة المصنع العربي للحديد	٩٧,٩٪
		٦ . شركة الصناعات الاستهلاكية	٩٨,٠٪
		٧ . شركة كويست كونسالت التجارية	٩٧,٥٪
		٨ . شركة إدك المراكز الطبية	٩٨,٠٪
٣	مجموعة العز	١ . شركة مصانع العز للصلب	٩٠,٧٪
		٢ . شركة العز للسيراميك (الجوهرة)	٩٧,٨٪
٤	شركة أوليمبيك جروب للاستثمارات المالية (مجموعة السلام)	١ . شركة القاهرة للصناعات الدقيقة	٨٩,٠٪
		٢ . شركة القاهرة للصناعات المتطورة	٩٠,٠٪
		٣ . الشركة الأولى للتجارة والتسويق . أوتو	٩٠,٠٪
		٤ . شركة المنتجات الهندسية والتوكيلات	٩٢,٠٪
		٥ . شركة أوليمبيك إستورز للتجارة والتوزيع	٩٠,٠٪
		٦ . شركة الدلتا الصناعية . إيديال	٧١,٨٪
		٧ . الشركة الدولية للصناعات المتطورة	٥١,٠٪
		٨ . شركة القاهرة للصناعات الخفيفة	٣,٥٪
		٩ . شركة القاهرة للصناعات الهندسية الحديثة	٦٤,٩٪
٥	شركة الإسكندرية للاستثمار العقاري (طلعت مصطفى وشركاه)	١ . شركة نوفوبارك القاهرة	٤٦,٩٪
		٢ . الشركة العربية للمشروعات والتطوير العمراني	١٠٠,٠٪
		٣ . شركة الإسكندرية للمشروعات العمرانية	٣٢,٠٪
٦	شركة النساجون الشرقيون (محمد فريد خميس)	١ . شركة الياف النساجون الشرقيون	٩٩,٠٪
		٢ . شركة النساجون الشرقيون إنترناشونال	٩٤,٠٪
		٣ . شركة النساجون الشرقيون بالولايات المتحدة	٦٣,٠٪
٧	المجموعة المالية المصرية (هيرمس)	١ . المجموعة المالية للسمسرة في أوراق مالية	٩٩,٨٪
		٢ . المجموعة المصرية لإدارة صناديق الاستثمار	٧٤,٨٪
		٣ . المجموعة المصرية لإدارة المحافظ المالية	٦٦,٠٪
		٤ . هيرمس للوساطة في الأوراق المالية	٩٧,٧٪
		٥ . لإدارة صناديق الاستثمار هيرمس (HFM)	٩٠,٠٪
		٦ . Hermes Corporate Finance Co.	١٠٠٪
		٧ . EFG Hermes Advisory Inc	١٠٠٪
		٨ . Hermes Financial Management ltd	١٠٠٪
		٩ . المجموعة المالية . هيرمس لترويج وتغطية الاكتتاب	٩٩,٧٪
		١٠ . المجموعة المالية هيرمس لتداول السندات	٩٩,٠٪
		١١ . إي إف جي هيرمس للخدمات الإلكترونية	٩٩,٠٪
		١٢ . إي إف جي هيرمس للإدارة	٩٦,٣٪
٨	شركة الأهرام للمشروبات (مجموعة الزيات)	١ . شركة ريتش للتجارة والتسويق	٩٨٪
		٢ . شركة الأهرام للتصنيع وتعبئة المشروبات	٩٨٪
		٣ . شركة النيل للمشروبات	٩٨٪
٩	شركة إنترناشونال إلكترونكس العالمية للإلكترونيات (أحمد بهجت وشركاه)	١ . الشركة العالمية للأجهزة الكهربائية	٦٠,٠٪
		٢ . شركة جولدي للتجارة والتوزيع	٩٩,٠٪
		٣ . شركة جولدي للصيانة	٩٩,٠٪
		٤ . شركة جت للإلكترونيات والتجارة	٩٩,٠٪
		٥ . الشركة المصرية لصناعة البلاستيك	٨٠,٠٪
		٦ . الشركة المصرية لصناعة اللوحات الإلكترونية المطبوعة	٨٠,٠٪



ماك

بواقى التصدير والرواكد

مراكز البيع:

مصر الجديدة: ١٢ ش محمد المهدى ـ نبيل الوقاد أرض الجولف ت: ٤١٤٧١١٣
مدينة نصر: أرض المعارض بوابة (٩) شارع الفنجرى ت: ٤٠١٦٢٣٠
الزيتون: ١٣ ش عين شمس ـ ميدان حلمية الزيتون ت: ٢٤١١٣٤٧
عين شمس: ش أحمد عرابى من أحمد عصمت أمام مزرعة الزهراء للخيول ت: ٢٩٦٦٥٦٤
الشرابية: شارع الآلايلى ت: ٢٣١٤٣٤٦
المرج: ش ترعة السلطوحية عمارة سعيد شاهين
الحرفيين: ميدان الحرفيين عمارة الربيع ت: ٢٨١٧٨٨٠
شبرا: ٦٤ ش روض الفرج ـ دوران شبرا ت: ٤٣٢٦٨١٠
ناهيا: ٦٢ ش ناهيا بولاق الدكرور ت: ٣٢٧٢١٨٧
الزاوية الحمراء: ٦ شارع منشية الجمل عمارة العمدة أمام مصنع العلف
العمرانية: ٢ ش عبدالرحمن مطر ت: ٥٦٤٠٨٦٢
إمبابة: ٦٣ ش الوحدة ت: ٣١٠٧٧٢٦
الهرم: ٤٥٦ أول ش الملك فيصل ت: ٥٧٢١١١٨
مصر القديمة: ٦ ش أثر النبى ت: ٥٣٤٠٩٨٧
المعادى: ٢ طريق مصر حلوان الزراعى محطة المطبعة ت: ٥٢٤٦١٦٥
حدائق القبة: ١٤٥ ش مصر والسودان ـ محطة الجراج ت: ٠١٠/١٤٥٥١٠٧
القلعة: ١ ش سوق السلاح ت: ٠١٢/٣٤٣١٠٦٥
القناطر الخيرية: ٢٥ ش البقلى متفرع من ش ١٤
شبين القناطر: ٩ ش الدلتا
دكرنس: ش مجلس المدينة عمارة م التميمى
العاشر من رمضان: دوار العاشر ـ طريق الإسماعيلية
الفيوم: ش ٢٦ يولية عدلى يكن سابقا ت: ٠٨٤/٣٤٤٢٢٢
دمنهور: ١٢ ش الشيخ عبدالكريم ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٦
ميت غمر: ١ ش بورسعيد
سوهاج: ٢١ ش النهضة بجوار عمر أفندى ت: ٠٩٣/٣٢٢٨٩٠
حلوان: ٢٧ ش أحمد بدوى من رايل ت: ٥٥٥٩٨٨٧
المنزلة: شارع عبدالمنعم رياض عمارة الدكتور الخريبى
فيصل التعاون: ٣٥٧ شارع الملك فيصل ـ محطة التعاون ـ الهرم ت: ٣٨٣٢٠٢٦
بلقاس: ش طريق الحرية ـ خلف المحكمة
العاشر من رمضان: الحى الأول ت: ٣٦١٢٢٤
العاشر من رمضان: المجاورة ٩ ت: ٣٦٦٧٧٨
مكرم عبيد: ٣٥ شارع أبو داود الظاهرى ـ مكرم عبيد ت: ٢٨٧٢٦٣١
الأقصر: ش مدرسة الصنايع ـ السوق التجارى ت: ٣٧٢٠٨٣

العباسية: ١٥ ش العباسية ـ ميدان الجيش ت: ٥٨٩٣٨٥٠
بهتيم: ٣٢٩ ش ١٥ مايو أمام حى شبرا الخيمة ت: ٢٢٠٨٥٥٥
بنها: ش الكوبرى ت: ٢٢٣٩٧٠
السويس: ٦٦ شارع الجيش ت: ٢٢٨٧٨٠
المحلة الكبرى: ش شكرى القوتلى من ش الجيش
طنطا: ٨٧ ش سعد الدين من ش النحاس ت: ٤٠٨٢٧٤
المنصورة: ش الجمهورية أمام كلية العلوم ت: ٣٧٢٦٤٧٤
كفر الشيخ: ٤ ش الشهيد محمد الدمرداش الشيتانى ت: ٢٢٣٠٨٥
الإسكندرية: ٥٠ ش مصطفى كامل أمام كلية التربية الرياضية ـ فلمنج ت: ٥٨٠٤٧٩٧
رمادا: برج رمادا بالإسكندرية ت: ٥٤٨٢٩٣٩
صفط اللبن: سنتر الصاوى ـ شارع التحرير
بنى سويف: ٥ ، ٦ ش أرض المحلج ت: ٣١٥٤١٦
قنا: ش كوبرى دندرة عمارة أحمد عامر ت: ٣٢٣٦٤٨
قنا الجديدة: ش جودى متفرع من ش الأقصر سوق ليبيا أمام البوستة الجديدة.
الزقازيق: ش المديرية عمارة العقدين الكبيرة المنتزة ت: ٣٢٢٣٢٩
أسوان: هيميمى الجبلاوى متفرع من شارع قاضى الجداوى
الإسماعيلية: ٧٦ شارع السكة الحديد ت: ٢٢ ٥٧٦٥
شبين الكوم: ٢ شارع صلاح الدين أبو الخير من شارع الجلاء البحرى
أسيوط: ١٣ ش المدينة المنورة الزهراء
دمياط: ش جنينة سرور أمام الفرن الآلى ت: ٣٢٨٠١٣
كفر الدوار: ١ ش أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٤٣٦٠٧
أبو حماد: ٢٠ ش التحرير برج العزازى
السنبلاوين: ٦ الجيش المصرى ت: ٠٥٠/٦٩٨٥٧٧
كوم حمادة: ش مستشفى المواساة خلف مجلس المدينة
المنيا: ٢١ ش الجمهورية ت: ٠٨٦/٢٥٣٦١٦
كفر الزيات: ش الجيش أمام نادى المعلمين
العريش: ش ٢٣ يولية أمام بنك القاهرة ت: ٠١٨/٣٣١١٠٩
فاقوس: ش الساحة عمارة المثيم ـ خلف المحكمة
دسوق: ش الجيش ـ أمام عمر أفندى
بورسعيد: ش الأمين وشارع ١٠٠ (باتا) سابقا ت: ٢٢٧٦٩٣
منوف: ٨ ش ترعة الحشاشة ـ طريق التأمين الصحى ت: ٦٦٠٠٧٣
بنى سويف الجديدة: ٣٦ شارع أحمد عرابى ت: ٠١٢/٢٨٣٧٢٨
دار السلام: شارع الفيوم أمام مجمع المدارس

ماك على الإنترنت www.maccarpet.com



العمارة فى مصر

من العشوائية إلى ما بعد الحداثة .. والعكس

عز الدين نجيب

قيل عن العمارة أنها أم الفنون، وهذا حق، أو لنقل أنها بيت العائلة الكبير الذى يجتمع فيه الأبناء والأحفاد من الفنون الحضارية المتصلة / المنفصلة: مثل النحت والتصوير والتصميمات الزخرفية.

والعمارة هى الوعاء العمرانى الذى يشكل ملامح المجتمع ويتشكل بها، فتصبح صورة شخصية له تعكس سلوكيات أفراده.

والعمارة هى أكثر الفنون ارتباطًا بالقيم والمعانى المطلقة للحياة والكون وانعكاسا لها، منذ أن كانت تعبيرًا كليًا محسوسًا عن العقائد والحاجات الروحية، وترجمة للإدراك الفلسفى للوجود والخلود فى الحضارات القديمة، حتى أصبحت جسرًا للتواصل الروحى بين العابد والإله الأوحد، أو مجمعًا ديمقراطيًا للجماعة الإنسانية فى شئونها الحيوية التى تشكل مصيرها، مثلما كانت ميادين أثينا وروما القديمتين.

وبالرغم من تجسيدها للقيم المجردة، فإن العمارة لاتقوم على التجريد، بل تنتهى إليه، ذلك أنها فى الأساس فن نفعى يؤدى وظيفة عملية حتى لو كانت معبدًا أو كنيسة أو مسجدًا، وأنها أيضًا الأكثر التصاقًا بالإنسان فى حياته اليومية، بدءًا من مسكنه ومتجره ومشغله، وصولاً إلى المشهد الخارجى الذى تلتقى به عيناه أينما توجه، حتى يشكل مجاله البصرى وذاكرته الحية التى ترتبط بالوجدان والمعانى السامية، وبهذا تنتهى إلى أن تكون قيمة مجردة، بمعنى أن تصبح رمزًا لشخصية المكان والزمان، وللإنسان الذى عاش فيها، ودالّة على الهوية الثقافية للمجتمع.

هكذا كانت العمارة فى مصر على امتداد التاريخ، فوق ما تميزت به من انفتاح وتفاعل مع العالم الخارجى، تأخذ منه وتعطيه، وتتأثر به لكنها تهضم عناصره المستعارة داخل شخصيتها القوية وبيئتها الحضارية، وخاصة أن الموقع الجغرافى لمصر جعلها ملتقى للقارات والحضارات، وبوتقة صهر للثقافات.. حتى عندما حلم الخديوى إسماعيل بأن يجعل من القاهرة قطعة من أوروبا وأعاد تخطيط شوارعها لتكون نسخة من باريس ونقل إليها أنماط العمارة الأوروبية وفنونها فى أواخر القرن التاسع عشر، استوعبت مصر هذه النقلة ومصرت أنماطها المعمارية، فصارت قطعة من الذاكرة المصرية الحية وليس من الذاكرة الأوروبية، وقد تعايشت مع الإنسان فى غدوه ورواحه عبر ذائقة فنية تقبل التطور وتنفتح على العصر.

... واليوم، بعد أكثر من قرن على «نقلة الخديوى»، ماذا حدث للعمارة فى مصر؟.. لقد شهد القرن الماضى فى تاريخنا العديد من النقلات، سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا وتكنولوجيًا، وتغير من خلالها شكل الحياة ومضمونها.. سقطت أشياء ودخلت أشياء، امتزت أشياء واختلطت أشياء، وأيًا ما كانت النتائج فإن الخلاصة هى غياب القيمة العليا للعمارة كرمز لشخصيتنا ودالّة على هويتنا الثقافية.

لنلق نظرة خاطفة على المشهد العام للشارع المصرى، حتى نتبين ما آل إليه حال العمارة قديمها وحديثها، مستعينين بأسلوب التقطيع السينمائى للقطات والمشاهد المتتابعة.

مشهد (١)

العمائر الإسلامية والقبطية فى القاهرة التاريخية بين أحياء الأزهر والجمالية والغورية والقلعة ومصر القديمة، وقد حوصرت حتى الاختناق بالمبانى العشوائية من كل شكل ولون، وبزحام المرور وفوضى وسائل النقل، وبتشوهات الحفر والردم والمستنقعات وطفح المجارى والمياه الجوفية، وبمخلفات العمليات العشوائية الناقصة والمتعارضة لمشروعات الكهرباء والغاز والتليفونات، وبتلال القمامة والأنقاض، أما العمائر الأثرية ذاتها: فهى إما مريضة بآلام المفاصل والتصدعات أو غارقة فى برك المياه الجوفية، أو مصلوبة من أيام زلزال ١٩٩٢...



هكذا تحولت طرز العمارة العريقة وواجهاتها إلى صورة للقبح والفوضى

مشهد (٢)

شوارع وميادين وسط القاهرة بمنطقة العتبة وطلعت حرب وميدان التحرير.. العمائر الكلاسيكية ذات الطابع الأوروبى الباروكى أو العربى أو الأندلسى من أوائل القرن العشرين، تتشوه واجهاتها بأقبح اللافتات التجارية والإعلانات الاستفزازية، بل بالدهانات العشوائية لكل شقة بلون مختلف حسب هوى كل مستاجر، بل تتغير بنيتها المعمارية بإضافات ليست من نسيجها أو فى قدرة احتمالها، ناهيك عما يزال منها غيلة لتحل محله عمارات عصرية مهجنة أو جراجات متعددة الطوابق أو مراكز تجارية شاهقة الارتفاع باضعاف عرض الشارع.

مشهد (٣)

منطقة مصر الجديدة التى أسسها البلجيكى البارون امبان أوائل القرن الماضى على الطراز الإسلامى المتطور والمنغم بإيقاعات الأعمدة والبواكى التى تظلل المشاة، والمزين بالشرفات والزخارف العربية، والمشيد بمواصفات قياسية تشبع حاجة قاطنيه إلى الهواء والشمس والخضرة والأمان لسير المركبات والمشاة، إضافة إلى الفراغات المحسوبة بعناية للاستمتاع بالمشهد العام.. والآن تجتاحها المبانى الحديثة فاقدة الهوية، وتبتلع حدائقها المحلات التجارية، كما تبتلع أرصفتها بضائع الباعة الجائلين، ويختنق المشهد الحضارى العريق بهجين الأنساق ومظاهر الفوضى، فاختفى طابعه المتفرد الدال على الهوية، لينضم إلى موكب العشوائية!

مشهد (٤)

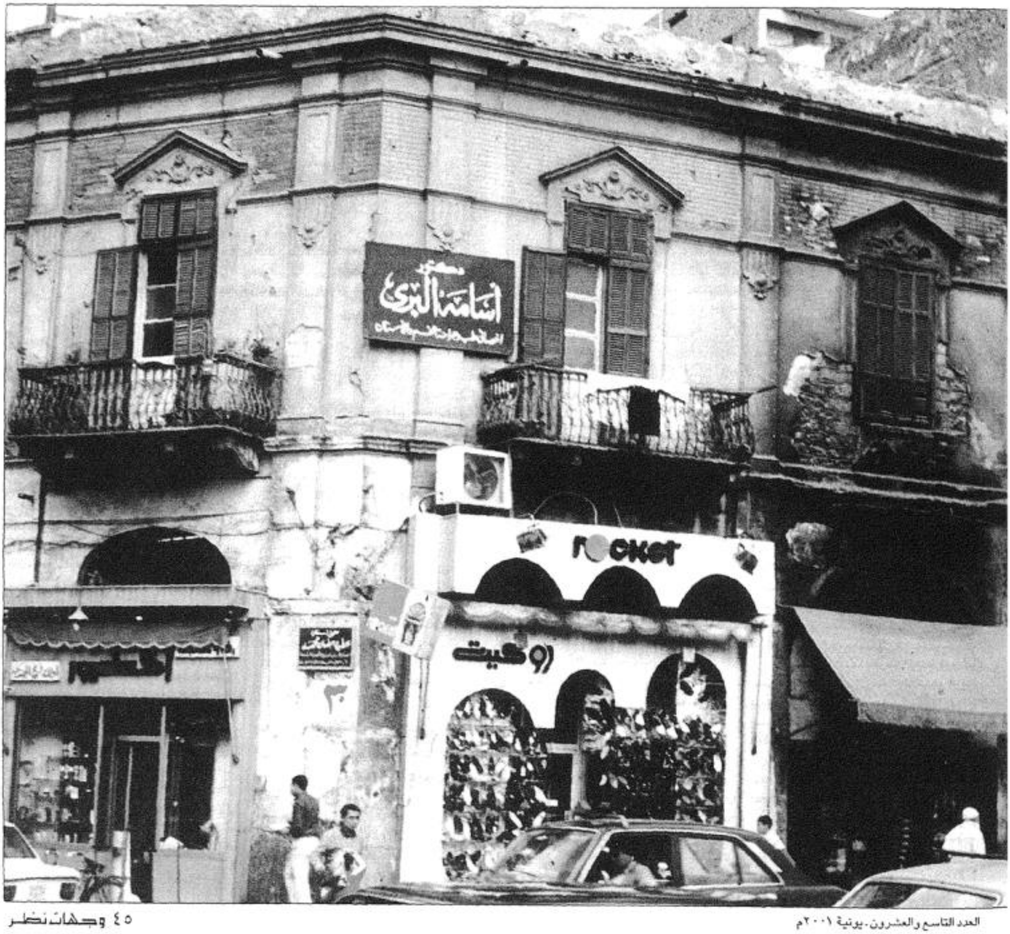
كورنيش النيل عند مدخل حى المعادى، وقد انتصبت على امتداده أبراج خرسانية عملاقة كثيبة الهيئة كأنها خوازيق تطعن الفضاء وتحجب الشمس والهواء ومنظر النيل عن سكان المناطق الخلفية، وتكرس نمطًا معماريًا دوليًا غريبًا على هويتنا ودخيلاً على نيلنا، ولعله التطبيق العملى لزحف العولمة فى مجال العمارة، لتصبح خادمة لرأس المال التجارى وللشرائح الطبقية العليا على حساب الطبقات العريضة، فوق ما تفرضه العولمة من أنماط ثقافية جاهزة تسعى إلى توحيد الذوق العام مع النظام العالمى أحادى التوجه.

مشهد (٥)

الأحياء الجديدة الممتدة للقاهرة كمدينة نصر والمهندسين، ولن تختلف الصورة فيها كثيرًا عن أبراج كورنيش المعادى، مع خليط من التصميمات المنقولة من كتالوجات أجنبية، وقد كسيت بأقنعة الزخرفة المتبرجة الغليظة، بلا تحكم فى خط ارتفاع المبانى أو فى بروزاتها الخارجية، ولا تكتفى بذلك، بل هى تمد ألسنتها وأنيابها فتلتهم أرصفة المشاة لتضمها إلى محالها التجارية، دون أن تضع وجود البشر فى حساباتها إلا كزبائن لتلك المحلات، ناهيك عن عدم الاعتراف بوجودهم كسكان ذوى حقوق فى هذه الشوارع، وعن انعدام التناسق الجمالى بين أنماطها المعمارية، لأنها أساسًا لم تشيد من أجلهم، بل من أجل فئات وشرائح الطبقات الجديدة التى نشأت مع عصر الانفتاح والاقتصاد الطفيلى وعبرت عن ذوقها.

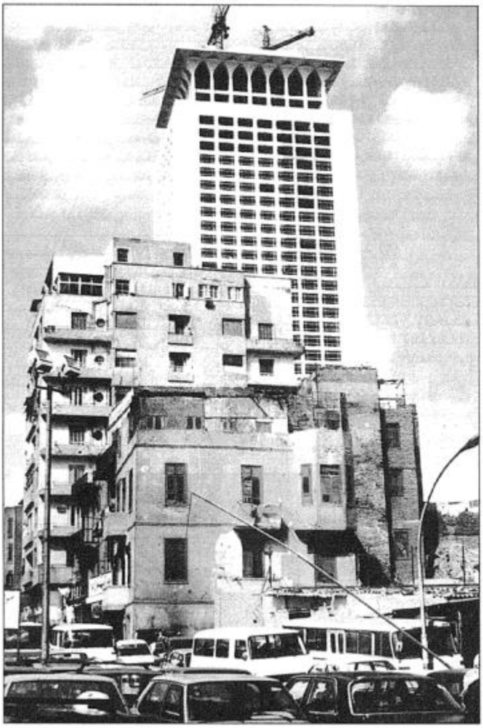
مشهد (٦)

الأحياء الوطنية والشعبية القديمة بمناطق القاهرة، مثل السيدة زينب والحلمية وعابدين والزيتون، وقد امتدت إليها عدوى الهوس بالعمارة الحديثة لكن بأسلوب أكثر فجاجة وتنافرًا ليعكس أذواق محدثى النعمة من غاسلى الأموال المشبوهة، ونراها كل يوم وهى





تعلية العمارات بغير طرازها وفوضى الدهانات فى شرفاتها



مبنى وزارة الخارجية على كورنيش النيل محاصر بالفوضى والدمامة المعمارية واختناق المرور

تحل محل فيلات وعمائر ذات طابع جمالى أصيل يتم هدمها بليل بتصريحات مريبة بالإزالة، وتزداد تلك المناطق اكتظاظًا فوق اكتظاظها السكانى، لتتخذ طابعًا عشوائيًا يلتحم بالعشوائيات العمرانية الناشئة على جسد تلك الأحياء، بكل ما تحمله من تلوث بصرى وحضارى.

مـــشـــهـــد (٧)

القرى السياحية والقصور والفيللات الجديدة المتناثرة على شواطئ مصر المختلفة وطرقها السريعة، وقد استعار الكثير منها الشكل الظاهرى لحلول فيلسوف العمارة حسن فتحى دون محتواها، فأفرغت أفكاره من مضمونها الاجتماعى والثقافى والاقتصادى الذى يستهدف فى الأساس خدمة الفقراء واستغلال خامات البيئة وتعاون الأهالى فى تشييد بيوتهم بأنفسهم، والاستغناء قدر المستطاع عن وسائل التهوية والتدفئة الصناعية باستلهام الحلول التقليدية المتوارثة، كل ذلك بجانب تحقيق الهوية الثقافية المستمدة من موروثنا الشعبى والحضارى.. فإذا بالقضية كلها تنقلب رأسًا على عقب، ليصبح المظهر الخارجى لعمارة حسن فتحى حلية يتحلى بها الأغنياء والسياح، وقد أعطت ظهرها لخامات البيئة الطبيعية واعتمدت على الخرسانة وعلى وسائل التبريد والتدفئة الصناعية، فيما تبنى المساكن الاقتصادية للشباب والفئات الشعبية كعلب سردين قبيحة الشكل تبدو سجونًا خانقة للأنفاس والأرواح.

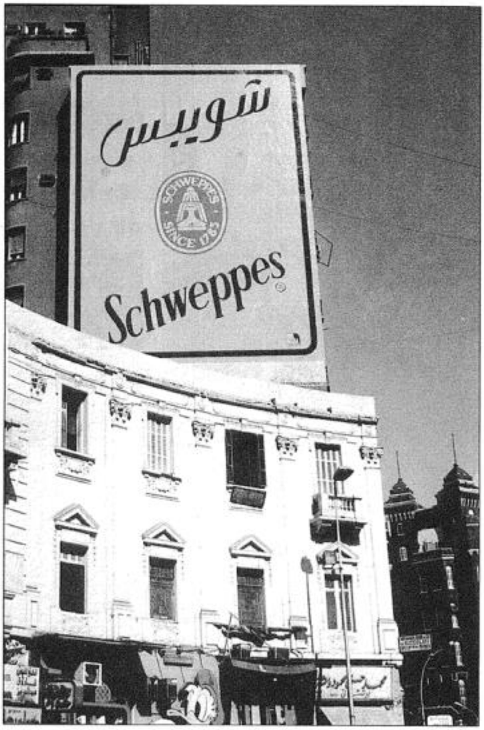
ضـمـيـر المعـمـاريين

انطلاقًا من هذا المشهد البانورامى للواقع المعمارى اليوم فى مصر، نحاول هنا التعرف عن قرب على أفكار المعماريين أنفسهم حول جذور هذا الواقع ومنابعه فى ثقافة الغرب التى يحاكيها فى أغلب الأحيان، وكانت المناسبة هى المعرض الشامل الذى أقامته لجنة العمارة بالمجلس الأعلى للثقافة للعمارة بمصر خلال العقد الأخير من القرن العشرين، مصحوبًا بندوة علمية على مدى يومين لمناقشة قضايا الساعة حول العمارة فى مصر وذلك بهدف التوصل إلى رؤى تصورية عن مستقبل العمارة المصرية فى عالم تروج فيه ثقافة القطب الأوحد وفلسفته بحتمية صراع الحضارات وبإلغاء التنوع الثقافى البشرى الخلاق وإغراق أجواء العالم فى ضباب العولمة على حد قول الدكتور يحيى الزينى مقرر لجنة الهندسة بالمجلس الأعلى للثقافة.

العمـــارة هى الوعـــاء العمـــرانى الـــذى يشـــكل مـــلامح المجتمـــع ويتشـــكل بهـــا، فتصبـــح صـــورة شخصيـــــة لـــــه تعكس ســـلوكيات أفراده

ولعل الجديد فيما يطرحه المعماريون هو اعترافهم أولاً بوجود الأزمة، وثانيًا هو الربط بينها وبين المتغيرات السياسية محليًا ودوليًا حتى نقترن بفكر ما بعد الحداثة وبعولمة الثقافة، وهو ثالثًا إدراكهم لخطورة انعزالهم عن الرأى العام الذى نتجت عنه حالة من انعدام الوعى بالبيئة العمرانية وبقيمة ودور المعمارى فى تشكيلها.

وقد طرح د. عبد الحليم إبراهيم العديد من الأسئلة المحورية أكثر مما قدم من إجابات حول ما إذا كان المعرض يمثل صورة دقيقة عن العمارة فى مصر اليوم (برغم انه يضم



العمارة العريقة ضائعة بين الإعلانات التجارية
من أعلى والمحلات التجارية من أسفل



أكوام القمامة والمخلفات تحاصر العمارة الشعبية القديمة
بطابعها الإسلامى.. قبل هدمها القريب!!

٢٠٠ مشروع لـ ٤٠ معماريًا). ودور المكاتب الاستشارية فى تقديم طرح جديد واتجاهات معمارية لإقامة ركائز أو ثوابت فى العملية التنموية، أو لرصد المتغيرات وطرح رؤى جديدة لحل إشكالية التأصيل والتحديث، ثم ينتقل إلى التساؤل عن المرجع الفكرى للمعمارى المصرى عند استخدامه مصطلحات مثل الكلاسيكية والحداثة والتجاوز.. ويقول: كلاسيكية من.. نحن أم الأخر؟.. والحداثة بالنسبة لماذا؟.. والتجاوز عن ماذا؟.. وأخيرًا يتساءل عن القيمة والجودة فى تقييم العمل المعمارى.. ما هى معاييرها؟.. ومن الذى يحددها؟

ويستعرض د. محمد أبو المجد تطورات حركة الحداثة وما بعد الحداثة فى العمارة فى أوروبا وأمريكا، ثم فى مصر. وعن حركة «الحداثة» يقول إنها إحدى نتائج الثورة الصناعية فى أوروبا وصعود الرأسمالية، وهى من الناحية الأيديولوجية ذات أسلوب دولى موحد (أو بالأحرى بدون أسلوب حسب قول Jencks) مثالية، ذات تكوينات حتمية، وظيفية، يلعب فيها المعمارى دور المنقذ أو الطبيب الذى يفرض رأيه، كما تمتاز بشموليتها، أما من ناحية الأسلوب فتمتاز بالصراحة والبساطة والفراغات موحدة الخصائص فى جميع الجهات، وكتلها تجريدية نقية، غير مميزة الأجزاء، أو هى علب صماء، وترتبط بجماليات الماكينات، وتتسم بالمنطق الصريح فى مسارات الحركة والتكنولوجيا والإنشاء، وهى ضد الزخرفة، ضد التظاهر، ضد التشبيهات المجازية، ضد الإيماءات التاريخية، ضد الفكاهة، ضد الرمزية..

أما اتجاهات «ما بعد الحداثة» فهى ثورة على «الحداثة»، وعودة إلى التراث بوصفه الذاكرة المكتوبة والشخصية لإنسان الحضارة، لكنها تجمع بين التضاد مع أفكار الحداثة وبين الاندماج معها، فلم يعد فى استطاعة المعماريين تحمل عمارة الحداثة المحملة بالقيم الأخلاقية المتشددة، ولابد من التعامل مع عناصر «التهجين لا النقاء، المزج لا الفصل، التشويه لا المباشرة، الغموض لا الوضوح».. من هنا يأتى اهتمام أصحاب ما بعد الحداثة بالتوسع نحو العامية والتراث التقليدى واللهجات الدارجة المسموعة فى الشارع، وبذلك تصبح العمارة مزيجًا من ذوق الصفوة ورجل الشارع.. وقد أضاف «إيهاب حسن» - الفيلسوف المصرى المقيم فى الغرب - أن التفكيكية Deconstructivism تقدم مساحة جديدة لحركة مبادئ ما بعد الحداثة.. إلا أن «جنكز» يرفض قبول ذلك، كما يرفض التكنولوجيا العالية، نظرًا لأن الاثنتين تحتاجان إلى ثقافات وإمكانات عالية مما ينفى صفة «الشعبية» التى تعد أساسية فى فكر ما بعد الحداثة. وقد أوجدت تلك التعددية فى التفسير تعددية فى اتجاهات ما بعد الحداثة.. خلاصة القول إن هذه الاتجاهات تقوم على «الازدواجية» كأساس فلسفى، و«التعددية» كاتجاهات معمارية.

مصر.. مفاهيم ملتبسة!

وفى تطبيقه على واقع العمارة فى مصر، يصل د. أبو المجد إلى نتائج قد تتعارض مع ما استقر فى أذهاننا بشأن أعمال الرواد المعماريين فى مصر.. من جيل رواد الحداثة المبكرة حتى جيل الستينيات، حيث لا يرى فيهم تمثيلاً للأصالة والعودة إلى التراث، بل يرى أنه يتجلى لديهم معنى الاغتراب الثقافى والقطيعة مع التراث، من منطلق اللحاق بالغرب المتمدن، بينما كان الغرب آنذاك يمارس القطيعة مع التراث من مفهوم مختلف.. مفهوم الثورة على نفسه بحثًا عن جديد.. لكن د. أبو المجد لم يقدم لنا تقييمه للمراحل التالية للستينيات، والتى شهدت غلبة اتجاهات ما بعد الحداثة حسب المفهوم الفكرى سالف الذكر، بما فيه الاتجاهات الإحيائية للتراث واستلهام الإبداع الشعبى على نسق مدرسة حسن فتحى، مما يعنى أنها تمثل ملامح إيجابية لتأكيد ما ننادى به اليوم من تأكيد الهوية والانتماء الحضارى، فهل ذلك هو ما يميز الزحام المعمارى فى المجتمعات العمرانية الجديدة التى تكتظ بها الإعلانات المصورة فى الصحف بصفة مستمرة لترويج شراء وحدات سكنية أو تجارية بها؟.. وإذا كان الأمر كذلك.. فأين تكمن المشكلة إذن؟!

يقول الأستاذ سيد ياسين فى كلمته التى شارك بها فى الندوة - كمفكر استراتيجى وليس كمعمارى - إن سقوط الحداثة وظهور ما بعد الحداثة إنما هو سقوط للأنساق المغلقة فى الفكر والاقتصاد والسياسة على السواء، وبروز - فى المقابل - للنسق الفكرى المفتوح، وللتأليف



ميدان المشهد الحسينى هكذا تبدو الصورة الحضارية
تائهة وسط الزحام



مبنى دار الكتب الملاصق لمتحف الفن الإسلامى بميدان باب الخلق..
ضائع خلف عربة جمع القمامة والإعلانات والعشوائية

بين المتناقضات، فى ظل ثورة معرفية كبرى، لكننا فى مصر لا نملك رؤية استراتيجية متبلورة.. فلا نحن اشتراكيون، ولا نحن رأسماليون، بل نحن عاجزون اقتصاديًا أمام أوروبا والعولمة.

واجتماعيًا.. لدينا سيولة طبقية، أفرزت هيمنة للميول والأذواق الفجة التى تميز الفئات الاجتماعية الجديدة، فى ظل حراك اجتماعى نحو هبوط الطبقة الوسطى، وفى ظل غياب للقيم الأخلاقية التى تقنن توجهات المجتمع وتحاسب على الثراء غير المشروع.. الذى ينعكس فى الفوضى المعمارية التى نشهدها.

مسئولية المعمارى

وبعيدًا عن الندوة وما دار فيها، وعن مصطلحات الحداثة وما بعد الحداثة، نستطيع أن نلمس أبعاد الأزمة وتجلياتها وسبل الخروج منها، من خلال رؤية مخطط معمارى مرموق له دوره المؤثر فى فكر التخطيط العمرانى الحديث فى مصر وبعض البلاد العربية، هو الدكتور يحيى الزينى، عضو المجالس القومية المتخصصة.

يقول فى دراسة قدمها إلى شعبة الفنون بالمجالس، تحت عنوان «الحفاظ على القيم الحضارية فى البيئة العمرانية والمعمارية»:

«إن العمارة أصبحت الآن - وفى جو الشره المادى والكسب السريع - تفتقر حقيقة لمن يطلب المستوى الرفيع ويقدر قيمة الجمال، بل لقد صارت إلى حالة من التدهور جعلتها حرمًا مباحًا لممارسات غير ذوى الاختصاص، ومجالاً لاجتهادات غير المتخصصين، وخاصة من بيدهم المال أو من بيدهم اتخاذ القرار.. (....) ومع ذلك فالمعمارى مسئول عن حالة الاغتراب فى العمارة التى تجتاح مدننا الآن، فالكثير من المعماريين تستهويهم التيارات الواردة، لا يفهمون منها إلا التشكيلات الخارجية والمظاهر السطحية اللافتة للنظر، دون تعمق حقيقى فيما تنطوى عليه من نظريات وما تحمله من فلسفات لا علاقة لها بنا ولا مواءمة بينها وبين تقاليدنا، ولا تناسب واقعنا الاقتصادى والاجتماعى والثقافى جميعًا.

وفى عبارة بليغة الدلالة يقول د. الزينى:

«إذا تبلد الحس وفسد الذوق العام وعمت اللامبالاة فى المجتمع فلا نتوقع ازدهارًا لفن أو تقديرًا لقيم أو طلبًا لعمارة رفيعة.. فنحن نبنى ونشكل البيت فيعود البيت ويشكلنا كأفراد، ونحن نبنى المدينة فتعود المدينة وتشكلنا كمجتمع، ويتفاعل المجتمع فى وعاء البيئة العمرانية فينتج حضارة أو لا ينتج، وهنا يصدق القول: «لكل مجتمع العمارة التى يستحقها». وبين الحضر الذى يشكله المجتمع العمرانى، والحضارة التى يجب أن يتطلع إليها.. شوط بعيد، على المجتمع أن يقطعه بعزيمة مشحوذة ورهافة حس وطاقة خلاقة..».

مشروع قومى للخلاص

ويتجلى جوهر المثقف والمفكر الملتزم الذى لا يكتفى بطرح النظريات. يقدم لنا د. يحيى الزينى مشروعًا قوميًا متكاملاً لتجاوز الأزمة، فى دراسة بعنوان «الشارع المصرى ومجتمع المدينة بين التأثير والتأثر»، انتهى فيه إلى عشر توصيات مهمة نلخصها فيما يلى:

* فى إطار المشروع القومى لإعادة الاعتبار للشارع المصرى، يجب أن تناط إدارة عمران المدن الكبرى إلى جهاز متخصص متكامل، تحشد له الكفاءات الهندسية والفنية والإدارية، فى كافة مجالات التخطيط والتنمية الحضرية والارتقاء بالبيئة العمرانية، بما تضمه من نواة تاريخية أو مناطق تراثية أو امتدادات عمرانية جديدة، وهذا الكيان هو «البلدية» التى تعمل أجهزتها فى إطار المحافظة المسئولة عن إدارة المدينة ككل.

* فى نطاق مسئوليات البلدية - المقترح إرجاعها - يجب معالجة القصور فى القوانين واللوائح والقرارات المنظمة للتخطيط والتنمية الحضرية، وبصفة خاصة تلك المتعلقة باشتراطات البناء والهدم، بحيث تشمل كل العناصر التى تؤثر على القيم الجمالية فى الشارع المصرى.. مثل التوافق والانسجام بين المبانى المتجاورة، والالتزام بتشطيب وإتمام واجهات المبانى بالمستوى الجمالى اللائق، وإلزام الملاك والشاغلين بالعناية والصيانة الدورية للعقارات وخاصة الواجهات على الشارع ومنع العبث بها بالطلاء بألوان مخالفة للون العمارة أو إضافة عناصر بارزة أو تقفيل الشرفات أو وضع أجهزة تكييف الهواء بأسلوب عشوائى.. إلخ من نماذج التلوث البصرى.

ويندرج فى نطاق مسئوليات البلدية المقترحة أيضًا إلزام الملاك بإكمال تنفيذ المبنى بالصورة الجمالية المقررة وقيام السلطات الإدارية بالتنفيذ على حسابهم فى حالة تقاعسهم، وإعداد تخطيط شامل لعواصم المحافظات والمدن الكبرى، وتعميم شوارع المشاة فى منطقة وسط المدينة فى إطار تخطيط شامل لحركة المرور، وتحديد محميات تراثية تحتضن حقبًا تاريخية مهمة من تاريخ مصر.

* إنشاء كيان مركزى (هيئة عامة) تتبع وزارة البيئة، وتختص بتخطيط وتصميم وإقامة وإدارة المسطحات الخضراء بكافة أنواعها ووظائفها، بما فى ذلك مناطق الغابات والأحزمة الخضراء حول نطاق المدن، والعمل على زيادة نصيب المواطن من الرقعة الخضراء.

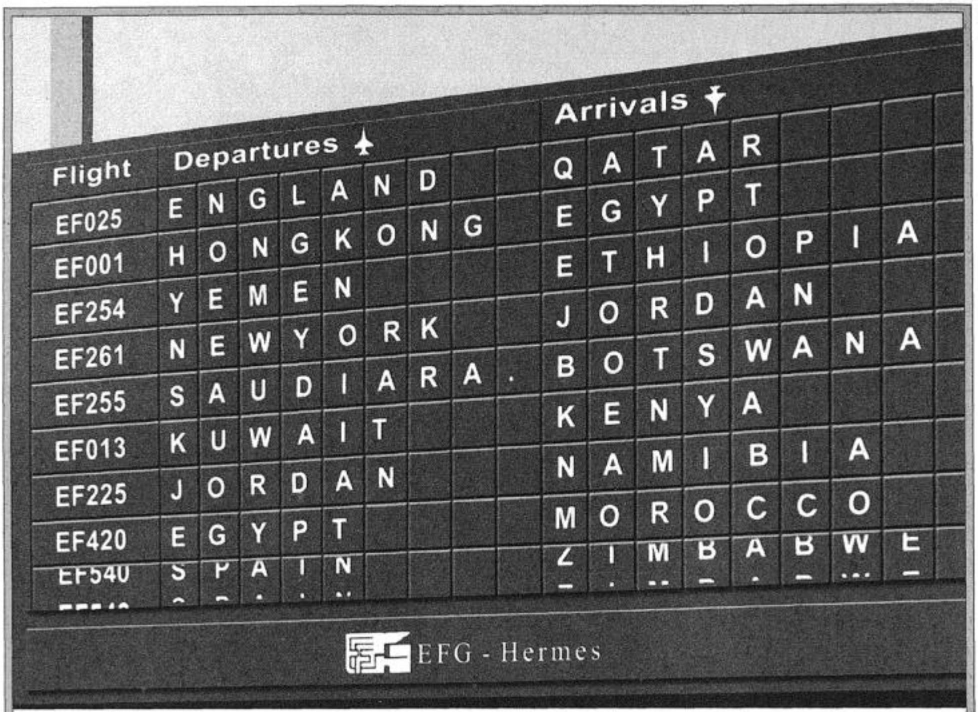
* إشراف وزارة البيئة على شئون النظافة العامة ومعالجة النفايات طبقًا لخطة استراتيجية شاملة تستند على تجارب البلاد المماثلة وتنفذها شركات متخصصة.

* معالجة مشكلات المرور المتفاقمة فى المدن الكبرى بأسلوب علمى وبإسنادها لإحدى المؤسسات التخطيطية الهندسية والأمنية معًا.

* تنقية الشارع المصرى من الهامشيين والمهمشين فى إطار مشروعات رعاية الدولة والمجتمع لهذه الفئات المحرومة.

* إعداد دراسة (اجتماعية - هندسية - بيئية - نفسية) لمظاهر الخلل فى البيئة العمرانية وأثرها فى السلوك والصحة النفسية والبدنية للمواطن، تحت رعاية مشتركة من وزارات الإسكان والمرافق والصحة والسكان وشئون البيئة والمحليات.

* إزالة العقبات البيروقراطية أمام الجمعيات الأهلية المهتمة بهذه القضايا حتى تقوم برسالتها مساندة للدولة فى تنفيذ مشروعاتها سالفة الذكر. ■



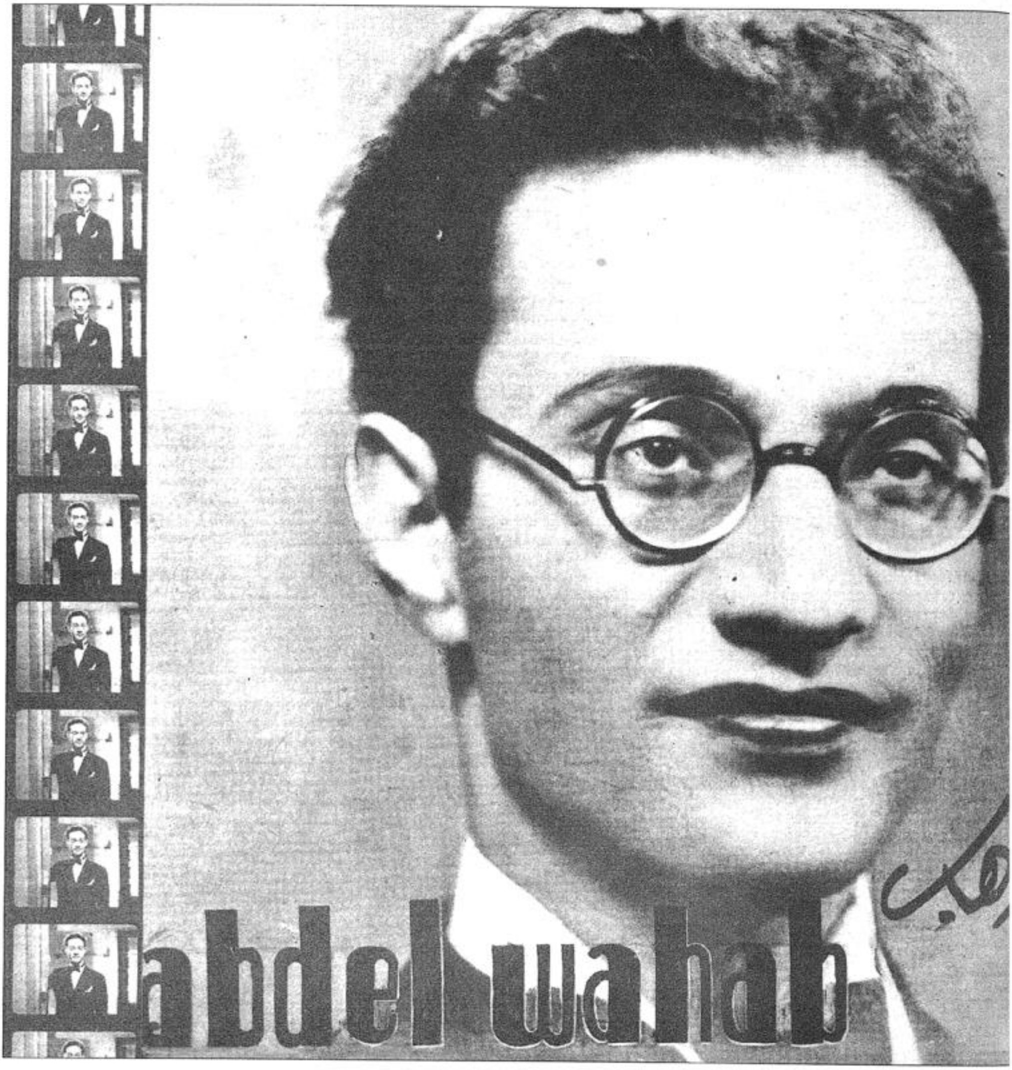
Flight
Departures
Arrivals
EF025 ENGLAND QATAR
EF001 HONGKONG EGYPT
EF254 YEMEN ETHIOPIA
EF261 NEWYORK JORDAN
EF255 SAUDIARA. BOTSWANA
EF013 KUWAIT KENYA
EF225 JORDAN NAMIBIA
EF420 EGYPT MOROCCO
EF540 SPAIN ZIMBABWE
EFG - Hermes



سمير فريد

في الذكرى
المئوية لميلاده

عبد الوهاب



وقفت أمام الكاميرا فى بداية العمل وقبل أن أعرف شيئا منه ونظرت إليها نظرة الواثق فى ظرفها ووداعتها ، ولكن مزاجها ويا للأسف كان من نوع آخر لا تفهمه ، فهى لا ترى فى الضـوء الطبيعى ولا يكفيها من الأنوار إلا القدر الذى يشوى الوجوه إذا سلط عليها والجلود إذا اقترب منها ، كل ذلك وأنا شخص ضعيف النظر لا تفارق (النظارة) عينى ، ومع هذا فقد حتمت تلك الكاميرا الملعونة أن أخلع (منظارى) وأن ألاقى هذه الأضواء الساطعة الوهاجة وجها لوجه

أفــــلامه وأغـــانيـــه



عبـــــدالـوهـــــــــاب

توافق هذه السنة (٢٠٠١) مرور مائة عام على مولد الموسيقار محمد عبدالوهاب، كما مرت الذكرى السنوية العاشرة لوفاته في ٣ مايو الماضي.

وقد بدأت الاحتفالات بمئوية عبدالوهاب يوم ميلاده (١٣ مارس) في معهد العالم العربي بباريس. وفي هذه الدراسة قراءة لأفلام عبدالوهاب السبعة الشهيرة من خلال الكتيبات الأصلية للعروض الأولى لهذه الأفلام في الفترة من عام ١٩٣٣ إلى عام ١٩٤٦ والتي تمكن الكاتب من جمعها على مدى عام كامل من باعة الكتب القديمة ومصادر أخرى مختلفة.

وقد كان الفنان الكبير يكتب المقالات إلى جانب التلحين والغناء وإنتاج وتمثيل الأفلام، وتزيد مقالاته المنشورة على مائة مقال.

المحرر

اشترك محمد عبد الوهاب في تمثيل ٧ أفلام كلها من إنتاجه عدا الفيلم الأخير وكلها من إخراج محمد كريم على مدى ١٣ عاما من عام ١٩٣٣ إلى عام ١٩٤٦، وهي: «الوردة البيضاء» ١٩٣٣، «دموع الحب» ١٩٣٥، «يحيا الحب» ١٩٣٨، «يوم سعيد» ١٩٤٠ «ممنوع الحب» ١٩٤٢، «رصاصة في القلب» ١٩٤٤، و«لست ملاكا» ١٩٤٦.

وظهر عبد الوهاب بشخصيته الحقيقية، أي من دون تمثيل شخصيات درامية، في ثلاثة أفلام أخرى هي «غزل البنات» إخراج أنور وجدي عام ١٩٤٩ حيث قام بغناء «عاشق الروح»، والفيلم القصير «الوطن الأكبر» إخراج عز الدين ذو الفقار عام ١٩٦١، و«منتهى الفرح» إخراج محمد سالم عام ١٩٦٣ حيث قام بغناء «قالوا لي هان الود عليه».

في الأفلام العشرة ٦٦ لحنا من ألحان عبد الوهاب منها ٤٥ أغنية يغنيها وحده، و١٢ أغنية مع نجاة وليلى مراد وأسمهان ورجاء وراقية إبراهيم ونور الهدى، و ٩ من ألحانه لكل من ليلى مراد وأسمهان ورجاء ونور الهدى ورئيسة عفيفي ومحمد أمين.

ومن البديهي ونحن نحتفل بالذكرى المئوية الأولى لمولد الفنان الكبير أن أهم ما يجب عمله للمحافظة على هذه الأفلام العشرة ترميم أصولها وطبع نسخ جديدة منها، وتوفيرها على شكل مجموعة أفلام كاملة على شرائط الفيديو وأسطوانات الـ«دي في دي» وغيرها من وسائط العرض الحديثة وذلك بالتعاون بين وزارة الثقافة وأصحاب حقوق هذه الأفلام بالطبع.

إن أفلام عبد الوهاب العشرة فضلا عن كونها من كلاسيكيات السينما المصرية، فهي التسجيلات السمعية البصرية الوحيدة لأغانيه، إذ لم يسجل أي منها للتليفزيون على شرائط الفيديو وكما أن ترميم هذه الأفلام واجب وزارة الثقافة، فإن واجب وزارة الإعلام ترميم سلسلة أحاديث عبد الوهاب المسجلة للتليفزيون، ونقلها على شرائط تحفظها لأنها بدورها الوثائق السمعية البصرية الوحيدة التي تكلم فيها. ولست أدري بمحتويات متحف عبد الوهاب الذي تنشئه وزارة الثقافة، ولكن من غير المعقول أن يخلو المتحف من هذه الأحاديث، ومن تلك الأفلام وكل الوثائق المتعلقة بها.

الوردة البيضاء

يعتبر «الوردة البيضاء» أول أفلام عبد الوهاب الذي أنتج وعرض عام ١٩٣٣ نقطة تحول كبرى في تاريخ السينما المصرية، فقبل هذا الفيلم كان إنتاج الأفلام السينمائية سواء الصامتة من عام ١٩٢٧ أو الناطقة من عام ١٩٣١ من قبيل المغامرات الفنية والمغامرات المالية. كانت الأفلام تتكلف القليل وتدر القليل وقلما عرضت خارج مصر، بل خارج المدن الكبرى داخل مصر. ولكن النجاح الساحق لفيلم «الوردة البيضاء» حيث حقق أرباحا تفوق تكاليفه عشرات المرات، وعرضه في كل المدن المصرية والعربية حيث كانت توجد دور للعرض كان البداية لوجود «صناعة السينما» في مصر.

كتب عبد الوهاب في تقديم الفيلم في الملف الصحفي للعرض الأول:

سيداتي وسادتي

هويت الموسيقى بروحي - واندفعت نحوها بكل ما أملك من عقل وعزم وإحساس. حتى لم يكن يقنعني منها أي قدر أناله.. مهما يبلغ كماله.. فظللت أدرسها من كل ناحية - وأتعقبها في كل طريق - فلم أترك درسا علميا إلا وتلقيته - ولا تطبيقا عمليا إلا حضرته. حتى وثقت من نفسي - أني أستطيع - باسم أمتي العريقة المجد في الفنون عامة والموسيقى خاصة - أن أكون موسيقيا. فتقدمت - ونصب عيني - أن أكسب بهذه الروح الموسيقية - الكبيرة في أمانيها القوية بإيمانها - اطمئنان ضميري أمام الله والوطن والأمة. فاعتليت التخت.

ومن يوم أن اعتليت التخت، ملكتني أمنية وهبت لها عزمي. وترقبت لها كل فرصة وجعلتها أملا لي في الحياة، لا أبذل جهدا إلا في سبيلها، ولا أضحي بعزيز إلا من أجلها. وهذه الأمنية تنحصر في أمرين:

الأول: عدم وجود الوحدة الموسيقية في الألحان.

وهذا عيب التزمه رجال الموسيقى إلى عهد غير بعيد. فقد كان التلحين الغنائي يشبه في تكوينه الشعر العربي. فإذا قرأنا قصيدة وجدنا كل بيت فيها قويا في ذاته، متينا في تركيبه له معنى خاص يجعله مستقلا عن غيره.

أما أن يكون اللحن على ألوان متعددة غير متآلفة بحيث يمكننا أن نقتنع منه بلون على أنه شيء حسن مستقل كما نعجب بالبيت في القصيدة ونقتنع به بحيث يمكننا أن نستشهد به دون غيره، لاستقلاله في أداء المعنى، فهو ما كرهته للموسيقى المصرية، لأنه يسهل السبيل إلى اتهامها بالعجز، وكما يعاني القصصيون انسجام حوادث القصة وحبك عقدتها وإعطاءها المواقف المختلفة والظروف المفاجئة حتى ينتهي إلى الخاتمة المنتظرة أو غير المنتظرة أردت أن نعاني نحن الموسيقيين في اللحن الغنائي - مثل هذا العناء - ولا نكتفي بجعله شطرات موسيقية كقصة استعراضية.

وقد بذلت في ذلك مجهودا لا أعتد به ولكني لا أحسب الشعب المصري الكريم ينكره علي لأنه مساهم معي في هذا الجهد بتشجيعه لي في كل خطوة تقدمت بها إلى تحقيق هذه الغاية حتى وفقت بفضله إلى حد كبير، واستطعت أن أجعل الموسيقى المصرية - كغيرها - تؤدي أعظم ما تتطلبه منها الحياة.

الأمر الثاني: إيجاد الأغاني الاجتماعية وقد وفقت في إيجادها إلى حد ما - ولا أستطيع أن أدعي إتمام هذه الرسالة - فهي ما برحت في مهدها محتاجة إلى جولات طيبة.

وأقول إلى حد ما، لأنه من الصعب أن أقدم أغاني اجتماعية في حفلات عامة ساهرة قوامها التخت وعاداته المقيدة لأن التخت له جوه الخاص. فلا يمكن أن تصدر منه غير الألحان العاطفية المتصلة بالشعور لأن جمهوره لم يحضر إلا لإشباع هذه الرغبة فإن لم يهدئ التخت أفكاره ويعالج شعوره لم يكن تختا موفقا يستحق تقديره.

أجل لقد استطعت أن أخضع موسيقى التخت للوصف في قطعتي «البلبل» و«في

محمد عبدالوهاب وسليمان نجيب في فيلم «الوردة البيضاء» عام ١٩٣٣



على غلاف العدد
بورتريه محمد عبدالوهاب في شبابه
للفنان حلمي التوني
من معرضه «وجوه جميلة من زمن جميل» ١٩٩٨،
زيت على قماش ٤٠ × ٣٣سم

الليل» لأمير الشعراء وأستطيع أن أقطع آخر مرحلة من هذا الطريق كلما قدم لي شعر من هذا النوع.

ولكن هذا لا يغني عن الأغنية الاجتماعية، ولا يجعلني أقعد عن إيجادها، فأزمعت في يوم ما تأليف فرقة أوبرا مسرحية لتحقيق هذه الفكرة فصادفتني موانع عديدة لم أستطع تذليلها فتركت الأمر للظروف، وأنا جد ولوع به، قلق على يوم تحقيقه، مترقب له كل مناسبة، حتى كان أن أخذت السينما مكانتها من القلوب وغمرت جميع العقول في العالم كله وذهب الجمهور المصري في عشقه بها إلى أبعد حد. فلم أتوان أن ألحق به من هذه الناحية، وأن أوجد الموسيقى الاجتماعية على حسابها، وأن أواجهه بها عند الأمر الذي أحب، وعندما وقف منه العقل والقلب.

ولقد ارتحت إلى هذه النهاية، ولاسيما أن الجمهور عندما يشاهد قصة في السينما إنما يشاهد مجهودا جبارا، تناوله المران والتجارب والوقت المديد، حتى صقل وأتقن بما أخذ من أجمل الظروف وأليقها للعمل من كل ناحية، الأمر الذي لا يوجد في التخت أو المسرح إذ يضطر المغني أو الممثل أن يظهر كما تقتضي الظروف مرغما بوقتها مكرها.

وفي نفس الملف كتب عبد الوهاب:

لو سألني سائل منذ بضعة أشهر عن السينما، لما ترددت لحظة في إجابته بأنها عمل قريب التناول سهل المأخذ لا تعرف الصعوبة سبيلا إليه.

إذ ليس على الإنسان إلا أن يواجه الكاميرا ويؤدي الحركات التي يستلزمها دوره فتلتقط صورته على الأوضاع المطلوبة دون جهد ولا عناء.

كان هذا اعتقادي في السينما إلى اللحظة التي ملأت رأسي فيها فكرة الظهور على الشاشة، ولكنني ما كدت أخطو الخطوة الأولى في التنفيذ حتى تبخر ذلك الاعتقاد القديم وحل محله رأي جازم بأن الله لم يخلق المشقة والعناء في هذا العالم إلا ليجعلهما من مستلزمات السينما وأولياتها.

لقد وقفت أمام الكاميرا في بداية العمل وقبل أن أعرف شيئا منه ونظرت إليها نظرة الواثق في ظرفها ووداعتها، ولكن مزاجها ويا للأسف كان من نوع آخر لا تفهمه، فهي لا ترى في الضوء الطبيعي ولا يكفيها من الأنوار إلا القدر الذي يشوي الوجوه إذا سلط عليها والجلود إذا اقترب منها، كل ذلك وأنا شخص ضعيف النظر لا تفارق (النظارة) عيني. ومع هذا فقد حتمت تلك الكاميرا الملعونة أن أخلع (منظاري) وأن ألاقي هذه الأضواء الساطعة الوهاجة وجها لوجه، وذلك يستلزم بطبيعة الحال أن نجري بعض تجارب على الأنوار قبل أن يعتدل مزاج كريم ويسمح للكاميرا بتأدية عملها.

هذا ولعلكم حذرتم أن ذلك المطرب الذي كنت أسمعه وأشارك إخواني الإعجاب به، لم يكن غير صديقكم الضعيف.

وكتب مخرج الفيلم محمد كريم:

«أرى من العبث أن أدلل الآن على أهمية المخرج السينمائي أو أن أستعين بأقوال المشتغلين بالسينما على الكلام عن الإخراج فالعالم يتطور.. ويتطور من جميع الوجوه وقد شمل التطور نظريات الإخراج السينمائي، والذين يهمهم أمر السينما متربصون لهذا التطور ويدركون مداه، ويقدرون الفرق بين ما كان عليه الإخراج منذ بضع سنوات وبين ما أصبح عليه الآن، ولم يعد الإخراج أمرا مهملا كما كان في الماضي، أو أمرا ثانويا في نظر البعض بل أصبح الإخراج هو (الروح) الخفية التي تدب في جسم الرواية فتحييها وتبعث فيها الحياة، وهو القوة الشائعة في جزئياتها، والدم الحار الذي يجري في أصغر شريان فيها.

والإخراج كما قلت يتطور فهو كالموضة، فكما أن الموضة التي كنا نأخذ بها في ملبسنا سنة ١٩٢٠ مثلا قد تطورت، كذلك الإخراج الذي كنا نأخذ به في سنة ١٩٣٠ تطور وإخراج ١٩٣٢ يختلف عن إخراج ١٩٣٣، وهذا التطور يتمشى مع الزمن، فأنا أخرجت فيما مضى بضع روايات ولكنني أقرر أني كنت كذلك أتمشى مع الظروف التي كانت تحيط بي، وأشعر أن إخراج كل مرة كان أكثر حياة وأكثر تطورا من الإخراج الذي سبقه، وقد أدرك الناس ذلك الفرق وتذوقوه واستساغوه لأنه جاء موافقا لميولهم وأذواقهم، متمشيا مع التطور الذي يأخذون به ويسيرون عليه.

والآن أقول للجمهور المصري العزيز هاك فيلم «الوردة البيضاء» إخراج ١٩٣٣، وإذا قلت إنه إخراج ١٩٣٣ فأقصد أن أقول أنه يرقى إلى مرتبة الإخراج في أمريكا وأوروبا.

وسوف يحس الجمهور بعظمة التطور الذي أخرجت به هذه الرواية. وهو في الواقع قضاء على كل نوع لي سبقه من الإخراج، وقد تعمدت ذلك، وهذا هو مبدئي الذي أدين به وهو أن أجعل الجديد مظهرا لآخر ابتكار فني أخرجته العقول في أمريكا وأوروبا.

وإنه عهد أقطعه على نفسي.. فإلى اللقاء في عام ١٩٣٤ إن شاء الله».

وكتب **سليمان نجيب** الذي اشترك في كتابة السيناريو وتمثيل دور إسماعيل:

في أواخر صيف سنة ١٩٢٩ شاهدت في دار سينما رويال بالإسكندرية (لورا ليلانت) في رواية SHOW BOAT تغني وتتكلم على الشاشة البيضاء وكانت دهشة وكانت مفاجأة وخرجت بعد الفيلم وأنا لا أصدق نفسي وكبرت في عيني وفي نفسي تلك الأشخاص التي تحتل مكانها على الشاشة البيضاء وأين أنا المتفرج البسيط من هؤلاء العباقرة الذين نصفق لهم معجبين. وتدرج الاختراع يوما بعد يوم إلى أن شاهدناه في أوجه وفي قمم مجده هو يكبر وتكبر معه هذه النجوم ونحن كمتفرجين (نكش) وننكمش، وقذفتنا هوليوود وباريس وبرلين ولوندرة بمعجزاتها ومرت هذه المعجزات وأنا قابع في كرسي المتفرج الضئيل.

وقيل لي أتمثل؟ أتلعب دورا على الشاشة البيضاء؟ وهذا الشيء الذي يسمونه التمثيل في دمي وكم كلفني ولكن المسرح همه محتمل وفي ساعات ثلاث تنتهي الرواية وينسيك التصفيق تعبك، ثم تنهال عليك التهاني قليلها حقيقي وكثيرها ملق ودهان. أما السينما، وترددت قليلا ثم قبلت ثقة مني بمن أعمل معهم، وكريم صديقي أولهم، سيأخذ بيدي ويصعد معي السلم إلى حيث يرى الجمهور عملي ومجهودي، وسافرنا وبدأنا العمل وأنا خائف وجل ولكن القارئ سيتساءل أهناك داع للاضطراب والخوف، ولو علم أني شعرت بخطورة مركزي كمبتدئ حيث وقفت بجانب نجوم السينما بدار TOBIS وأبطال الفن لعرف أني محق في وجلي، مصري في فرقة مصرية منظور إلى مجهودها بعين الشك من الجميع يعمل على مقربة من الممثل الألماني الشهير فروليش والنابغة الفرنسي نويل والحسناء كاميلا هورن ونحن نسير حينا مقتنعين من حوالينا بمجهودنا وأننا لا نقل شيئا عن جيراننا.

وانتهى العمل في أواخر أغسطس وبقي الصديق كريم لعمل المونتاج وتجهيز الفيلم وهو أصعب ما في العمل ولا أطيل عليك الحديث فقد وصل كريم وذهبنا إلى رويال لمشاهدة الفيلم لأول مرة.

وكتب زكي رستم الذي مثل دور شفيق:

إذا أردت أن أكتب عن فيلم الوردة البيضاء، هذا العمل الفني الدقيق، فلا تكفي صفحة كهذه لكي أصف فيها بدقة ما عاناه القائمون بعمل هذا الفيلم من الصعاب والمشاق حتى تم إخراجه على تلك الصورة المشرفة التي سترونه عليها، والتي جعلتنا في باريس موطن الفن موضع احترام أولئك الذين اختصوا بتلك الصناعة هناك ودرسوا دقائقها وكشفوا القناع عن سرها، ولكن على سبيل الذكرى سأصف موقفا لي أثناء قيامي بدوري في الفيلم ترك في نفسي أثرا لا أنساه.

أخرج الفيلم في باريس في استوديو توبس، ولقد مثلت قبل ذلك في عدة أفلام مصرية ولكنها كانت كلها صامتة وأخرجت في مصر ولكن هذا الفيلم كان أول فيلم ناطق قمت بدور فيه وأخرج في أوروبا.

وصلنا إلى باريس وفي اليوم التالي ذهبنا بصحبة المخرج السينمائي محمد كريم لزيارة الاستوديو أولا والتعرف بمديريه والقائمين بالعمل هناك من فرنسيين وألمان. فكانوا يستقبلوننا بالابتسام، ولكنها كانت ابتسامات غريبة ونظرات ملؤها فضول لم أفهم سره مع ما كنا عليه من حسن الهندام ورقة في المجاملة والتعارف.

سألت كريما عن سر ما قرأت في وجوههم، فقال لقد شاهدونا وشاهدوا آلاتنا الموسيقية فهم يتوقعون منا تهريجا لا فنا صحيحا ورقصا بالبطن على أنغام لا عهد لهم بها. فيقطعون الوقت في الضحك واللهو بتمثيلنا ولكن صبرا إلى الغد فسيرون منا ما يجعلنا أندادا لهم وزملاء لا يقلون عنهم ذخيرة بفنهم، فأعجبتني من كريم هذه الثقة بالنفس.

قمت بالتجربة أمام كريم لأول جزء من المشهد مرة ثانية وهو يزودني بملحوظاته حتى اكتفى وقال لنبدأ عملية الالتقاط، وهنا أصدر أوامره لعمال النور ومهندسي الصوت والمصورين. فكان كل منهم يلبي أوامره بكل دقة وطاعة ثم سمعت صوتا جهوريا ينادي: أقفلوا الأبواب أشعلوا الأنوار فشعرت إذ ذاك برجفة تسري إلى جسمي.

ستدار الكاميرا الآن، سيسجل الميكروفون كل لفظة تخرج من فمي، وهذه العيون ترهقني! ليست هي نظرات عادية، بل هي نظرات فنية صادرة عن رؤوس ملؤها الفن الصحيح وأنا غريب ومصري: أأترك لهم فرصة يسخرون فيها منا ومن بلادنا وفننا؟ تمالكت نفسي في دقيقة واحدة وأصبحت كأستاذ يلقي درسا على تلامذته.

كان يعرض علينا في الأستوديو كل يوم ما عملناه في اليوم الذي سبقه. فكنا نراه ونسر به كثيرا، ولكنا لم نشعر بعظمة النتيجة ونجاحها إلا يوم أن عرض علينا الفيلم لأول مرة في مصر بعد أن انتهى الأستاذ كريم من ترتيبه وتنسيقه لكي يكون صالحا تماما للعرض العام.

في حواره مع سعد الدين وهبة في كتاب

محمد عبدالوهاب وسميرة خلوصي في فيلم «دموع الحب» عام ١٩٣٥



«النهر الخالد» الذى نشرته دار سعاد الصباح فى القاهرة عام ١٩٩٢ يشير عبد الوهاب إلى وجود فيلم قصير صوره عن أغنية بعنوان «الراين» من تلحينه وغنائه وشعر على محمود طه ، ولكن الفيلم احترق فى حريق ستوديو مصر.

عن «الوردة البيضاء» يقول إنه صور فى باريس ، ولكن تم تسجيل الأغانى فى برلين ، وكانت الفرقة الموسيقية مكونة من السنباطى على العود ، ومحمد عبده صالح على القانون ، وجميل عويس عازف الكمان ، وعزيز صادق عازف الناى.

عن «جفنه علم الغزل» يقول عبد الوهاب فى الكتاب / الحوار :

«لحنتها فى برلين.. أيامها كانت الموضة موسيقى الرومبا ، قررت أن ألحن قصيدة بشارة الخورى مستخدما هذه الآلة (ماراكاس)..

كانت الفرقة الموسيقية قد عادت ما عدا محمد عبده صالح وجميل عويس وعازف الرق.. إنها أغنيتى الوحيدة من غير عود.. وذهبت إلى محمد كريم فى باريس وطلبت منه إضافة الأغنية.. قال أين الفرقة الموسيقية قلت له عندك الأسطوانة.. وكانت هذه أول مرة تستخدم فيها الطريقة التى أصبحت معروفة باسم «البلاى باك» . هناك لوحة فى ستوديو اكلير تذكر ذلك » .

السبب الرئيسى لإقبال الناس على مشاهدة «الوردة البيضاء» مشاهدة عبد الوهاب فى ذروة نجاحه ، ولم تكن شهرته تقتصر على مصر وإنما تمتد إلى كل البلاد العربية ، ولذلك حقق الفيلم فى هذه البلاد نفس ما حققه من إقبال فى مصر.

فى «الوردة البيضاء» يغنى عبد الوهاب ثمانى من أغانيه، ٦ من تأليف أحمد رامى (يا وردة الحب الصافى - نادانى قلبى - يا لوعتى يا شقايا - ياللى شجاك الأنين - سبع سواقى - ضحيت غرامى) ، وأغنية «النيل نجاشى» تأليف أحمد شوقى ، وأغنية «جفنه علم الغزل» تأليف بشارة الخورى (الأخطل الصغير).

قصة الفيلم عن الشاب الفقير محمد جلال (محمد عبد الوهاب) الذى يعمل موظفا صغيرا فى إدارة أملاك إسماعيل بك (سليمان نجيب) حيث يتبادل الحب مع رجاء (سميرة خلوصى) ابنة صاحب الدائرة ، ولكن زوجة أبيها فاطمة (دولت أبيض) تحول دون زواجهما حتى تتزوج شقيقها شفيق (زكى رستم). تأتى الفرصة للتفريق بين الحبيبين عندما يقوم محمد بتقبيل رجاء ويراهما شفيق فيبلغ إسماعيل بك الذى يطرد محمد من العمل. يصبح محمد من كبار المغنين ، ولكن شفيق يتمكن من إقناع رجاء بأن محمد لم يعد يحبها ، وأن له علاقات غرامية كثيرة ، فتوافق على الزواج من شفيق ، وفى ليلة الزفاف يغنى محمد حول أسوار القصر : «ضحيت غرامى عشان هناكى» .

تعبر هذه القصة الرومانسية عن المناخ السائد فى الأدب والشعر وغيرهما من الفنون ، زمن إنتاج الفيلم حيث كان أدب المنفلوطى الأكثر رواجا بين القراء ، ويبدو ذلك بوضوح فى نهاية الفيلم الحزينة التى تنتصر فيها المؤامرات على الحب ، وتتم التفرقة بين الحبيبين. وقصة الفيلم عن رواية منشورة لكاتب مغمور يدعى محمد متولى من الواضح أنه كان يحاكى قصص المنفلوطى.

ومن الملاحظ أن عناوين الفيلم لا تشير إلى إعداد القصة عن رواية منشورة ، وكذلك الملف الصحفى.

وقد نشر عن الفيلم فى مصر والبلاد العربية عشرات المقالات ، بل وكتبت عنه القصائد الشعرية ومن أمثلة ما نشر مقال فى «الفجر» السودانية لرئيس تحريرها عرفات محمد عبد الله فى عدد أول يوليو ١٩٣٤ عند عرض الفيلم فى السودان ، وفيما يلى مقتطفات من المقال:

لقد كان الإعلان مغريا ومثيرا الفضول الجمهور وتطلعه، فمن لم يشا أن يستعجل الأيام ليرى فيلم «الوردة البيضاء» وليشهد عبد الوهاب محبا وممثلا وفنانا ؟ عبد الوهاب الذى إذا غنى رقصت له القلوب استحسانا وإذا تهادى فى مشيته على شاطئ النيل النسيم حاكته الغصون افتتانا ، عبد الوهاب الموسيقار الذى سمعوه فى «جارة الوادى » وفى «الليل » وفى «الهوى والشباب» وفى «يا شراعا»، لابد أن يأتيهم فى مقطوعاته الغنائية فى «الوردة البيضاء» خصوصا فى قطعة «النيل» للمرحوم شوقى بك ، لهذا تطلع الجمهور وتشوق إلى «الوردة البيضاء» واستبقوا لدى الباب فى جميع الليالى التى عرضت فيها «الوردة البيضاء» فى الأسبوع الماضى. لقد كان أسبوع عبد الوهاب وكفى.

أما مناظر مصر الساحرة فقد كانت متقنة أيما إتقان فمصر الصاخبة ، مصر الوادعة ، ومصر فى منتصف الليل ، ومصر فى الصباح ، كانت تنطق المناظر بعظمتها وجلالها. مصر أم الدنيا وملتقى جمال الشرق والغرب، كنت تشهدها كانك فيها وبين جمالها تحادث أبناءها وتلاطف فتياتها، تقطف أزهارها وتنعم بسمائها الصافية ، والريف مرتع الحب البرئ والجمال الذى لم يعرف التطرية ، الريف بنيله الباسم الجبار وسمائه الصافية الزرقاء وقمره السامى المضئ، وأشجاره المورقة التى تحتضن المحبين، ونسيمه العليل الذى يداعبهم ويهزأ بهم ، هى التى أخرجت عبد الوهاب وغير عبد الوهاب من الفنانين. وهل تستغرب على مصر نبوغ فنان والفن يغمر نواحيها ؟ كان كل هذا يظهر على الشاشة واضحا جليا غير أن الانتقال من منظر إلى آخر كان سريعا وكنت تشعر كانها مناظر من خلف التى تشاهدها يزاح عنها ستار.

والآن لنقل كلمة موجزة عن الممثلين :

من من النظارة لم يعجب بعبد القدوس فى دور خليل أفندى الباشكاتب ؟ وهل كان إلا ممثلا حقيقيا لحياة الكتبة ، ألم يذكرنا ببعض الشخصيات المحبوبة عندنا فى دور الحسابات، حيا الله أيامهم ؟ !

عبد الوهاب موهوب : رزق الصوت الجميل والحنجرة المرنة طوع مراده يموج بها اللحن فيذوب السامع فى طياته يعلو به ويهبط، وأنت تتبعه بروحك وتشعر بانك صاحب اللحن الملذوذ بجماله وسحره المكتوى بجمره.ليست حنجرة فقط وإنما أنامل رقيقة ونفس شاعرة . أنامل إذا عزفت تحرك لنغمها الجماد ، هى التى تستطيع أن تخرج نغمًا يجارى ذلك الصوت فى تموجه وفى رقته ، فبهذا الصوت وبهذه الأنامل وبهذا التلحين جاء عبد الوهاب لهذا العالم قطعة موسيقية ، وحسب الإنسان أن يكون موسيقى الحياة ، وحسب فيلم «الوردة البيضاء» تلك الموسيقى، وتلك المقطوعات الغنائية اللذيذة، ففيها لذة وفيها روعة وفيها نشوة وفيها ذكرى ولوعة» .

دموع الحب

وفى عام ١٩٣٥ أنتج عبد الوهاب وعرض فيلمه الثانى «دموع الحب» وفيه يعتمد على أشهر روايات المنفلوطى مباشرة ، وهى رواية «ماجدولين» للكاتب الفرنسى الفونس كار. فى «دموع الحب» يعمل محمد فكرى (محمد عبد الوهاب) موسيقارا أيضا ، كما فى «الوردة البيضاء» ، ونراه فى البداية متواضع الحال يعمل مدرسا للموسيقى ، ويتبادل الحب مع نوال (نجاة) ابنة أحد الأثرياء ، كما فى «الوردة البيضاء» تماما. تسافر نوال إلى لبنان حيث تلتقى مع حلمى (سليمان نجيب) صديق محمد. يرث محمد مالك المنزل الذى يسكن فيه ، ويصبح ثريًا ، ويبنى فيللا ليتزوج نوال ، ولكنها تتزوج حلمى وتذهب معه إلى باريس لقضاء شهر العسل.وهناك تكتشف نوال عدم إخلاص حلمى وإدمانه للخمر والقمار. يموت والد نوال وينتحر حلمى عقب خسارة كبيرة فى القمار. ينجح محمد ويصبح من كبار المغنين ، وعندما تذهب إليه نوال يرفضها ، فتنتحر ويغنى عبد الوهاب أمام قبرها «أيها الراقدون تحت التراب» .

بهذه القصة ، وتلك المعالجة ، يكاد «دموع الحب» أن يكون تكرارا للفيلم الأول «الوردة البيضاء» نتيجة النجاح الكبير لهذا الفيلم ، بل



عبد الوهاب

محمد عبدالوهاب وليلى مراد فى فيلم «يحيا الحب» عام ١٩٣٨



ويغنى عبد الوهاب فى «دموع الحب» ثمانى أغانى أيضا، وهى «يا إللى بتنادى» و «ما أحلى الحبيب»، و «تحية العلم»، و «قصر الأمانى»، و «سهرت منه الليالى» و «صعبت عليك»، و «كل اللى بينا»، ثم «أيها الراقدون تحت التراب».. وكلها من تلحينه وتأليف أحمد رامى ماعدا «سهرت منه الليالى» التى ألفها حسين شوقى ابن أحمد شوقى.

ولكن، وعلى العكس من الملف الصحفى لفيلم «الوردة البيضاء» يخلو الملف الصحفى لفيلم «دموع الحب» من أية مقالات. ولعل المعلومة الهامة التى ترد فى هذا الملف أسماء أعضاء فرقة عبد الوهاب الموسيقية بالكامل وهم: عزيز صادق، ويعقوب طانيوس، وحسن حلمى، وسيد كامل، والحاج يوسف متولى، وحسين النحاس، ومحمد العقاد، وصليبة القطريب، وإسماعيل العقاد، وفهمى محمد عوض، كما يلاحظ أن هناك مصممة خاصة للأزياء وهى صالحة أفلاطون شقيقة الفنانة التشكيلية إنجى أفلاطون. وصالحة أفلاطون من دون شك هى أول مصممة أزياء فى تاريخ السينما المصرية.

يحيا الحب

تم إنتاج فيلم «يحيا الحب» ثالث أفلام عبد الوهاب فى نهاية عام ١٩٣٧، ولكنه عرض فى بداية عام ١٩٣٨. وقد اختلف الفيلم تماما عن الفيلمين الأولين للفنان، فهو هنا ليس الموسيقار والمغنى محمد جلال فى «الوردة البيضاء»، ومحمد فكرى فى «يحيا الحب»، وإنما شاب عادى يدعى فتحى يعمل فى أحد البنوك حتى يعتمد على نفسه وليس على والده رضوان باشا، ولذلك يخفى أنه ابنه.

والقصة فى «يحيا الحب» بسيطة، وذات نهاية سعيدة كما فى أغلب الأفلام الغنائية المصرية بعد ذلك، حيث يتبادل فتحى الحب مع نادية (ليلى مراد) ابنة طاهر باشا (توفيق المردغلى) وابنة أخت شاكر بك (محمد عبد القدوس) مدير البنك الذى يعمل فيه فتحى من دون أن تعلم أنه ابن رضوان باشا (عبد الوارث عسر). يقع بين فتحى ونادية سوء تفاهم عندما تتصور نادية أنه على علاقة مع سهام (زوزو ماضى) وهى لا تدرك أنها أخته. وأخيرا تعرف نادية الحقيقة، ويعلن فتحى أنه ابن رضوان باشا، ويتزوجان.

تم تصوير «الوردة البيضاء» و «دموع الحب» فى باريس، وتم مكساج الصوت فى برلين، ولكن «يحيا الحب» كان أول فيلم من أفلام عبد الوهاب يصور فى ستوديو مصر الذى افتتح عام ١٩٣٥، ويقوم بمكساج الصوت فيه مهندس الصوت المصرى الرائد مصطفى والى رئيس قسم الصوت فى الأستوديو. وفيه قدم عبد الوهاب عشر أغان من تلحينه، تسعًا من تأليف أحمد رامى وقصيدة «عندما يأتى المساء» للشاعر محمود أبو الوفا. وفى «يحيا الحب» وبخلاف الفيلمين الأولين اشتركت مع عبد الوهاب فى تمثيل الدور النسائى الرئيسى مغنية وهى ليلى مراد، ولذلك هناك أغنيتان يشتركان فيهما معا «طال انتظارى» و «يادى النعيم اللى انت فيه يا قلبى»، وأغنيتان تؤديهما ليلى مراد وحدها «ياما رق النسيم» و«ويا قلبى مالك كده حيران». كما أن هناك أغنية «ياللى زرعتوا البرتقال» للمغنية رئيسة عفيفى، وهى لا تذكر فى الملف الصحفى للفيلم. أما الأغانى التى قام بأدائها عبد الوهاب وحده فهى «أحب عيشة الحرية» و «ياوابور قوللى رايح على فين» و «يا دنيا يا غرامى» و «الظلم ده كان ليه» إلى جانب قصيدة «عندما يأتى المساء».



مع فاتن حمامة فى يوم سعيد عام ١٩٤٠



محمد عبدالوهاب مع رجاء فى «ممنوع الحب» عام ١٩٤٢



يقول عبد الوهاب فى الملف الصحفى لفيلم «يحيا الحب»:

«يحيا الحب» مجهود ثالث أقدمه إلى وطنى. وأن ما قوبل به «الوردة البيضاء» و«دموع الحب» وقود يحفز على العمل باستمرار، ها هو «يحيا الحب» أمام الجمهور المصرى ليتتبع خطوات القافلة إلى الأمام والله المستعان.

وإذا كان لى أن أقول شيئا، فعن الموسيقى أتكلم «الموسيقى التى هى هدفى الأول».

نشأ للتجديد الموسيقى أعداء، كما ظهر له أصدقاء. فالأعداء يرون اقتصار الموسيقى المصرية فى حدودها وداخل دائرتها التقليدية التى عرفت من قديم، والأصدقاء لا يستسيغون طعما لهذه الموسيقى، ولا يطلبون إلا هدم القديم وبناء الجديد ولو على غير أساس. هذه هى الحال عندنا وهى حال أحس حيالها بواجب إبداء الرأى.

فالتجديد المطلوب إذًا لا يمحو الطابع، بل على العكس يستند بأمتن الأسس عليه. لهذا أعمل، وعلى هذا كونت فكرتى التى أسير عليها، ولا أترك وسيلة فى سبيل إظهار هذه الفكرة إلا طرقتها، وعندى أن السينما هى الإطار المناسب الذى يصح أن نبرز فيه أى صورة فنية

خصوصًا ونحن فى عصر الحركة والسرعة فى كل شىء».

ويقول محمد كريم فى نفس الملف :

«لا أبالغ إذا قلت أن المشتغلين فى صناعة السينما فى مصر ، يترقبون دائما ظهور أفلام عبد الوهاب ليروا ما فيها من جديد.

نعم سيشاهد الجمهور تطورا فى صناعة الإخراج ، وجديدا من الوجوه ، ومستحدثات ليس له بها عهد من قبل ، ولكنى أؤثر أن يلمس الجمهور كل ذلك بنفسه ، ثم يتحدث به ، ولكن هناك مسألة واحدة أقولها الآن، تلك هى أن هذا الفيلم ليس كأفلامى السابقة من حيث نوعه ، وإنما هو فيلم خلا من المآسى ولكن تزينه العظة، وشاع فيه المرح والبهجة وإن كانت لم تخرج عن البراءة والاحتشام.

إن كل من اشترك فى هذا الفيلم قد ضحى ، فإما أن يكون قد ضحى بمال وفير ، أو بأعصاب أرهقها ، أو بجسم أضناه وأتعبه ، ولكن هذه التضحية تنسى الآن بل نسيت بالفعل حيث إنها تحولت إلى لذة نفسية هى كل ما نقنع به ، وإنه لواجب علىّ أن تعودت أن أخرج كل أفلامى فى باريس ، أن أتقدم بالشكر إلى رجال ستوديو مصر حيث أمدونى بمساعداتهم الفنية فى إخراج أول فيلم لى فى مؤسستهم العظيمة ، وأخص بالشكر كبيرهم الصديق أحمد سالم ».

وتقول ليلى مراد فى نفس الملف :

«أنا أحب السينما كثيرا، وكنت أهتم بالا يفوتنى فيلم من الأفلام ، ولكن ما كان يخطر على بالى أنى ساظهر يوما على الشاشة البيضاء، إلى أن دعيت لتمثيل دور البطلة فى فيلم «يحيا الحب» مع أستاذنا الكبير عبد الوهاب ، فداخلنى شعور غريب هو مزيج من الفرح الشديد والرهبة الشديدة.

أدركت عندما وقفت أمام الكاميرا لأول مرة أن خوفى كان فى محله، وأن السينما فى الواقع متعبة مرهقة ، وآية ذلك أنه أغمى على أثناء التمثيل خمس مرات ، ولكنها فى الوقت نفسه لذيذة ، مغرية ساحرة.

النجاح فى السينما ـ مثل كل عمل فى الدنيا ـ ليس أمرا هينا، وأظن أنى نجحت، وليس هذا رأيى وإنما ذلك ما رآه مخرجنا كريم».

يوم سعيد

أنتج عبد الوهاب «يوم سعيد» نهاية عام ١٩٣٩ ، وعرض بداية عام ١٩٤٠، تحت عنوان «مجهود رابع» قدم عبد الوهاب الملف الصحفى للفيلم قائلا :

«أتقدم به إلى بنى وطنى الأعزاء ، وهو مجهود متواضع أرجو أن أكون قد وفقت فحققت بعض ما تصبو إليه نفسى من إرضائهم. ذلك الرضاء الذى لمسته قبل اليوم وكان لا يزال مبعث إقدامى ووحى إلهامى، بل كان خير دافع لى على المضى فى خدمة فنى وبلادى.

فنى الذى أحببته فعشت من أجله وبلادى التى أقدسها وفى سبيلها أعمل.

بنى وطنى : لقد توخيت فى هذه المرة أيضا أن أؤدى رسالتى على الوجه الذى يرضى ضميرى وعقيدتى واتخذت من حسن ظنكم بى مثلا أعلى للنهوض بهذا الفن إلى المستوى الجدير به.

أرجو الله تعالى أن يوفقنى دائما فى ظل جلالة مليكنا المعظم ».

فى فيلمه الرابع يعود عبد الوهاب إلى شخصية محمد الموسيقار والمغنى وهو هنا موظف صغير يعمل فى دائرة سهير هانم (إلهام حسين) ويتبادل الحب مع أمينة (سميحة) ابنة عاطف أفندى (عبد الوارث عسر) رئيس الدائرة ، ويعيش فى حجرة بمنزل الشيخ مصطفى (فؤاد شفيق) الذى يرعاه ، كما ترعاه ألطاف (فردوس محمد) زوجة الشيخ ، وابنتهما الطفلة أنيسة التى مثلت دورها فاتن حمامة فى أول أدوارها فى السينما. تحاول سهير هانم غواية محمد وإبعاده عن أمينة ولكنها تفشل ويتم زواج الحبيبين.

و «يوم سعيد» بهذه المعالجة يختلف عن رومانسية الفيلمين الأولين ، كما يختلف عن خفة «يحيا الحب» ، فهو يقوم بدور موظف من الطبقة الوسطى ، وليس ابن باشا يدعى أنه موظف من تلك الطبقة.

يقدم عبد الوهاب فى «يوم سعيد» ثمانى أغان كما فى الفيلمين الأولين ٦، منها يؤديها وحده : «طول عمرى عايش لوحدى» تأليف أحمد رامى ، و «اجرى اجرى اجرى ودينى قوام وصلنى» تأليف حسين السيد ، و «ايه انكتب لى يا روحى معاكى»، و «يا ناسية وعدى» تأليف عزت الهجين، و«يا ورد مين يشتريك وللحبيب يهديك» وقصيدة «الصبا والجمال» للشاعر اللبنانى بشارة الخورى (الأخطل الصغير)، وأغنية «محلاها عيشة الفلاح» تأليف بيرم التونسى بصوت أسمهان، والمقطع الذى لحنه من مسرحية شوقى «مجنون ليلى»، وأداه مع أسمهان.

ويشير الملف الصحفى للفيلم إلى أغنية تاسعة بعنوان «كده يا بلاش» تأليف بيرم التونسى ، ولكنها غير موجودة فى الفيلم. ومن الواضح أنها استبعدت قبل عرض الفيلم.

ممنوع الحب

أنتج عبد الوهاب وعرض فيلمه الخامس «ممنوع الحب» عام ١٩٤٢ وقدمه فى الملف الصحفى قائلا :

«باسم الله العلى القادر أقدم فيلمى الخامس «ممنوع الحب» وإذا كان الفضل لذويه فإن فضل إخراج هذا الوليد الخامس يعود إلى الجمهور الذى حبا أشقاءه الأربعة السابقة بجميل تقديره وتشجيعه.

وأرجو الله الرحمن الرحيم أن يشمل العالم برحمته وأن يعيد للعالم نوره وللحياة بهجتها ليجد الفن موطنه وجوه.

ولا أحب أن أقول شيئا عن الفيلم والجهود التى بذلت فى سبيل إخراجه وخاصة فى هذا الوقت وهذه الظروف.

ويكفى أن أقدم إلى الجمهور بقطعة من روحى وتفكيرى فى جو كل ما فيه حديد ونار.

رعى الله مصر فى ظل مليكنا المحبوب فاروق الأول حفظه الله».

أنتج الفيلم فى ذروة الحرب العالمية الثانية، وفى تقديم عبد الوهاب إشارة إلى ذلك فى دعوته الله سبحانه وتعالى أن يشمل العالم برحمته وأن يعيد للعالم نوره وللحياة بهجتها ، فهو يعبر عن موقف واضح ضد الحرب ، ويعتبرها شرطا يتيح للفنان أن يجد موطنه وجوه. كما أن موضوع الفيلم يعتبر ضد الحرب أيضا. فالكاتب عباس علام وهو من كتاب المسرح المصرى المرموقين فى عصره ، والذى كتب فيلمى عبد الوهاب الثالث والرابع ، يقدم فى «ممنوع الحب» معالجة مصرية لمسرحية شكسبير «روميو وجولييت» بل إن عنوان الفيلم «ممنوع الحب» يعبر أيضا عن مناخ الحرب القاتم الذى أنتج فيه.

كما فى «يوم سعيد» يقوم عبد الوهاب بتمثيل دور مهنى من الطبقة الوسطى ذات الأصول الريفية وهو المهندس المعمارى محمد الذى تصله فى القاهرة برقية من القرية تخبره بوفاة والده عبد الغفار (عبد الوارث عسر) وفى القطار يلتقى مع فكرية (رجاء) التى وصلتها برقية مماثلة بوفاة والدها على (حسن كامل). وعند الوصول إلى القرية يكتشف محمد ورجاء أنهما من قرية واحدة، وأن البرقيتين كاذبتان ارسلتا من أصحاب المصلحة فى استمرار خلاف قديم بين والديهما اللذين كانا على وشك الصلح. يتبادل محمد الحب مع فكرية ويقنع كل منهما والده بأن زواجهما من أجل الانتقام. يتم الزواج ، وعندما يكتشف الوالدان أنهما خدعا يحرمانهما من أموالهما ، ولكن محمد وفكرية ينجبان ثلاثة توائم ، ويتم الصلح بين الوالدين.

هذه المعالجة لمسرحية شكسبير تعبر عن دعوة عبد الوهاب للسلام فى ذروة الحرب ولعل السبب فى عدم ذكر «روميو وجولييت» فى العناوين أن عباس علام لم



عبد الوهاب

محمد عبد الوهاب وراقية إبراهيم فى رصاصة فى القلب



ياخذ من الأصل الشكسبيرى سوى فكرة الحب بين شابين من عائلتين متصارعتين ، ولكنه حولها إلى كوميديا بينما المسرحية تراجيديا.

يقدم عبد الوهاب فى «ممنوع الحب» إحدى عشرة أغنية، ٩ من تاليف حسين السيد واغنية «ردى علىّ كلميني» تاليف مامون الشناوى ، واغنية «ما كانش ع البال تشغل بالى» تاليف أحمد عبد المجيد، وكلها من تلحينه كما هو الحال فى كل أفلامه، ولكن من بين أغانى حسين السيد ٦ يؤديها عبد الوهاب : «بلاش تبوسنى فى عنيه» و«هليت ياربيع» و «يامسافر وحدك» ، و «يا اللى نويت تشغلنى»، واغنيتان لرجاء (رجاء عبده) «ح يحبنى» و «حا تفوتنى لمين» ، واغنيتان يشترك فيهما مع رجاء «يا اللى فت المال» و«آن الأوان » ، واغنية «يا مراكبى» أداء محمد أمين ، وهو المغنى الوحيد الذى اشترك مع عبد الوهاب فى هذا الفيلم وفى كل أفلامه.

رصاصة فى القلب

انتج عبد الوهاب «رصاصة فى القلب» عام ١٩٤٤ وعرض فى نفس العام ، وهو فيلمه الوحيد الماخوذ عن مسرحية لكاتب مصرى كبير وهو توفيق الحكيم الذى كتبها عام ١٩٣١.

اكتفى عبد الوهاب فى الملف الصحفى بتقديم الفيلم بكلمات مختصرة «محاولة أخرى اتقدم بها إلى الشعب المصرى الكريم وإلى الشعوب الشقيقة مع حبى وشكرى» وترك لتوفيق الحكيم ليكتب ما يلى فى الملف:

«لا شان لى بالسينما «كان هذا ردى دائما على كل من حاول إغرائى بإخراج رواية لى على الستار. ولعلى قلت ذلك أيضا لصديقى الأستاذ محمد عبد الوهاب. ولكنه جعل يهون علىّ الأمر، حتى وقعت أخيرا بين حبائل أو «شرائط» هذا الفن العجيب.

ولست أدرى بعد نتيجة هذه «الوقعة». فانا قد سبق لى أن أبديت رأيى فى الفن السينمائى ، وقلت إن الكاتب غير محتاج إلى الالتجاء إليه. لأن القلم كامل بنفسه ، لا ينبغى له ان يستند إلى اداة أخرى تعينه على التعبير، وإن عالم الكتابة مستقل بصوره ومخلوقاته ووسائل إخراجه ، إذ الكاتب فى الحقيقة ليس هو الذى يرصف جملا وينمق عبارات إنما هو ذلك الذى سيصنع عالما زاخرا بالأشخاص التى تحيا وتشعر وتسعى دون أن يحتاج فى إنشاء هذا العالم إلى غير قلمه وحده.

وبعد فإنى أرجو أن أكون على صواب. ولعل ما يدعونى إلى الرجاء هو حسن اختيار من وضعت فى أيديهم مصير «أشخاصى» وما من أحد يشك فى أنها أيد معروفة فى عملها بالصبر والكد والاجتهاد ، وإنه لمن الظلم أن أسهو عن ذكر تلك الجهود المضنية التى بذلها الأستاذ عبد الوهاب والمخرج الأستاذ كريم ومن عاونوهما خلال عامين طويلين لإعداد هذا العمل الذى يشاهده الناس اليوم فى ساعتين ، فإذا ظفروا بعد ذلك بنجاح فهو حقهم وجزاؤهم وثمرة مجهودهم ».

وفى نفس الملف كتب محمد كريم :

«إذا أتم الإنسان عملا من أعماله وفق مرامه وهواه فإنه يشعر بإحساسين.. إحساس الغبطة بتمام عمله ، وإحساس الأمل فى نجاح ما قام به واستفادة الجمهور منه.

ولكننى وقد أتممت فيلم (رصاصة فى القلب) وهو أول إنتاج للسينما من كاتبنا الكبير توفيق الحكيم أحس غبطتين ، وأستشعر املين.

فغبطتى بتمام عملى تصاحبها سعادة أخرى أتاحها لى من شاركونى فى مهمتى ممن لم أكن حظيت قبل اليوم بمشاركتهم.. فقد كان هذا الفيلم فرصة طيبة لى عرفتنى بإخوان أذكياء أكفاء، سررت بهم ولمست فيهم من الكفاية والمقدرة ما ملأنى فخرا بزمالتهم وسعادة بتوفيق الله فى معرفتهم.

وأما أملى فى النجاح فقد تضاعف بمقدار ثقتى بقوة الزملاء وبمقدار ما عرفت فيهم من الإخلاص للعمل والفناء فيه».

نشرت مسرحية «رصاصة فى القلب» لأول مرة فى كتاب «المسرح المنوع» عام ١٩٥٦ مع ١٩ مسرحية أخرى ، ويقول د. رمسيس عوض فى كتابه «توفيق الحكيم الذى لا نعرفه» عام ١٩٧٤ إن الحكيم كتب المسرحية بالعامية عام ١٩٣١ ، ولكنها لم تعرض على المسرح رغم موافقة الرقابة.

قدم عبد الوهاب فى الفيلم تسع أغنيات قام بتلحينها وغناء سبع منها وحده ، واثنتين مع راقية إبراهيم «حكيم عيون» و «حا اقولك إيه» من تاليف حسين السيد. أما أغانيه السبعة فهى: «مشغول بغيرى» ، و «الميه تروى العطشان » ، و «حنانك بى يا ربى» تاليف أحمد رامى، و «انسى الدنيا» تاليف مأمون الشناوى ، و «أحبه مهما أشوف منه» تاليف حسين السيد ، ثم قصيدة الشاعر اللبنانى إيليا أبو ماضى «جئت لا أعلم من أين».

لست ملاكا

الفيلم السابع والأخير من أفلام عبد الوهاب «لست ملاكا» الذى أنتج وعرض عام ١٩٤٦، كان فيلمه الوحيد الذى لم ينتجه ، وإنما أنتجته شركة «بيضا فطان» أشهر شركات الأسطوانات الموسيقية فى مصر والعالم العربى.

يمثل عبد الوهاب فى الفيلم شخصية رءوف المحامى الذى يلتقى مع يسرية (ليلى فوزى) ابنة حسن أبو الدهب (سليمان نجيب) صاحب مصانع النسيج ، ويشعر بالحب نحوها. أمين (محمود المليجى) صديق رءوف يتعهد بالحصول على موافقة يسرية على الزواج من رءوف مقابل أن يكتب له شيكا بعشرة الاف جنيه يصرف بعد الزواج. يخبر رءوف ابنة عمه الكفيفة سعاد (نور الهدى) انه يحب يسرية ، ولا يدرك أن سعاد تحبه ، يعمل رءوف مديرا لمصانع حسن أبو الدهب ويطلب الزواج من يسرية ويطالبه أمين بدفع قيمة الشيك ، فلا يستطيع. تسترد سعاد بصرها ، ويدرك رءوف أنها تحبه ، ويفضل الزواج منها.

فى لست ملاكا يقدم عبد الوهاب تسع أغان من تلحينه كلها من تاليف حسين السيد ما عدا قصيدة «الخطايا» للشاعر كامل الشناوى. من بين هذه الأغانى ثلاث مع نور الهدى :

« اضحكى وغنى » ، و «شبكونى ونسيونى قوام » ، و «كنت فين » ، واثنتان لها وحدها :

«مالك محتار » ، و «يا عيونى » ، وأربع يغنيها وحده : «القمح الليلة»، و«أنا اللى طول عمرى ما حبيت » ، و «يوم الاتنين » ، ثم «الخطايا».

وربما تكون قصة فيلم «لست ملاكا» الميلودرامية المضطربة سبب عدم تحقيق الفيلم نفس درجة النجاح الجماهيرى لأفلام عبد الوهاب السابقة ، وخاصة أن شخصيته فى الفيلم ضعيفة أمام المال ، ولا تعلى من شان الحب ، مثل شخصياته فى كل أفلامه الأخرى ، ولكن هذا لم يكن سبب توقفه عن صنع الأفلام عام ١٩٤٦. لقد عرف عبد الوهاب متى يبدأ فى السينما ، وعرف أيضا متى يتوقف قبل أن يبلغ سن الخمسين.

كتاب الزاوية

من كتابات حسين فوزى

الشخصية المصرية

فى تنقيبى عن الشخصية المصرية اكتشفت حقيقة أولية ، وهى ألا تعتمد على الثورات والاضطرابات وحدها كعلامة على يقظة القومية المصرية . وإنك لواجد أمثلة لهذه الثورات والاضطرابات على طول التاريخ المصرى : فى العهد القديم ، وبعد استتباب الأمر للبطالسة ، وإبان الحكم الرومانى والبيزنطى والعربى والعثمانى والفرنسى والأرنؤدى والبريطانى . بيد أن الثورات والاضطرابات لا تصور وحدها يقظة الوطنية المصرية . لأن المصريين أول من حذقوا ما يعرف بالمقاومة السلبية . وإذا كانت بعض حركاتهم القومية لم تعرف باسم «العصيان المدنى» . فكثيراً ما كانت كذلك فى الحقيقة كما سيجىء شرح ذلك .

ومصر لم تفن فى غزاتها ، بل إن غزاتها هم الذين يفنون فى مصر ، إن لم يكن بالطريقة التى ابتلعت بها الصحراء جيش قمبيز - كما قيل - فبوسيلة أفعل سحراً وأقوى أثراً . الغزاة يفنون فى مصر بالحياة : يتناسلون ويحكمون أجيالاً لينتهوا مجازاً إلى ما انتهى إليه جيش قمبيز فى الأسطورة . هم أيضًا يذوبون ، لا فى رمال الصحراء ، ولكن فى بوتقة الشخصية المصرية . وقد يفلح الملوك والحكام الأجانب حينًا فى الاحتفاظ بسماتهم الأجنبية ولغتهم ، ولكن ذلك يعد من قبيل الاستثناء الذى يثبت القاعدة ؛ والفناء الذى نقصد ، هو فناء الشعوب الغازية فى الشعب المصرى ، وهضم التربة المصرية لكل تلك الأجناس الغريبة ، التى قاومت ما استطاعت المقاومة ، ثم انتهت إلى ما انتهى إليه سابقوها .

ولا معدى لمن يعالج تاريخ مصر أن يدرس العقائد الدينية عن كثب ، حتى يفهم الشخصية المصرية . فقد كانت العقائد «قطب الرحى» فى كل الحركات القومية ، إلا فى حركة سنة ١٩١٩ .

"العولمة"
قد تصنع السعادة ولكنها لا تمنع التعاسة!

روبـــــــــرت رايـت



رغم كل ما نشهده من جدل بشأن العولمة، فحقيقة الأمر هي أن الجميع يتفقون على اثنتين من خصائصها. أولاهما: أنه يصعب كثيراً الوقوف في وجه العولمة. وقد اختار التقدمي ويليام جرايدر عنوانًا لكتابه الصادر ١٩٩٧ Ready or Not One World (عالم واحد، استعددتم أم لم تستعدوا)، ونحن نجد انه حتى اليسار ينظر إلى العولمة على انها شيء يجب ترويضه وليس قتله. الأمر الثاني هو أن العولمة تجعل العالم -بصورة عامة على الأقل - أكثر رفاهية. ولا تُنتقد العولمة لعجزها عن إنتاج المزيد من المواد، بل لأن إنتاج المزيد من المواد له الكثير من المساوئ، وخاصة فيما يتصل بالطريقة التي يتم بها توزيعها.

وهاتان الخاصيتان تتصلان ببعضهما: ذلك أن العولمة لا يكاد يقدر أحد على إيقافها، وذلك على وجه التحديد لأن وراءها اناسًا كثيرين عقدوا العزم على زيادة رفاهيتهم. فحاملو أسهم شركة «نايكي» يرغبون في زيادة ارباحهم عن طريق تخفيض تكاليف الإنتاج، وهو ما يعني التصنيع فيما وراء البحار. في الوقت الذي يريد فيه العمال الإندونيسيون زيادة دخولهم بانتقالهم من العمل في الحقول إلى مصانع «نايكي». أما عملاء «نايكي» فلا يريدون الحذاء ذا «النعل الهوائي» العام (موضة قديمة) فحسب، وإنما يريدون أحدث طراز من الأحذية ذات الكعب و«الهواء الزوم» في المقدمة - ناهيك عن «الحزوز المرنة للحركة المثلى».

وبما أن كل هؤلاء يسعون إلى تحديث مستوى معيشتهم، فإن ما تفعله اليد الخفية هو انها توقعهم في شبكة أكبر حجماً وأشد كثافة من الاستثمار والإنتاج. والطبيعة البشرية ذاتها - أي الرغبة الشديدة في جمع الموارد وعدم التخلف عن الأقران - هي ما يحرك الآلة التي تتولى تغيير شكل العالم.

ومما يؤسف له أن الطبيعة البشرية لها سجل سيئ في موقع السلطة. والمجال الذي قد يظن من يؤمن بأن البشر تحركهم أنانيتهم أن الطبيعة البشرية تتفوق فيه -حيث تساعد الناس على السعي بأنانية وراء رفاهيتهم - هو مجال للإخفاق المتكرر. وتشتهر البشرية بسعيها وراء الأشياء، مثل القوة والثروة، التي لا تجلب سعادة غير زائلة. فهل حاملو أسهم «نايكي» هؤلاء أكثر سعادة حقاً وهم يقودون سيارة «مرسيدس إس يو في» مما لو كانوا يقودون سيارة «هيونداي أكسنت»؟ هل كان من المحتمل أن يصبح بعض العمال الإندونيسيين أفضل حالاً إن هم لم يغادروا قط المزرعة والعادات الشعبية التي أثبت الزمن فعاليتها؟ هل كان من الممكن أن يعثر رياضي يمارس هوايته في عطلة نهاية الأسبوع على الرضا الدائم حتى بدون الحزوز المرنة للحركة المثلى في حذائه؟

إن هذا السؤال - وهو هل تجلب العولمة السعادة؟ - هو السؤال الذي ينبغي أن تساله، ومع أنه يعد الأساس لجانب كبير من جدال العولمة ويناقش في بعض الأحيان بلغة منمقة، إلا أنه نادراً ما تعامل معه أحد بجدية، ربما بسبب مراوغته المفترضة. وقد جمع علماء النفس مادة كثيرة عما يسعد الناس وما لا يسعدهم. وهذه المادة لم تأت فحسب من الطلبة المتطوعين في الجامعات الأمريكية: فقد أجريت استطلاعات «عبر ثقافية» ضخمة على مدى العقدين الماضيين. وأخذت تتضح أكثر وأكثر ماهية الظروف الاقتصادية والسياسية التي تجعل الناس يشعرون بالرضا بحظهم في الحياة.

وعندما نضع هذه المادة إلى جانب ما

نعرفه عن آثار العولمة الاقتصادية والسياسية، يصبح بالإمكان القيام بمحاولة مبدئية للإجابة عن السؤال الكبير: هل العولمة خير أم شر؟ إذا كنت إلهاً (ونفعياً) هل كنت ستتبنى سياسة عدم التدخل، تاركاً الرأسمالية الانتقالية يسيرها الطيار الآلي، أم كنت ستتدخل؟ وما هو شكل هذا التدخل؟ وما هي الطريقة التي يتم بها التحكم في العولمة، إن كان هناك لذلك التحكم من سبيل؟ إن قاعدة بيانات السعادة الخاصة» بعلماء النفس لا تجيب عن هذه الأسئلة، ولكنها تساعدنا في تدبر أمرها. كما أنها تساعدنا كذلك في نقض الحكمة التقليدية بشأن من يستفيد ومن يعاني في ظل تقدم العولمة.

السعي الكوني وراء السعادة

هل يجلب المال السعادة؟ اتجه علماء النفس إلى عشرات الأمم، الغني منها والفقير، وسألوا الناس عن مدى رضاهم بحياتهم. وكانت المحصلة أنه يبدو أن الأمم الفقيرة هي موئل التعاسة، وأن الأمم شديدة الغنى ليست هي بالضرورة موئل السعادة. فمن ناحية هناك صلة جلية بين الناتج المحلي الإجمالي لأمة من الأمم ومتوسط سعادة مواطنيها. إلا أن قوة هذه الصلة - في معظم الدراسات على الأقل - تكاد تأتي بالكامل من أمم في ثلاثة الأرباع الدنيا من مقياس الدخل. فما إن تبلغ أمتك مستوى معيشة مريحًا إلى حد ما، حتى يجلب المزيد من الدخل القليل من السعادة الإضافية أو يكاد. وفي الولايات المتحدة فيما بين ١٩٧٥ و١٩٩٥ ازداد الناتج المحلي الإجمالي بمقدار ٤٣ بالمائة، إلا أن معدل سعادة الأمريكيين لم يتزحزح.

والنقطة التي يتوقف المزيد من الثروة عندها عن إحداث المزيد من السعادة هي أن يكون النصيب السنوي للفرد ١٠ آلاف دولار - وهو تقريباً ما عليه الوضع حالياً في اليونان والبرتغال وكوريا الجنوبية. وزيادة على هذه النقطة، لا يبدو أن الدولارات الإضافية تبهج الأمم، وتتوقف الفروق القومية في السعادة على الأشياء غير الملموسة في الثقافة. فالأيرلنديون أسعد بكثير من الألمان واليابانيين والبريطانيين، مع أنهم أقل ثراء من هؤلاء جميعاً. وسعادة الدول الاسكندنافية غير العادية (من يصدق ذلك؟) لا يمكن إرجاعها إلى أي تفوق اقتصادي على الدول المتطورة. (أحد التفسيرات المحتملة هو أن الأمم ذات المستويات العالية من الثقة غالباً ما تكون أسعد. وتشير الاستطلاعات إلى أن الاسكندنافيين على قدر غير عادي من الثقة).

وهذه الحقيقة وحدها - وهي أن جعل الأمم الفقيرة أقل فقراً يبدو وكأنه يرفع مستوى السعادة، بينما جعل الأمم الغنية أكثر غنى لا يفعل ذلك - تستحق التأمل في ضوء العولمة. ولكن قبل تأملها، لابد أن نسأل إن كانت هذه الحقيقة راسخة بالفعل من الناحية المنهجية كما تبدو أم لا؟

أول كل شيء هو أن كل هذه الدراسات تعتمد على ما يقوله الأفراد أنفسهم عن رضاهم بالحياة. وقد تجادل لأسابيع إن كان هذا مؤشراً موثوقاً به للسعادة الحقة أم لا، دون الإلمام الدقيق بكل ما يتصل به من إشكاليات نفسية وسوسيولوجية ومعرفية. فهل هناك أي نوع آخر من الأدلة التي تمنح هذه التقارير مصداقيتها؟

نعم هناك. ولنتأمل على سبيل المثال ذلك الوجوم غير العادي الذي يسود الكتلة السوفيتية السابقة. ففي سنة ١٩٩٤، عندما نشرت مجموعة دراسة القيم العالمية ترتيباً لـ«الرضا بالحياة» حسبما جاء على ألسنة الأفراد أنفسهم في إحدى وأربعين دولة، كانت الأمم الأقل رضا على التوالي هي: بلغاريا وروسيا وروسيا البيضاء ولاتفيا ورومانيا واستونيا ولتوانيا والمجر. ولكن ألا يمكن أن يكون هذا مجرد خطأ في القياس تسببت فيه الشيوعية؟ ألا يمكن أن تكون عقود من الإدانات الرسمية للأنانية قد منعت الناس من الاعتراف بأنهم سعداء؟

وكما هي العادة، ألقى عالما النفس مارتن سيليجمان وجابريلي أوتينجن الضوء على هذه المسألة في الثمانينيات. فقد قاما بمراقبة سكان كل من برلين الغربية والشرقية وهم يعيشون حياتهم اليومية. كان أهل برلين الغربية يبتسمون ويضحكون أكثر من أهل برلين الشرقية وكانوا يتمتعون بقامة أكثر اعتدالاً منهم. ومن الواضح أن الألمان الشرقيين لم يكونوا يعانون من مجرد تردد رسخته الثقافة يحول دون الاعتراف بابتهاجهم لمن يقومون بالاستطلاع. بل إن الدراسات التي أجريت في دول عديدة أظهرت أن السعادة التي يأتي ذكرها على ألسنة الأشخاص أنفسهم لا ترتبط وحسب مع هذا السلوك الذي يلاحظ بطريقة ذاتية، وإنما بتقديرات الأصدقاء والأقارب وبأسئلة الاستطلاع التي تصل إلى السعادة بقدر أكبر من عدم المباشرة (كأن يكون ذلك عن طريق تحديد عدد الذكريات السارة التي يمكن للمرء أن يستدعيها).

والسؤال المنهجي الكبير الثاني هو إذا ما كان المردود الاقتصادي يغطي على المتغيرات الأخرى التي هي المصدر الحقيقي للسعادة أم لا. هل حقاً أن مفاتيح السعادة هي مجرد ما يمكن شراؤه بالمال - أي الطعام الأوفر، وماء الشرب الأكثر نظافة، والرعاية الصحية الأفضل، والإسكان الأكثر راحة؟ وكما أوضح ويليام ايسترلي من البنك الدولي في دراسة نشرت في العام الماضي، فإن الأمم الأغنى، مقارنة بالأمم الفقيرة، غالباً ما تتمتع بـ«قدر أكبر من الديمقراطية، وتعاني من قدر أقل من الفساد...ويكون فيها قدر أكبر من حكم القانون ونوعية بيروقراطية أرفع...والمزيد من الحريات المدنية، وقدر أقل من انتهاك حقوق الإنسان». وواقع الأمر أنك إذا نحيت الناتج المحلي الإجمالي ورسمت رسماً بيانياً لمستويات السعادة القومية مقابل مؤشرات الحرية المختلفة، فسوف ترى أن هناك علاقة واضحة.

ويشير إد دينر - وهو أحد باحثي علماء النفس الرواد فيما يتعلق بالسعادة - إلى أن الأمر سوف يحتاج إلى مزيد من الدراسة الأكثر تركيزاً لفصل أثر الثروة عن أثر حقوق الإنسان والديموقراطية. والعلاقة المتبادلة بين المتغيرات الاقتصادية والثقافية من القوة، وعدد نقاط البيانات من الصغر، بحيث يستحيل حتى الآن الفصل بين التأثيرين من الناحية الإحصائية.

ومرة أخرى، فإن قوة هذه العلاقة المتبادلة ذاتها قد تجعل المسألة موضع نقاش. فالواقع أن التطور الاقتصادي إن لم يؤد إلى تحسين المأكل والمأوى والطب وحسب، وإنما يسير جنباً إلى جنب مع المزيد من الديمقراطية وحقوق الإنسان، حينئذ قد يجعل التطور الاقتصادي الناس في الدول الفقيرة أكثر سعادة. واستناداً على الأدلة الحديثة المليئة بالحكايات من المكسيك وكوريا الجنوبية وتايوان، فإن التطور الاقتصادي يحسن الحياة السياسية في حقيقة الأمر (مع أن انتهاء الحرب الباردة شهد الديمقراطية وهي تصل إلى الدول الفقيرة، كما يشير ايسترلي.)

إن هذا السؤال - وهو هل تجلب العولمة السعادة؟ - هو السؤال الذي ينبغي أن تسأله. ومع أنه يعد الأساس لجانب كبير من جدال العولمة ويناقش في بعض الأحيان بلغة منمقة، إلا أنه نادراً ما تعامل معه أحد بجدية، ربما بسبب مراوغته المفترضة

الأغنياء (والفقراء) يزدادون غنى

قد يبدو أن احتمال زيادة الرفاهية - بصورة أو بأخرى - لسعادة الأمم الفقيرة بصورة ملحوظة يضفي على الحقبة الراهنة ضوءاً يتسم بالمفارقة. وعلى أية حال، فإن العولمة طبقاً لأحد الآراء الشائعة تغدق الرفاهية على الأمم الغنية، وغالباً ما يكون ذلك على حساب الأمم الفقيرة. وقد كتب الزعيم النقابي جاي مازور أن «العولمة قد زادت من التفاوت داخل الأمم وفيما بينها وبين بعضها»، وهو ما يصدق عليه لوري والاش وهو معارض للعولمة ذائع الصيت. بل إن لورا داندريا تايسون، المستشارة الاقتصادية القومية السابقة للرئيس كلينتون، كتبت مؤخراً إنه «في الوقت الذي زادت فيه كثافة العولمة، ازدادت الهوة بين دخل الفرد في الدول الغنية والفقيرة اتساعاً».

وهذه الملاحظات مضللة إلى أكبر حد. فأول كل شيء هو أن الأمم الفقيرة على الإطلاق صارت أقل فقراً. وحتى إذا عانت بعضها من الركود المخيف، فإن المردود الاقتصادي للدولة الفقيرة المتوسطة قد ازداد في العقود القليلة الماضية. وبطبيعة الحال فإن مازور ووالاش وتايسون يتحدثون عن الدخل النسبي - فصحيح أن الفجوة بين أغنى الدول وأفقرها قد اتسعت. إلا أنه من الصعب القول بأن العولمة هي المشكلة. فكما أظهر الاقتصاديان جيفري ساكس واندرو وارنر منذ عدة سنوات، وكما أكد اقتصاديون آخرون منذ ذلك الوقت، فإن الأمم النامية ذات الاقتصاد الأكثر انفتاحاً - وهي الأمم التي دخلت في نظام الاقتصاد الكوني دخولاً تاماً - تنمو بأسرع ما يمكن. أما الأمم الفقيرة الأكثر عناداً فيبدو أن سبب ما هي عليه من فقر هو تخلفها عن العولمة. وتساعد هذه النظرية في تفسير السبب في أن شرق وجنوب آسيا بتبنيهما للأسواق الكونية قد قللا من الفقر إلى حد كبير جداً، في حين كان حظ أفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى، التي تتميز بقدر أكبر من اقتصادات الدولة وبيئة سياسية لا تجتذب الاستثمار الأجنبي، من النجاح أقل.

وقد يقول قائل إن مستوى الرفاهية المتزايد بين الأمم النامية الأكثر انفتاحاً مضلل، لأن المواطنين الأكثر فقراً يتركون في المؤخرة، ومن المؤكد أن الأمم تزداد طبقية من الناحية الاقتصادية كلما ازدادت ثراء. إلا أنه رغم التأكيدات الواثقة التي يقدمها مازور ووالاش، لم يجد الاقتصاديون أن هناك اتجاهاً عاماً في النمو الاقتصادي إلى زيادة حدة التفاوت في الدخل. وفي الربيع الماضي نشر الاقتصاديان في البنك الدولي ديفيد دولار وآرت كراي دراسة لم تتناول آثار النمو الاقتصادي وحسب، وإنما تناولت على وجه التحديد أثر العولمة. وبعد تتبعهما لأمم ذات اقتصادات أكثر ما تكون انفتاحاً وعولمة خلال العقود العديدة الأخيرة، وجدا أنه في الوقت الذي ينمو فيه الدخل القومي، لم ينكمش ذلك الجزء من الكعكة الاقتصادية الذي يذهب إلى الخمس الأدنى من قياس الدخل. فالواقع أن المد المرتفع يحمل كل السفن.

وهناك سبب أخير في أن ادعاءات التباين المتزايد للدخل بين الأمم مضللة. فالأمم تتباين في حجمها، وتلك الأمم شديدة الفقر المتخلفة عن العولمة، التي تشكل العامل الأساسي وراء الفجوة المتزايدة بين الأمم الغنية والفقيرة، هي في الغالب أمم صغيرة، في حين أن الأمم الفقيرة التي في سبيلها إلى الثراء (مثل الصين) كبيرة جداً. وإنك إذا نظرت إلى العالم كما ينظر إليه إله نفعي - حيث تتجاهل الحدود السياسية وتركز على العدد الإجمالي للأنفس - فإن الصور ستبدو أكثر إشراقاً. وقد حسب برنارد واسو من مؤسسة «سنشري» أنه فيما بين ١٩٦٥ و١٩٩٧ ازدادت حصة أفقر ١٠ بالمائة من سكان العالم من الدخل العالمي بما يتراوح بين ٠.٣ بالمائة و٠.٥ بالمائة. وبالطبع فإن نسبة ٠.٥ بالمائة شديدة الانخفاض - وخاصة إذا علمنا أن أغنى ١٠ بالمائة زادت حصتهم في الوقت ذاته من ٥٠.٦ بالمائة إلى ٥٩.٦ بالمائة. ومع ذلك تظل الحقيقة هي أنه في سنة ١٩٦٥ كان متوسط دخل العشرة بالمائة الأعلى ١٦٠ ضعف العشرة بالمائة الأدنى، وبحلول ١٩٩٧ هبطت هذه النسبة إلى ١٢٧ ضعفاً. وهذه الحسبة تتضمن تلك الأمم الفقيرة ذات الاقتصادات المنغلقة المتخلفة عن العولمة.

وإننا حين نضع التقدم في مقابل الفقر بطريقة أقل تجرداً إلى حد ما، طبقاً لتقرير أصدره في شهر يونيو فريق من الوكالات متعددة الأطراف - مثل الأمم المتحدة والبنك الدولي ومنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية وصندوق النقد الدولي - نجد أن عدد من يعيشون على ما يقل عن دولار واحد في اليوم قد هبط بمقدار ١٠٠ مليون فيما بين ١٩٩٠ و١٩٩٨، ويظل الرقم مرتفعاً بصورة تدعو للدهشة - وهو ١.٢ مليار - ولكن لنتذكر أن الانخفاض جاء نتيجة ازدياد عدد سكان الدول الفقيرة بمئات الملايين.

وخلاصة القول هي أنه يبدو أن القياس التقريبي بالنسبة

هـل يجلب المـال السـعادة؟ اتجـه علمـاء النفس إلى عشـرات الأمم، الغنى منهـا والفقـير، وسألوا النـاس عن مدى رضـاهم بحيـاتهم. وكانت المحصـلة أنه يبـدو أن الأمـم الفقـيرة هى مـوئل التعاسـة، وأن الأمـم شـديدة الغـنى ليسـت هـى بالضـرورة مـوئل السـعادة



أوضح ويليام ايسترلى من البنك الدولى فى دراسة نشـرت فى العـام الماضى، فإن الأمـم الأغنى، مقارنة بالأمـم الفقـيرة، غـالباً ما تتمتع بـ قـدر أكبر من الديمقـراطية، وتعانى من قدر أقل من الفساد... ويكون فيها قدر أكبر من حكم القانون ونوعية بيروقراطية أرفع... والمزيد من الحريات المدنية، وقدر أقل من انتهاك حقوق الإنسان»

لفقراء العالم هو أنهم يقلون فقراً بالمعنى المطلق، ويقلون فقراً بالمعنى النسبى، طبقاً لبعض المقاييس. وكلما زادت عولمة الأمم الفقيرة، تحسنت أحوال أهلها بالمعنيين المطلق والنسبى.

وإذا وضعت هذه الاكتشافات إلى جوار بيانات السعادة، فإن التضمين يكون مغلوطاً بعض الشىء. فالفكرة الثابتة عن العولمة هى أنها شىء من صنع الأغنياء ولمصلحة الأغنياء ويقدم للفقراء. ومن المؤكد أن شعوب العالم الغنية تتخذ القرار المهم بشأن كيفية نشر رأس المال وكسب الأموال الضخمة من وراء العولمة. إلا أنه فيما يتصل بالمردود النفسى -أى ما يتعلق بالسعادة الحقيقية- فإن فوائد العولمة قد تبدو وكأنها تتجه بصورة كبيرة إلى الطبقات الدنيا فى العالم. وإلى الأمم التى يصل فيها متوسط دخل الفرد إلى ما دون ١٠ آلاف دولار. فعند هذا المستوى من الدخل القومى وحده يجلب المال السعادة بصورة مؤكدة.

والواقع أن الدول الغنية لا تعجز وحسب عن أن تكون أكثر سعادة عندما يزداد الدخل القومى؛ بل إنه فى الوقت الذى يثبت فيه مستوى سعادتهم المتوسط، فإن النسبة الصغيرة من السكان الذين يعانون من الأمراض النفسية الخطيرة تتسع. كما يزداد عدد من يعانون من الاكتئاب المزمن، وكثيراً ما يرتفع معدل الانتحار.

وبذلك يتضح أن جزءاً كبيراً من الحكمة التقليدية فى بعض الدوائر السياسية -وهو أن العولمة مفيدة للأغنياء وضارة للفقراء- ليس خطأ وحسب، وإنما خطأ بمقدار ١٨٠ درجة. فالعولمة، على الأقل من ناحية أثرها على الدخل وأثر الدخل على السعادة، مفيدة للفقراء وضارة للأغنياء.

استهلك! استهلك! استهلك!

هذا الأمر يجعلك تتساءل: لماذا يبذل الأغنياء كل هذا الجهد كى يزدادوا غنى، إذا كان هذا لا يجعلهم أسعد بحال من الأحوال ويجعل قلة منهم أكثر جنوناً؟ إن سلوكهم ليس غير معقول كما يبدو. وفهم هذه الحقيقة هو الخطوة الأولى لسبر غور الآلة المتناقضة التى تحرك العولمة. وهو كذلك أول خطوة نحو تقرير ما إذا كان ينبغى ترك العولمة للطيار الآلى، باعتبار ما لها من فوائد جلية للفقراء، أم لا.

وهناك داخل الأمم، كما هو فيما بينها، صلة بين الدخل والسعادة. وهذه الصلة ليست شديدة القوة -وهى بطبيعة الحال ليست من القوة بحيث نجبر أنفسنا على تصديقها. فالنشوة التى نشعر بها من زيادة الراتب، تتلاشى معظمها بسرعة إن لم تكن كلها، بعد أن نجتهد فى الحصول عليها، تاركة إيانا جائعين نبتغى المزيد. بل إنه فيما يتصل بالسعادة القومية، هناك مستوى لدخل الفرد يؤدى ما يزيد عليه من مال إلى تناقص النشوة النفعية مع كل دولار. (هذه النقطة فى الولايات المتحدة هى ٢٠ ألف دولار.) ومع ذلك فإن النشوة المقابلة لكل دولار لا تقل حتى تصل إلى الصفر. فالأمريكان ميسورو الحال أسعد حالاً بعض الشىء من مواطنيهم أبناء الطبقة الوسطى، وأسعد بكثير من الفقراء. والواقع أن هذه الصلة بين المال والسعادة قد تعنى فقط أن السعداء أكثر احتمالاً لكسب المال من الحزانى دوماً. إلا أنه لا يكاد يوجد بين من درسوا المسألة من يعتقد أن السببية تعمل فى هذا الاتجاه وحده. فكسب المزيد من المال يعنى فرصة جيدة لجعل الناس أسعد حالاً إلى حد ما على الأقل.

وهكذا فإنه إذا كان الأمريكيون الأفراد يزدادون سعادة عندما يزدادون غنى، فلماذا لا تزداد الولايات المتحدة مجتمعة سعادة عندما تزداد غنى؟ الإجابة التى يفضلها بعض علماء النفس، ومعهم الاقتصادى روبرت فرانك فى كتابه Luxury Fever (حمى الترف)، هى ببساطة: إن كثيرًا مما يسر الناس بشأن الدخل الأعلى هو أنه يعزز مكانتهم النسبية فى المجتمع. وهذا صحيح إلى حد ما - ذلك أن سعادتنا تنبع من مقارنة موقعنا فى الحياة بما عليه الآخرون -ثم إن ما يكسبه شخص ما فى أى مجتمع هو ما يخسره آخر.

ولنتأمل حالة إمبراطور الشحن اليونانى الراحل أرسطو أوناسيس، الذى أصر على أن تصنع الصنابير فى يخته من الذهب الخالص، وأن تُكسى مقاعد بار اليخت بقلفة الحوت شديدة النعومة (وهذا ليس من تأليفى). دعونا نتفق، بغرض تجريب الأفكار، على أن أوناسيس أثار إعجاب الناس بالقدر الذى رفع مكانته الاجتماعية، ورفع مستوى هورمون السيروتونين لديه، وزاد من إحساسه بالرفاهية. وبقدر ما حقق النجاح، قلل الوضع النسبى لمنافسه إمبراطور الشحن ستافروس نيارخوس. (ولا حاجة إلى القول بأن سعادة الحوت تأثرت هى الأخرى). وفى المجتمع اليونانى ككل، لم يكن هناك مكسب نفعى خالص.

ولهذه النظرية معناها فى ضوء علم النفس الارتقائى. وكما يشير فرانك، فقد صمم الاختيار الطبيعى مخ الإنسان فى سياق مجتمعات الصيد والالتقاط الصغيرة عندما كان الوضع الاجتماعى يرتبط بالنجاح التناسلى. وكان هدف المرء، من الناحية الداروينية، هو أن يكون فى موضع أعلى من منافسيه -أى جيرانه- على عمود الطوطم. وبطبيعة الحال كانت هناك نقطة قمة واحدة على عمود الطوطم، ونقطة رقم اثنان، وهكذا؛ والوضع الاجتماعى مورد محدود، ولا بد أن يكون مكسب أى إنسان على حساب شخص آخر. والتراث الحديث الخاص بكون أمخاخنا قد شُكّلت بحيث تلعب هذه اللعبة هو أن السعى إلى السعادة من خلال كسب المال، سواء داخل الولايات المتحدة أو اليابان أو فرنسا، هو فى المقام الأول لعبة محصلتها صفر. وهذا هو السبب فى أن الثروة يمكن أن ترفع مستوى السعادة بالنسبة لشخص أمريكى معين، بينما لا تفعل الشىء نفسه بالنسبة للولايات المتحدة ككل.

وعلى النقيض من ذلك، نجد أن محصلة هذه اللعبة داخل الأمم الفقيرة ليست صفراً إلى حد ما. فالشىء المؤكد هو أن الصلة بين الدخل الفردى والسعادة الفردية التى نجدها فى الأمم الغنية قائمة كذلك فى الأمم الفقيرة -بل إنها أقوى فى تلك الأمم. ولا شك فى أن بعضاً من تلك السعادة ينبع من القدرة على التفوق على المنافسين. ومع ذلك فإن محصلة اللعبة لا تكون صفراً تماماً بين المواطنين، لأن الناتج المحلى الإجمالى للأمم الفقيرة يجلب قدراً أكبر بكثير من السعادة. ففى الوقت الذى يكافح فيه الناس من أجل رفع مستوى معيشتهم، يحصلون على أشياء ترفع مستوى سعادتهم دون أن تنتقص شيئاً من سعادة غيرهم -كالتغذية المعقولة والرعاية الصحية. بل إن هؤلاء المواطنين الذين هم فى حراك لأعلى يدفعون بالأمة قاطبة نحو المزيد من حقوق الإنسان، والمزيد من الحرية السياسية، بل والمزيد من الديمقراطية -وهى جميعاً مكونات السعادة القومية.

ولهذا السبب نجد أن محصلة العلاقة بين الأمم الفقيرة والأمم الغنية ليست صفراً. فالأمريكيون من الطبقة الوسطى العليا، فى سعيهم من أجل الدخل والمكانة الاجتماعية، وفى عملهم وقتاً إضافياً للحصول على السيارة «فورد إكسبلورر»، قد يتدافعون من أجل الحصول على قطع من كعكة السعادة المحدودة تقريباً. ولكن جزءاً على الأقل من هذه السيارة

صنع في بلد من البلاد النامية، وعليه فإن بعضاً من الدولارات التي دفعوها ذهب إلى حيث يمكن للمال أن يشتري بحق المزيد من السعادة القومية. فالسعادة الخالصة خلقها السعي الأمريكي من أجل المكانة الاجتماعية - حتى وإن لم ينته المطاف بشيء من السعادة في الولايات المتحدة. وأي إله نفعي، لا يبالي بالحدود القومية، قد يسره هذا.

والمدهش أن العولمة تجلب السعادة عن طريق الحد من الفقر. إلا أن الحد من الفقر ليس هو كل ما تقوم به العولمة، وليس الدخل هو مقوم السعادة الوحيد. فالعولمة تؤثر كذلك على نسيج الحياة، وفي بعض الأحيان بنية الحياة نفسها، وهذان الشيئان هما ما يعتمد عليه قدر كبير من سعادتنا.

إن جزءاً كبيراً من الحكمة التقليدية في بعض الدوائر السياسية. وهو أن العولمة مفيدة للأغنياء وضارة للفقراء - ليس خطأ وحسب، وإنما خطأ بمقدار ١٨٠ درجة. فالعولمة، على الأقل من ناحية أثرها على الدخل وأثر الدخل على السعادة، مفيدة للفقراء وضارة للأغنياء

ولابد أن ندرك أن تلك العلاقات المتبادلة عبر القومية بين السعادة والناتج المحلي الإجمالي لا تشي لنا بشيء عن التأثيرات «التحديثية» لعملية التحديث. فالأمم التي في أعلى سلم الدخل وعلى أعلى قدر من السعادة هي في الغالب امم - في أمريكا الشمالية وغرب أوروبا - مرت بالتحول من المجتمع الزراعي إلى المجتمع الصناعي منذ زمن بعيد، وكان لديها الوقت الكافي لالتقاط أنفاسها. والشيء المؤكد هو أنه من حسن الطالع أن الأمم الأقرب عهداً بالتحديث، مثل كوريا الجنوبية وتايوان، تبدي هي الأخرى مستويات مرتفعة إلى حد ما من السعادة. ومع ذلك، ورغم كل ما نعرفه، فإن السرعة الحالية التي يمضي بها التحول قد تسبب لكثير من الأمم المحدثة قدراً من التشويش يقضي على السعادة التي يأتي بها الدخل المتزايد.

وكانت مثل هذه المشكلة في ذهن عالم الاجتماع الأمريكي ويليام أوجبرن في أوائل القرن العشرين حين صاغ مصطلح «التخلف الثقافي». ويحدث التخلف الثقافي عندما تتغير الثقافة المادية بسرعة بحيث تتخلف الثقافة غير المادية (كالحكم والمعايير الاجتماعية والبنى الأخلاقية) تخلفاً خطيراً. وبعض نماذج العولمة الخاصة بالتخلف الثقافي حية وتناقش كثيراً. فعلى سبيل المثال يسابق التلوث الذي يلف مدينة مثل مكسيكو سيتي أو بانكوك قدرة الحكومة أو استعدادها لحل المشكلة. وتقل بعض جوانب «التخلف الثقافي» الأخرى وضوحاً، وإن كانت على نفس القدر من الأهمية على الأقل.

ولننظر إلى الأصدقاء وأفراد العائلة الواحدة. إننا نجد أن الروابط الاجتماعية القوية والحميمة تساهم مساهمة قوية في تحقيق السعادة. وفي استطلاع أجري في الولايات المتحدة، ظهر أن المستجوبين الذين أمكنهم ذكر خمسة أشخاص على الأقل كانوا قد ناقشوا معهم أموراً ذات أهمية شخصية خلال الستة أشهر الأخيرة يزيد احتمال قولهم أنهم شعروا بأنهم «سعداء جداً» بمقدار ٦٠ بالمائة عن هؤلاء الذين لم يمكنهم ذكر أحد بالمرة. كما أن الأشخاص الذين لديهم أصدقاء وأقارب يتعاملون كذلك بطريقة أفضل مع الضغط العصبي والمرض ونكسات العمل.

ويمكن للانتقال من المجتمع الزراعي للمجتمع الصناعي أن يربك البنى الاجتماعية المتأصلة فيها الأواصر الاجتماعية، وهي حقيقة ساطعة الآن في أنحاء العالم النامي. ففي البرازيل يستيقظ العامل في «القطاع غير الرسمي» كل يوم ويستقل الأوتوبيس إلى المنطقة الصناعية، ثم يبدأ السير عائداً إلى المنطقة العشوائية التي يقيم فيها، ويتوقف أثناء عودته عند مواقع العمل أملاً في الحصول على بعض ساعات العمل. وفي حال نجاحه، فإنه قد يقضي اليوم بين الأغراب؛ أما إذا أخفق، فإنه يقضيه بمفرده. وفي الهند، يكتب الصحفي روبرت كابلان عن «مخيمات المصانع الملوثة القذرة»، حيث عشرات الملايين من المهاجرين الذين لم يعودوا ملتزمين بمعايير القرية الريفية وقد «انقضت عليهم إغراءات المدينة غربية الطابع - حيث السيارات الفاخرة والنوادي الليلية والعصابات وأفلام الجنس».

وبطبيعة الحال، مرت الأمم الحديثة بتحول شبيه إلى حد ما - وبقيت شاهدة على ذلك. ففي الولايات المتحدة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، عندما انتقل الشباب والشابات من المزرعة للمدينة وأصبحت أماكن العمل أكبر حجماً وأكثر موضوعية، كان هناك إحساس ملموس بالأزمة الاجتماعية. ومثالا البرازيل والهند يذكرانا بعشوائيات الطبقة العاملة في بداية القرن بالولايات المتحدة، حيث كان المهاجرون الريفيون البعيدون عن عائلاتهم يحاولون انتزاع لقمة العيش بين المرض والفساد وأشكال جديدة من الإغراء. إلا أن الأمريكيين بحلول الحرب العالمية الثانية كانوا قد نجحوا ولو جزئياً في نسج نسيج اجتماعي جديد - حيث شيدوا الأحياء الحضرية المستقرة، وأسسوا النوادي الاجتماعية والجماعات المدنية.

ومع ذلك تواجه الأمم النامية في وقتنا الراهن هذا التعديل بسرعة غير عادية: فبعضها يبدأ وهو أكثر زراعية من الولايات المتحدة في أواخر القرن التاسع عشر ولا يطلب منه الدخول في عصر الصناعة وحسب، بل في عصر الإلكترونيات - وهو العصر الذي تكافح حتى الأمم «الحديثة» كي تتماشى معه. فالمعروف في الولايات المتحدة أن عالم السياسة روبرت بوتمان

.. لماذا تبدو العولمة مخيفة؟

جي باسكال زاكاري

الخوف يباع، ونحن دائماً نُسَوِّقه. والشك في أن دماراً ما ينتظرنا عند الناصية التالية يشكل وعينا بكل شيء ابتداء من وباء الإيدز، والأطعمة المعدلة وراثياً، وارتفاع درجة حرارة الأرض، حتى الحقيقة الواقعة الخاصة بتعميق ونشر الصلات بين الناس والأماكن في أنحاء العالم. وبينما يستغل تجار الخوف - لأسباب مفهومة - شبح الأوبئة التي لا يمكن السيطرة عليها، وعش الغراب المسخ، والطقس الذي يزداد سوءاً، فإن سبب ذلك القدر الكبير من القلق الذي تثيره العولمة أقل وضوحاً. والواقع أن مراجعة سريعة للمخاوف الرئيسية التي تثيرها العولمة تشير إلى وجود عدد أقل من الأسباب للقلق مما يظنه الكثيرون.

موت الهويات القومية:

هذا الافتراض من الرعب - ومن القبول على نطاق واسع - بحيث يبدأ كل نقاش حول العولمة بالإعلان عن القلق منه. فنحن نخشى آثار العولمة التي تؤدي إلى التجانس. كما أنه ينتابنا القلق من أن يتكالب المهاجرون على أهل البلاد ويقضون على جهود حماية التراث. ولكن العولمة يمكن أن تنعش الهوية القومية. فالذين يعبرون عن تقاليدهم الاجتماعية والثقافية المميزة يزيد عددهم وعدد بلادهم في الوقت الراهن على أي وقت منذ فجر الاستعمار الأوروبي قبل خمسمائة سنة. باختصار، فإن تحديد الهوية المحلية في مواجهة الهوية الكونية يزيد من حدة الأولى. وبالمناسبة، فإن الهويات القومية مراوغة. ولذلك فإن وجود مصدر دولي للخطر أمر مفيد. ولننظر إلى الطريقة التي بث بها النشطاء الثقافيون الفرنسيون الحيوية في تقاليدهم عن طريق الهجوم المتكرر على «ديزني» و«ماكدونالدز».

كلهم غرباء:

هذا هو الجانب الآخر من الخوف الأول. ألن يفقد المهاجرون هوياتهم - بتشجيع من قدرتهم على حمل جوازات سفر متعددة وولاءات كثيرة لدول شتى؟ كلا. فكما أنه يمكن لـ«مواطني» الغرب الأوسط الأمريكي أو سنغافورة الانفتاح على العالم دون التضحية بجذورهم، يمكن كذلك للمهاجرين أن يضيفوا «أجنحة»، وأن يحتفظوا بأساليب التفكير والعمل الأصلية، في الوقت الذي يتبنون فيه ممارسات أوطانهم الجديدة. وتلك هي الحياة عندما تكون الجذور قابلة للنقل، ولا تكون الأجنحة أعداء للتميز. وتعني سهولة السفر والاتصال، مع مقاومة حكومية أقل لاحتفاظ المواطنين بصلات وثيقة ببلادهم الأصلية، أن بإمكان عدد متزايد من الناس التركيز على تقاليده عندما يرغب ويساهم في المجتمع الدولي عندما يناسبه ذلك؛ فيمكن لأية أسرة نيجيرية أن تقرأ الصحف المحلية، وتستمع إلى الإذاعة المحلية، وتستهلك الأطعمة المحلية - كل ذلك وهي في بيتها في لندن. وهذه القدرة على الجمع بين الأطر الثقافية تمثل تقدماً مدهشاً، أكثر منها عرضاً من أعراض انفصام الشخصية أو النفاق.

كوسوفو آتية إلى حيكم:

الذين يشعرون بالقلق من التشابه الزائد عن الحد هم أنفسهم من يخافون كذلك من الاختلاف الأكثر من اللازم. وهؤلاء الفزعون يرون أن الأمم، أو بالأحرى العالم، على شفا حرب قبلية، حتى وهم يدينون انتشار التوحد الذي لا سبيل لصده. فأنى لهاتين القوتين أن تتعايشا؟ إنهما لا تتعايشان. ذلك أن النزعة القبلية تزدهر في الأماكن التي يقل فيها الاتصال بالعالم الخارجي إلى حد كبير (مثل سيبيريا ورواندا)، ولا يكون الاتصال فيها أكثر مما يجب. واختلاط الشعوب ببعضها هو نقيض النزعة القبلية، كما أنه بمثابة أفضل دفاع ضد الصراع الاجتماعي. فكلما ازداد تنوع أي مجتمع كان أكثر أماناً.

وأحسن طريقة لقياس أي مجتمع هي كيفية تعامله مع الاختلاف. ولا بد أن يتفق دعاة العولمة ودعاة الأقلمة على أنه لا بد أن تكون غايتهم الرئيسية هي ضمان الاختلاف.

الكبير يلتهم الصغير:

إن تكنولوجيات الإنتاج والتوزيع التي تمكن الشركات الكبرى متعددة الجنسيات التي لا جذور لها هي كذلك ما يجعل انتشار المنتجين الصغار الذين يبيعون للأسواق الأكبر ممكناً. فالأمم الصغيرة تستفيد بنفس الطريقة التي يستفيد بها صغار المستثمرين؛ فحقيقة الأمر أنه بعد قرون من التخلف، كثيراً ما تفوق الدول الصغيرة في الوقت الراهن الدول الكبيرة، من حيث أدائها الاقتصادي. وإلا فكيف يمكن للمرء تفسير السبب في أن معدل النمو في أيرلندا واحد من أسرع معدلات النمو في أوروبا، وأن معدل البطالة في أيسلندا هو أقل معدل بطالة في أوروبا، وأن فنلندا أصبحت رائدة دولية في تكنولوجيا المعلومات؟

سلطة عظمى لمؤسسات كونية:

معذرة. قد تكون منظمة التجارة العالمية هي أعلى المؤسسات، ولكن إدارتها الخرقاء عوقت تحرير التجارة - ولم تخلق «نظاماً عالمياً جديداً». ولا يجرؤ صندوق النقد الدولي على التدخل كونياً، بعد معالجته غير النزيهة للأزمات المالية الآسيوية والروسية. كما أن قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة فشلت فشلاً ذريعاً في البلد تلو الآخر. وإذا كانت الحكومات القومية في سبيلها لأن تفقد السلطة، فلا يعود هذا إلى ظهور الدول السوبر الخفية؛ بل إن مرجعه إلى أن الساسة (والنشطاء) المحليين صارت لهم السطوة.

انظر إلى هذه المخاوف الخمسة من حيث علاقتها ببعضها ولن تبدو العولمة مخيفة. صحيح أن القلق أمر لا بأس به. ولكن القلق كمحفز على التحسين يكون أثره أفضل عندما يوجه نحو الأشياء الصحيحة.



(مؤلف كتاب Bowling Alone) اللى باللائمة على التليفزيون لمساعدته فيما لحق من اهتراء بالنسيج الاجتماعى الخاص بعصر الصناعة الذى نسج حديثاً، وتآكل كل شيء من المشاركة المدنية حتى القيام بالنزهات. (وبالمناسبة فإن من يشاهدون الكثير من برامج التليفزيون تعساء إلى حد كبير، وإن كان السبب فى ذلك هو أن التعاسة هى التى تقود الناس إلى مشاهدة التليفزيون.)

ومن الناحية النظرية، قد تبدو التكنولوجيات الإلكترونية الجديدة - كالمايكرو كمبيوتر والمودم - وكأنها ما أمر به الطبيب على وجه الدقة. وهى على عكس التلفزيون أدوات اتصال، بل وصداقة عبر المسافات البعيدة. غير أن هناك أسباباً للشك فى أنها سوف تجلب القدر الكبير من النعم لجزء من العالم فى أى وقت على المدى القريب.

أحد هذه الأسباب هو أن مقاهى الإنترنت لم تكن جزءاً من البيئة التى نشأ فيها الإنسان العاقل. فالأمر الطبيعى أننا نحصل فى الغالب على الإشباع الاجتماعى من الاتصال المباشر، وليس من خلال جمل على شاشة الكمبيوتر. بل يبدو أننا نشأنا فى سياق مجتمعات صغيرة وحميمة كانت تتيح الفرصة للروابط الاجتماعية طويلة الأمد: فما نريده ليس مجرد «أصدقاء» بمعنى «المعارف» أو حتى «الزملاء». (ويرى أحد باحثى علم النفس الارتقائى أنه من غير المستغرب أن الجنود الأمريكيين الذين قسموا إلى فرق تضم كل منها اثنى عشر جندياً مع العضوية الثابتة، كانوا أصح عقلياً وأسعد بما يكلفون به من أعمال من الجنود الذين ألحقوا بمجموعات كبيرة مع عضوية غير ثابتة). وفى الوقت الذى تعرض فيه تكنولوجيا المعلومات إمكانية الاتصال الحميم، فإنها كثيراً ما لاتتيحه.

ولتنظر فقط إلى كل الأسماء التى يتضمنها دفتر عناوين البريد الإلكترونى الخاص بك. قد تكون على اتصال جيد بها، ولكن «على اتصال جيد» لا تعنى «على صلة عميقة». إنها تعنى اتصالاً على نطاق واسع وضحل. فأنت تتصل بأناس كثيرين عبر قنوات ضيقة من الاهتمام المشترك، وتعرف عدداً قليلاً منهم معرفة جيدة. وطبيعى أن مختلف الناس يستعملون التكنولوجيا بطريقة مختلفة، وقد تتنوع قدراتكم. ولكن كثيرين يرون أن البريد الإلكترونى يبقى وحسب على الاتجاه - الذى وصفه ريسمان سنة ١٩٥٠ فى كتابه The Lonely Crowd - بعيداً عن الثبات بقوة فى الأقارب والأصدقاء الموثوق بهم، ويجره نحو سطحية الشبكات الاجتماعية الواسعة والفعالة. وفى هذا العالم الذى وصفه ريسمان، ازدادت معدلات الاكتئاب والانتحار.

وتعزز تكنولوجيا المعلومات كذلك سرعة زوال مكان العمل التى نلاحظها كثيراً. فالاتصال السريع يسهل على الشركات العثور على عمال مؤقتين، وييسر على المديرين الذين يحصلون على رواتب أقل مما يجب العثور على قيمتهم السوقية الكاملة فى شركة أخرى - وييسر بصفة عامة على الكفاءة الاقتصادية الاستفادة كأحسن ما يكون من الاستقرار الاجتماعى. وطبقاً لما أظهرته دراسة نشرتها شركة الاستشارات «ماكنزى أند كومبانى»، فإن عدد الشركات التى سبق للمدير المتوسط العمل فيها ازداد خلال العقد المنصرم من ثلاث شركات إلى خمس. وهناك أناس كثيرون لا يعملون بالمرة فى شركات بالمعنى التقليدى للشركات - فهم يتعاقدون معها وحسب. وجعلت ثقافة «العميل الحر» الناجمة عن ذلك كثيراً من الناس أكثر ثراء (وخاصة هؤلاء ذوو مستويات الدخل التى لا يجعلك عندها المال أكثر سعادة بحال من الأحوال) عن طريق جعل بيئتهم الاجتماعية أقل رسوخاً.

وفى العولمة يوزع الاستشاريون والمحامون ومديرو الشركات وقتهم بين الكثير من الدول، حتى يكاد لا يكون لهم وطن. وهذه هى الطبقة التى سميت «الكوزموقراطيين» فى كتاب A Future Perfect، وهو كتاب حديث عن العولمة من تأليف جون ميكلثويت وأدريان وولدريدج. وأنا دائماً أجد مشكلة فى التعاطف مع من يكادون لا يسافرون. وقراءتى لما جاء فى الكتاب من وصف للكوزموقراطيين - الذين هم «نخبة قلقة، تواجه «مخاطر ألا يكون لهم بيت» - لم تنجح فى انتزاع دمعة واحدة من عينى. ومع ذلك فإنه صحيح أن الكثيرين من الكوزموقراطيين يعيشون فى شبكة واسعة وغير ثابتة من الصلات التى تفتقر إلى العمق. ونحن لم نعرف بعد إن كان ذلك سيجلب سعادة طويلة الأمد أم لا. ولكننا نعلم أن هذه ليست هى الطريقة التى خُلق البشر ليحيوا بها.

ومن المهم الاحتراز من المبالغة فيما نستنتجه من احتمالات خاصة باتجاهات عصر المعلومات هذه. ففى كثير من الحالات لا تكون هناك أهمية كبيرة للاستنتاج بالمرة. إذ لا يزال عصر المعلومات والعولمة صغيرين. وبينما تنتشر شبكة الإنترنت فى أنحاء العالم جاعلة صور الفيديو الكومبيوترية أكثر عملية، وجاعلة «الوجود عن بعد» واقعياً أكثر وأكثر، فإن الشبكة يمكنها كذلك أن تصبح وسيلة أكثر إشباعاً، بل وتسمح للنخبة «التى لا بيت لها» أن تكون على صلة عميقة مع مجموعة أساسية من الأصدقاء المقربين.

ولكن هناك قاعدة بشأن تكنولوجيا المعلومات المتطورة لابد من قبولها، مهما اتسع النطاق - وهى القاعدة التى تؤكد مخاطر «التخلف الثقافى». فبما أن وسائل الاتصال التى تزداد قوة على قوة تزداد فى الوقت ذاته رخصاً، فإن الجماعات والأشخاص الذين تربطهم مصالح مشتركة سوف يجدون تنظيمهم أكثر سهولة. وفى معظم الحالات سوف يكون هذا مدهشاً - أو على الأقل لا بأس به. ولكن فى عصر يجعل فيه التحول الاجتماعى السريع بعض الجماعات تشعر بقدر كبير من الضيم، فإن هذه القدرة الجديدة على التعبئة سوف تؤدى هى الأخرى إلى مشاكل.

ولندع الضيم، جديده وما سيأتى فى المستقبل، جانباً. فهناك ما يكفى من الجماعات التى تعانى من ضيم طال أمده - كالأكراد والباسك والمسلمين الصينيين والأقليات الإندونيسية - وسوف يتلوه دمار حقيقى، بسبب القدرة المتزايدة على الوصول إلى تكنولوجيات التنظيم الفعالة والعتاد الحربى القوى. وعندما نضيف ردود الأفعال المضادة التى تعززها العولمة - بين الميليشيات فى قلب الولايات المتحدة، والقوميين المتعصبين فى روسيا، والأصوليين الإسلاميين المنسلخين فى أنحاء العالم - تصبح الصورة أكثر رعباً.

والشيء المؤكد هو أن التهديد الذى تمثله تكنولوجيات المعلومات للقوى المركزية المتحصنة يخدم القضايا العادلة فى كثير من الأحيان، وخصوصاً قضيتى الحرية والديمقراطية. إلا أن التحسين السياسى نفسه قد يحدث اضطراباً شديداً عندما يأتى بغتة. وكان أدنى مستوى للسعادة القومية فى جمهورية الدومينيكان سنة ١٩٦٢، ولم يكن قد مضى وقت طويل على اغتيال الدكتاتور رفاييل تروهيو الذى كان الأول ضمن سلسلة من الخطوات نحو الديمقراطية. وإذا تركنا بيانات الاستطلاعات جانباً، فإنه عندما يسفر الاضطراب السياسى عن أعداد كبيرة من القتلى، فإن أناساً كثيرين لا يعودون سعداء للأبد.

أعطها وقتها

سئلت يوماً المؤلفة دوروثى باركر إن كانت تستمتع بالكتابة فأجابت: «لا. إنى أستمتع بالانتهاء من الكتابة». وهكذا ترتبط السعادة أحيانا بالتطور التاريخى. وقد يتضح أن الانتهاء من العولمة أكثر متعة من العولمة. ومع أن غايات العولمة جيدة فى الأساس - مثل الحد من الفقر وتعزيز الديمقراطية والحرية - فإن عملية العولمة يمكن أن تكون مكلفة من الناحية الإنسانية، وخاصة عندما تمضى بسرعة كبيرة.

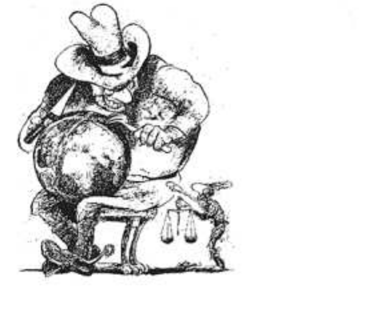
ولكن ما العمل، إذا كان المقصد طيباً والرحلة محفوفة بالمخاطر؟ أحد السبل هو قطع المسافة على ما فيها من مشقة. ومن المؤكد أن النصيحة الجيدة كان يمكن أن تكون: اجلسى واكتبى العمل ولتنسى ما عانيت من آلام عند فرحتك بما أبدعت! غير أن هناك فرقاً. فالكتابة ليست أشد إيلاماً فى سرعتها عن بطئها. ولكن يمكن أن يكون هذا هو حال العولمة. فمع التغير التكنولوجى والاجتماعى، يمكن أن تكون هناك انقطاعات فى التسلسل: فبالإضافة إلى السرعة الحاسمة، قد يفرض عظم الحجم آثارًا جانبية سلبية.

ومن بين هذه الأسباب القدرة المتزايدة على الوصول إلى التكنولوجيات المدمرة، وأبرزها الأسلحة البيولوجية والنووية. ولكن حتى الحقب الماضية حيث أشكال القتل الناتج عن التكنولوجيا الأقل تقدماً تعد شاهداً على الخسارة التى يمكن أن تلحق بالتاريخ عندما ينطلق بسرعة كبيرة. فلأن الثورة الصناعية، التى نضجت بصورة تدريجية إلى حد ما فى أقصى الغرب الأوروبى، انطلقت مسرعة ناحية الشرق فى أواخر القرن العشرين، فقد أحدثت تشويشاً اجتماعياً حاداً فى الأرض الألمانية وروسيا. والواقع أنه ليس من الجنون أن ننظر إلى النزعة القومية الألمانية البغيضة فى القرن العشرين وعهد الرعب الخاص بستالين على أنهما نتيجتان طويلتا المدى لهذا التغير المفاجئ؛ وعليه فإنه ليس من الجنون أن ننظر إلى المعاناة الحالية فى الكتلة السوفيتية السابقة - وهى أتعس مكان على ظهر الأرض - على أنها الإرث الذى يصعب علاجه لعولمة القرن العشرين المبالغ فى سرعتها.

ما الذى ينصح به الإله النفعى إذن؟ أشك فى أن النصيحة ستكون هى تهدئة العولمة بصورة متقلبة. إذ يبدو توليف سرعة التاريخ أعلى من قدرتنا البشرية. ومع ذلك فقد ينبغى علينا النظر بمزيد من التعاطف إلى الأفكار السياسية المقبولة ذات المنطق الداخلى، التى ربما كان لها أثر جانبى يحد من سرعة العولمة بصورة طفيفة.

ولنتأمل خطة روبرت فرانك لتهدئة حمى الرفاهية. ولنتذكر أنه طبقاً لتحليل فرانك، يلعب الناس فى الدول الغنية الذين ينشدون السعادة عبر المال والمكانة الاجتماعية لعبة صفرية النتيجة. ولكن هذا لا يعنى أن التماس السعادة بأية وسيلة حصيلته صفر؛ فإنك إذا أمضيت المزيد من الوقت مع الأصدقاء، فسوف تشعر أنت والأصدقاء بتحسن، ولن يعانى أحد من شيء.

ويتساءل فرانك: ولكن أنى لذلك الذى لا يهدأ سعيه التماساً للسعادة أن يجد الوقت الذى يقضيه مع أصدقائه؟ فإنك إذا اقتطعت شيئاً من ساعات عملك، قد يقل دخلك وتتدنى مكانتك؛ ويمكن أن تخسر قدراً إضافياً من السعادة ليفوز به أحد المنافسين. وهذه هى المفارقة: فلو اقتطع الجميع فى مجتمع غنى ما جزءاً من أوقات عملهم بحيث لا تتأثر دخولهم النسبية، لأمكنهم قضاء المزيد من الوقت مع الأصدقاء - ولازداد إجمالى سعادة المجتمع. إلا أنه قد لا يكون فى مصلحة أى شخص أن يأخذ بزمام المبادرة. ويقول فرانك إن ما نحن بحاجة إليه هو طريقة



ما لوقف سباق التسلح التماساً للمكانة ـ وهو السباق المعقول على المستوى الفردى ولا طائل من ورائه على المستوى الجمعى ـ واستغلال الوقت الذى نضيعه فى التماس السعادة بطريقة أكثر حكمة. وهو يرى أن ضريبة استهلاك تصاعدية قد تؤدى ـ بالإضافة إلى تأثيرات أخرى ـ إلى الحيلولة دون العمل لمدة ٦٠ ساعة فى الأسبوع.

ولا شك فى أن مثل هذه الضريبة قد تقلل الطلب على بعض المنتجات المصنوعة فى العالم النامى. وهى بذلك قد تخفف من حدة العولمة. إلا أنه عندما تسير العولمة بخطوات حذرة بعض الشىء، لا تكون تهدئة السرعة هذه بالضرورة مطلباً ملحاً.

وكذلك الحال بالنسبة للمبادرات العديدة التى قد تهاجم لأنها تقلل من سرعة عجلات التجارة بصورة طفيفة. فإذا كان لضريبة الوقود الأحفورى، التى قصد بها مكافحة ارتفاع درجة حرارة الكرة الأرضية، أثر جانبى هو تقليل الطلب على السيارات، فلا يجب اعتبار هذا عيباً. فبإمكانك أن تقول الشىء نفسه بشأن وضع الاتفاقات الخاصة بالبيئة والعمال ضمن اتفاقيات التجارة. فنحن من ناحية لا ينبغى علينا ادعاء أن مثل هذه الاتفاقات لن تحد بصورة طفيفة من المعدل الذى تعزز به العولمة مستوى المعيشة فى الدول النامية. ولكن لا ينبغى كذلك أن نتجاهل احتمال أن يكون لهذا الأثر المهدئ ميزة ما، فى ظل سرعة العولمة المخيفة. فإذا ساعدت هذه الاتفاقات فى حل المشاكل البيئية أو ساعدت فى الحد من الاستياء من العولمة لدى العمال أصحاب الأجور المنخفضة فى الدول الغنية، لكان ذلك أفضل.

وإذا وجدت أنك تشعر بالأرق على عمال المصانع العاطلين فى سريلانكا، وهو ما توحى به العولمة التى قللت سرعتها بعض الشىء، فهناك طرق لتخفيف ما تشعر به من قلق: تبرع بالمال للجمعيات الخيرية التى تقدم الطعام والدواء لفقراء العالم. ولو لم تكن أنت نفسك فقيراً، ما كنت لتحظى بكثير من السرور من هذه الدولارات القليلة بحال من الأحوال. يضاف إلى ذلك أن أحد علماء النفس اكتشف أن القيام بأعمال تنم عن الإيثار يجعل حالة الناس المعنوية مرتفعة. واكتشف آخر أن المراهقين المهتمين اهتماماً خاصاً برفاهية الآخرين ينعمون بقدر كبير من السعادة. ويبدو أن إعطاء أشياء للناس يمكن أن يكون لعبة ليست محصلتها صفراً. وما أكثر ما فى الطبيعة البشرية من مفارقات.

وإذا أتيح للعولمة الوقت الكافى فإنها هى نفسها قد تأتى بمفارقة أخيرة. فلنفترض أن العالم بات مع استمرار تقليص التكنولوجيا للمسافات «قرية كونية» بحق، وعم البشرية جمعاء إحساس بالانتماء المشترك. ألا يحتمل أن يكون هذا مدهشاً؟ ربما لا يكون كذلك. وبقدر ما تعتمد السعادة على مقارنة وضعك الاجتماعى بوضع جيرانك، فإن سعادة الأمم الفقيرة قد تتأثر. فعندما يرى الناس فى العالم النامى الأمم الغنية رأى العين فإنهم قد يبدءون فى اتخاذها مرجعاً، وحينئذ يشعرون بأنهم أقل قيمة مقارنة بهم.

وواقع الأمر أن أحد علماء النفس، وهو مايكل هاجرتى، يرى أن شبكة الاتصالات الكونية تزداد كثافة بالفعل بما يجعل لـ«آثار المقارنة» هذه عواقب وخيمة. ولو تركنا الاتصالات جانباً، لوجدنا أنه كلما كثر الكوزموقراطيون الذين يتجولون فى المزيد من المدن داخل المزيد من الدول النامية، فإن العواقب ستزداد سوءاً. وسرعان ما يعترى فقراء العالم إحساس قوى ـ وجمعى إلى حد كبير ـ بالحسد والسخط تجاه أغنياء العالم مجتمعين.

ومن ناحية أخرى، فإنه مع تقدم التطور الاقتصادى، وعندما يصبح كل من الأغنياء والفقراء فى الدول النامية ميسورى الحال، فإن هذا الوعى الطبقى التحولى نفسه قد يبدأ فى الحيلولة دون وقوع حروب بين الأمم. وأحد النشطة المناوئة للحرب هو اتصال النخب القومية ببعضها عبر شبكة الإنترنت ـ من الولايات المتحدة إلى الصين إلى بتسوانا. كما أن اتصالاً مشابهاً بين طبقات العالم السوسيواقتصادية يمكن أن يكون له الأثر ذاته؛ وكلما ازداد ما هو مشترك بين الناس وبين الأنفس الشقيقة فى الخارج، وكلما ازداد وعيهم بهذه الشراكة، كان ميلهم أقل إلى الحمية القومية الخالصة.

وهذا الصراع الطبقى المتعدى للقوميات يحمل فى طياته دائماً احتمال أن يصبح عنيفاً. إلا أن افتراض امتلاك طبقات العالم العليا من الحضور الذهنى ما يجعلها تقلل من السخط بواسطة السياسات الاقتصادية والاجتماعية المحسنة، فإنه من غير المحتمل أن تكون مثل هذه الحروب على ما كانت عليه حروب القرن العشرين بين الأمم من تدمير. ومن غير المحتمل كذلك أن تضاهى أهوال الحروب الأهلية الحالية القائمة على أسس عرقية (وهى كما ستلاحظون تبتلى بها فى أغلب الأحيان أمم ليست متداخلة بعمق وثراء فى الاقتصاد الكونى). وفى ظل وجود البدائل، يكون قدر معين من الصراع الطبقى على المستوى الكونى مشكلة ينبغى أن نسعد بالتصدى لها. ■

بترتيب خاص مع:

Foreign Policy Magazine

ترجمة: أحمد محمود

كتاب الزاوية

من كتابات حسين فوزى

وظيفة التعليم

ليس الغرض من التعليم العام أن نحفظ شيئًا بعينه على كل حال، بل أن ينمى فى نفوسنا حب الفضائل وصدق الإحساس. والمواطن الصالح هو الرجل سليم الفكر سديد الحكم، يعرف كل حقوقه، وأهم ما فى حقوق المواطن الصالح هو ما تحمله إياه هذه الحقوق من واجبات. فالحرية ـ أغلى حقوقه ـ ليست حرية الحيوان فى الغاب، إنما هى حرية الفكر الفردى، وحرية المجتمع يكفلها لكل فرد من أفراده، لا حدود لها غير حرية الآخرين سواء بسواء.

والمواطن الصالح هو الرجل صادق الشعور بالخير والجمال. ولا فرق عندى بين الجمال والخير. فمن أحس بالجمال عرف الخير، ومن عمل الخير شعر بالجمال. ولست أعنى الجمال فيما تواضع عليه الناس. الجمال هو تناسب فى الظاهر يقابله تناسب فى الباطن.

تناسق بين المظهر والمخبر، يكون فى أهون الأمور وأعظمها، فى تأدية الواجب، وفى علاقات الناس بعضهم ببعض، وفى علاقات الحاكمين بالمحكومين، كما يكون فى زى الناس، ودور عبادتهم وندوتهم ولهوهم، وفى مساكنهم أو مقابرهم. والتربية الفنية تنشئ فى المواطنين، وتنمى بينهم هذا التناسق.

والموسيقى واحدة من الفنون، تعمل عملها فى الباطن أكثر من الظاهر. لأنها أقوى روحًا، وأضعف مادة. وإذا كانت الفنون الأخرى لم تدخل فى صميم تربيتنا، فهى على الأقل قائمة عند حدوث الترف الظاهرى. دون استجابة روحية، أى أن لها وجوداً بوسيلة من الوسائل.

■■ فى فيلم تسجيلى هادئ ومباشر ولكن خارق التعبير عنوانه «الزواج المختلط فى الأرض المقدسة» (١٩٩٥، إنتاج بلجيكى - بريطانى - فلسطينى مشترك) يقدم المخرج الفلسطينى المبدع ميشيل خليفى عشرة نماذج لأزواج من خلفيات مختلفة فى فلسطين وفى إسرائيل تغطى غالبية احتمالات الاختلاط العرقى والدينى: مسلم ويهودية، مسيحى ويهودية، مسيحية ويهودى، مسلمة ويهودى، ومسلمة سوداء ومسلم أبيض. وخلال الـ٦٦ دقيقة التى يستغرقها الفيلم، تتابع كاميرا خليفى بتؤدة وحنان هؤلاء الأزواج وهم يستلون لحياتهم وحبهم معنى وهدفًا فى مجتمعات منغلقة ومتعصبة تراوحت ردود أفعالها تجاه اجترائهم على تحدى معاييرها وممارسة حرية الاختيار بين اللامبالاة الباردة وبين التهديد بالقتل، ولا يعدم التسجيل من لحظات بارقة بالأمل يعبر عنها بعض هؤلاء الأزواج بعفوية وبساطة، عندما يشرحون لنا أمام الكاميرا خياراتهم وقناعاتهم بهذه الخيارات، مع إدراكهم للثمن المرتفع الذى دفعوه والذى يمكن أن يدفعوه، نتيجة لتمسكهم بقرارهم فى العيش مع الحبيب المختار فى البيئة المعادية والمشحونة بالقلق والتوجس والتعصب التى يعيشون فيها ولا يعدم المتفرج اللبيب من إدراك مجموعة الأفكار التى يتعامل معها ميشيل خليفى، وهى كلها من نوع المتناقضات التراجيدية بدءًا من الفرد مقابل الجماعة، إلى الإحساس الفردى مقابل معايير الجماعة، فالحب مقابل التعصب الدينى أو العرقى أو الاجتماعى، وأخيرًا الحرية مقابل الانتماء، ويغلف هذه التناقضات الوجودية والمبدئية التناقض السياسى / الاستيطانى الذى ينخر فى جسد البلد وحيوات أبنائه ولاجئيه ومستوطنيه من الطرفين العربى واليهودى منذ نصف قرن، تناقض إسرائيل المحتلة مقابل فلسطين الخاضعة للاحتلال.

نموذجان من نماذج خليفى استوقفانى أكثر من غيرهما، وخاصة أنهما يؤلفان تناقضًا آخر داخل التناقضات العامة التى يرسمها الفيلم بحنكة وروية، النموذج الأول لزوج مؤلف من فلسطينى مسيحى موسيقى، خالد، يدرس فى المعهد الوطنى للموسيقى فى رام الله ويعيش مع يهودية أوروبية الأصل، راما، دارسة للموسيقى هى أيضًا، ولكنها تعمل كمبرمجة فى مكتبة الجامعة العبرية فى القدس، والزوج الثانى لحالة نادرة فى فلسطين وفى العالم العربى عمومًا: امرأة فلسطينية مسلمة، خيرية، متزوجة من يهودى إسرائيلى، أوفر، يلوح لى أن خليفى اختار التركيز على هذين الزوجين لرغبته فى سبر التضاد الحاد الذى يمثلانه، أى التقاطع بين المجتمعين المتصارعين على فلسطين: العربى والإسرائيلى، وربما أيضًا لرغبته بالإشارة إلى دور الاختلافات الطبقية / المهنية فى وعى الأفراد بمجتمعهم، وهو أيضًا يتابع المرأتين أكثر من متابعته للرجلين، ويدفعهما لرواية قصتيهما على

الحرية والانتماء فى العالم



الشاشة مع أقل ما يمكن من التدخل المباشر. ومن ثم ينهى فيلمه معهما ومع اشتفافهما لحلول لمشكلاتهما، مما يؤكد على أهميتهما النسبية فى حبك الرواية التى أرادها خليفى، والتى - والحق يقال - تنفذ للأعماق على أكثر من صعيد، من الوطنى، إلى الطبقى، فالثقافى، فالإنسانى فى نهاية المطاف. فالموسيقية الإسرائيلية «راما» مثقفة وعاملة تكنولوجية ماهرة، وهى تحب عشيرها الفلسطينى ومصممة على خيارها، وهى أيضًا واعية بعمق وبتفلسف للمشكلات التى تطرحها علاقتها فى إسرائيل بين أهلها وفى فلسطين بين أهله. وهى محللة ماهرة لكل هذه المشكلات واعية لاستحالة حلها على الصعيد الفردى لتشابكها وتداخلها وتجاوزها لمقدرة الفرد على المقاومة. وعندما تبلغ «راما» فى تحليلها هذه النقطة، نجدها بكل هدوء تطرح الخيار المنطقى الوحيد المفتوح أمامها للخروج من دوامة الصراع بين خيارها الفردى فى الحياة مع الحبيب الفلسطينى وضغوط مجتمعها الذى لا يقبل بعلاقة كهذه: الهجرة من إسرائيل إلى أوروبا التى يمكن أن تمنحها الحرية فى العيش مع من اختارته والذوبان فى مجتمع لا مبال نسبيًا ولا يدقق كثيرًا فى الانتماء العرقى أو الدينى أو القومى.

أما «خيرية» فقصتها أكثر حدة، وإن كانت تحكيها بلغة مباشرة وبسيطة مما يخفف من وطأتها وبشاعتها، على أقل تقدير مبدئيًا. فهى وزوجها الذى اختارته عن حب يعيشان فى إسرائيل ما قبل الـ ٦٧ بعيدًا عن الناصرة، بلدة أهلها، لأنهم طردوها عندما تبين لهم إصرارها

العـــــربى

ناصـــــر الربـــــاط



على الارتباط بمن اختاره قلبها، ولأن أخاها الأكبر قد حلف يمينًا بأنه لن يتزوج قبل أن يقتلها لغسل العار الذى جرته على عائلتها بزواجها من يهودى، وهى عندما تحكى قصتها بدون أى حكم مسبق على عنجهية وقسوة أخيها الذى مازال يعتقد أنه مخول التحكم بحياتها، نراها تعبر عن اشتياقها لأهلها وبلدتها رغمًا عن عداوتهم الصريحة والقاسية، ولكنها تؤكد لميشيل أنها أيضًا غير مستعدة للتخلى عن زوجها الذى تحبه وعن أولادها منه. وعندما يسألها ميشيل فى النهاية ما إذا كانت قد فكرت فى الهجرة للتخلص من هذا الوضع المأزوم فى حياتها - وهذا هو السؤال - المحك برأيى بالنسبة لميشيل خليفى الذى يحمل هموم الوطن والانتماء والهجرة والحرية فى جوانحه ويصوغها فى أفلامه - تجيبه بلهجة فلسطينية محببة وبصوت راسخ وهادئ: صحيح أنى قد هيأت جوازات السفر فى حالة اضطرارنا للهرب، ولكن كيف أترك بلدى؟ هنا جذورى، أرضى، وطنى، لغتى، الجو، الطقس، الناس.

لا أعلم إذا كان قارئى يشعر هنا بنفس القشعريرة التى شعرت بها وأنا أتابع هذه السيدة البليغة تصوغ بعبارات مباشرة وصريحة واحدة من أكثر المعضلات ضراوة فى الحياة الحديثة: المعادلة بين الحرية الفردية والانتماء للجماعة كحقين إنسانيين أساسيين، خاصة فى حالة خيرية المركزة بسبب من التحدى الإسرائيلى العنيف لكينونة الشعب الفلسطينى نفسه ولارتباطه بأرضه من جهة، ولدموية العرف الذى مازال سائدًا فى شرائح عريضة من المجتمعات العربية والإسلامية والذى يسمح لذكور العائلة بتقرير حياة إناثها وبحرمانهن من أبسط الحقوق ومعاقبتهن إلى حد القتل أحيانًا بحجة الدفاع عن الشرف إذا ما حاولن تأكيد ذواتهن. وقد دفعتنى عبارات خيرية للتفكير فى الوضعية المأساوية التى تعيشها فى ظل هذين التحديين الوحشيين وللإعجاب بالشجاعة المبدئية والراسخة التى تبديها بتواضع وبدون أى تبجح أو تفلسف والتى تسمح لها بأن تستمر فى حياتها يومًا بيوم قانعة بخياراتها ومتحملة لمسؤولية هذه الخيارات على الرغم من قتامة الاحتمالات. هذه المعادلة / المعضلة نفسها، والتى أراها من أهم ما يواجهه الإنسان العربى اليوم لأنها تمس فى آن واحد هويته وكيانه وتعبيره عنهما معًا - ويتساوى فى ذلك عرب الداخل وعرب المهجر (وفلسطينيى الداخل المحتل وفلسطينيى الشتات) وإن اختلفت التحديات وتباينت أدواتها - هى موضوع مقالى هذا.

فالحرية تلك القيمة المهدورة فى الحياة الخاصة والعامة وفى الخطابات المعاصرة - الرسمية منها والشعبية - على امتداد العالم العربى بشكل خاص والعالم ككل بشكل عام، تتقاطع مع الانتماء القومى واستحقاقاته فى عمليتى شد وجذب، ربما كانتا من أهم عوامل تكوّن هويتنا وتاريخنا المعاصرين. وحديثى هذا ذو شجون، ولكنه أيضًا حديث مجرد، يناقش وينقد الحرية والانتماء كمفهوم وكممارسة. وهو إلى ذلك حديث يبحث عن محاورين عن أصداء، عن تفاعل ينفخ بعضًا من الحياة فى مفهوم الحرية المفقودة فى عالمنا العربى اليوم، وهو أيضًا حديث نابع من إحساسى القوى بأن توازن الحرية والانتماء فى تكوين الفرد والجماعة على حد سواء أكثر من ضرورى فى عالم اليوم متسارع النبض ومتغيره، والذى يحتاج أكثر من أى وقت مضى للتأكيد على أطر مثالية وأخلاقية ومعنوية ترفد تسارعه وتغيره بروافد إنسانية الأصل والطابع والانطباع. والحرية على رأسها، تليها مباشرة وتكملها، برأيى، المسؤولية.

الحرية قيمة مطلقة وسياقية فى الآن نفسه، هى مطلقة من حيث إنها لكى تكون حقيقية وفعالة يجب أن تكون متاحة لكل الناس ولكل المجموعات البشرية بالتساوى المطلق بغض النظر عن أى من العوامل الأخرى التى تمايز بينهم كمقدرتهم الجسدية أو العقلية أو جنسهم أو لونهم وعرقهم أو هويتهم أو انتمائهم أو ثقافتهم أو مستواهم المادى أو التعليمى مما يخلق بينهم فروقات على أصعدة أخرى لا يمكنهم الحد منها إلا بوضعها فى قوالب معيارية وحقوقية وأخلاقية أوسع منها. والحرية سياقية من حيث إنها تطورت تاريخيًا كمفهوم وكممارسة بتطور الوعى الإنسانى بها ومن حيث إنها تتفاوت فى مضمونها ومداها وتطبيقاتها بين مجموعة بشرية وأخرى وبين زمن وآخر حسب الظروف والمحددات البيئية والتاريخية والعقائدية والمادية والتأثيرات الخارجية من أفكار ومبادئ ومصالح. فهى فى الواقع، على الرغم من طبيعتها المطلقة تعريفًا، مؤطرة تاريخيًا واجتماعيًا وفكريًا ومعرفيًا. بل ومكبلة كممارسة فى غالب الأحوال. فنحن كأفراد نعيش فى جماعات تحد من حريتنا الفردية بالضرورة مراعاة لحرية الجماعة، أو حرية المتكلمين باسم الجماعة، إن حقًا أو إرهابًا، مقابل منحنا الشعور بالانتماء وربما بعضًا من الطمأنينة والحماية، ونحن أيضًا كجماعات نعيش فى ظل جماعات أقوى وأعتى - داخليًا وخارجيًا - قد لا يكون لها مصلحة فى تحقيقنا للانسجام بين حريتنا وانتمائنا كما نفهمهما وكما نريدهما. ولعل خلاصة تاريخ الحرية نفسه هى سلسلة من محاولات الجماعات المستضعفة والأفراد المغامرين أو المثاليين، الانعتاق من المكبلات المادية والاجتماعية والمعيشية والانطلاق، أو بمعنى أدق الحلم بالانطلاق، فى فضاء الحرية الرحب والواسع. وقد نجح البعض منهم فى ذلك وفشل الكثير. ولكن الرغبة بالانعتاق أقوى من الخوف من الفشل، على الرغم من المعوقات الاجتماعية والطبقية والخارجية التى تحد الحلم بالحرية وأحيانًا تدمره، وفى مرات قليلة تتركه يحيا، بل أحيانًا قليلة تنهزم أمامه وينتهى بها الأمر للقبول به كإطار ناظم جديد لفهمها لنفسها يحل محل الإطار السابق.

هاتان الحالتان المتضادتان بنيويًا للحرية قد أشكلتا على عدد كبير من المفكرين والمنظرين والمحللين ودعاة الإصلاح والتغيير ومازالتا. كيف يمكن التوفيق بين المطلق مفهوميًا والنسبى اجتماعيًا وسياسيًا وتاريخيًا، أى بين الثابت والمتحول؟ اختار المنظرون الفلسفيون المثاليون التمسك بالمطلق ولكنهم بقوا ضمن الإطار التنظيرى الضيق ورفضوا التعامل مع الواقع «الخسيس» برأى بعضهم، مما وضع «حريتهم» بعيدًا عن متناول محتاجيها من الناس الذين يعيشون فى العالم الواقعى إياه بعجره وبجره، بمصالحه الآنية وتراتبياته الاجتماعية، وبمستغليه ومستغليه. وبقيت رسالة هؤلاء المنظرين بالتالى مثالية وطوباوية، نقرؤها فى الكتب ولكننا لا نجد لها تطبيقًا فى العالم الحقيقى القائم. أما المصلحون الأجلاء الناجحون فى التاريخ فقد رنوا كلهم للحرية بالمطلق عندما كانوا فى مرحلتهم التنظيرية والكفاحية المثالية قبل أن يقيدوها بالواقع عندما اصطدمت بمسؤولياتهم وامتيازاتهم الاجتماعية والسياسية المكتسبة خلال صراعهم أو بعد انتصارهم، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصر. وقد حاول الكثير منهم، خاصة أصحاب الديانات والدعوات الاجتماعية الأخلاقية، التوصل لحل توفيقى يثبت المتحول ضمن إطار أخلاقى ومرجعى ما أوسع منه وأعلى - إلهى فى غالب الأحيان - ونجحوا ضمن مجال جغرافى أو قومى ضيق ولمدى زمنى محدد قبل أن تسبقهم المتغيرات التاريخية ونتائجها السياسية والاجتماعية والمعرفية. فعاود البعض محاولة التوفيق بين الرسالة والواقع، مما أفقد الرسالة على المدى الطويل خصوصيتها خاصة بعد زوال الجيل المؤسس، فى حين جنح البعض الآخر إلى نسبة المطلق للمطلق، أى نفى الحرية المطلقة لما بعد الزمن التاريخى والإنسانى - إلى العالم الآخر بكل مدلولاته الزمانية والمكانية المجردة والمطلقة - وقرروا التعامل حصرًا مع النسبى الاجتماعى والسياسى والثقافى فى هذا العالم، أى أنهم حاولوا جاهدين «أنسبة» الحرية.

تاريخ الحرية كمفهوم والحالة هذه لا يختلف كثيرًا عن العديد من المفاهيم المثالية، كالعدالة والإنسانية والمساواة والمواطنة أو الانتماء، التى تؤنسن حياتنا وتحاول الموازنة ما بين بعديها الرئيسيين، المادى، وبالتالى الخاضع لقوانين فيزيائية وبيولوجية وسيكلوجية واجتماعية لا يستطيع الإنسان منها فكاكًا فى كل لحظة ولو أنه يقفز فوقها ويتجاوزها أحيانًا، لكى يقع فى إطار مرحلة إدراكية أعلى وأعقد تتطلب حلولاً جديدة لا تحويها المنظومة المعرفية السابقة عليها، والمثالى الذى يرنو إلى الاستقرار التام والمطلق، البنيوى وفوق - التاريخى، وبالتالى فوق - الإنسانى أو الاجتماعى، الذى يتمثل على الأغلب إما بالتوازن الروحانى المتصعد الذى يجد تعبيرًا عن نفسه عادة فى حياة تصوفية أو قدسية مترفعة وبعيدة عن المجتمع، أو بعكسه تقريبًا: التوازن السياسى الدكتاتورى الذى يعتنق مبدأً واحدًا شاملاً ويرفض الاعتراف بتنوع التجربة الإنسانية، ويحاول صهر الكل فى بوتقة واحدة تلغى

الاختلافات والفروقات ولكن على حساب حرية الفرد عامة. ولكنني لا أريد أن أقضي الوقت الطويل في مناقشة تاريخية مقارنة - على أهمية الموضوع - في الوقت الذي أرى فيه فداحة اضمحلال ممارسة الحرية كحق فردي واجتماعي إلى أقصى درجات الاضمحلال في العالم العربي وهدرها على يد كل السلطات الموجودة فيه اليوم، حتى تلك التي تحسب نفسها في الموقع الريادي من الدفاع عن حرية الفرد، والتي تعاني هي نفسها من الاضطهاد على يد سلطات أخرى أعلى منها وأكثر بطشًا وإهدارًا للحرية. ولأوضح ما أعني.

إذا قبلنا بالتطور التاريخي لمفهوم الحرية. أي أن مدلولاتها قد تطورت بتطور الوعي الإنساني بها على الرغم من ثبات المفهوم كمفهوم - وهو ما تقبله كل حركة إصلاحية وإن كانت غالبية هذه الحركات تقف في قبول التغيير عبر التطور عند لحظة انبثاقها هي مما يخالف أبسط قواعد المنطق والتاريخ والعدل - فعلينا أن نحاول تحديد ما تعنيه الحرية اليوم في ضوء التغيرات الهائلة والهزات السياسية والعسكرية والاقتصادية والحضارية والمعرفية العميقة التي مر بها العالم في القرن العشرين، فهناك - أولاً - التقدم السريع في العلم والفكر والإنتاج والتكنولوجيا، وتوابعها من توسع الاستغلال الطبيعي والصناعي والمالي والتجاري وإمكانيات الاتصال السريع عبر كل الحدود البشرية والجغرافية وانتشار معايير علمية عالمية للصحة والتربية والعمل والترفيه. وهناك - ثانيًا - انبثاق أفكار ونظريات شاملة لتفسير حركة المجتمعات والدول والثقافات وتصرفات وعقليات ونفسيات الجماعات والأفراد. وهناك - ثالثًا - تفاقم العنف على الصعيدين الاجتماعي والسياسي محليًا وإقليميًا، وتوافر أسلحة فتاكة في أيدي الحكومات ومناوئيها على حد سواء وتطور أسلحة الدمار الشامل كعامل واقعي بتار في حل نزاعات الأمم والشعوب. هذا بخلاف الجراح النازفة التي خلفتها حربان عالميتان مهولتان وحروب الاستعمار والتحرر من الاستعمار والصراعات المحلية والإقليمية الأكثر هولاً خصوصًا في النصف الثاني من القرن في الدول الفقيرة والمستضعفة. مقابل ذلك كله، علينا أن نأخذ في الاعتبار انتشار نموذج الدولة - الأمة في كافة أرجاء المعمورة إثر ظهوره في أوروبا الغربية في نهاية القرن الثامن عشر، بحيث أصبح الانتماء للدولة - الأمة أو الانتماء الوطني هو الانتماء الأول والأقوى، وأحيانًا الوحيد في حياة كل البشر. وقد رافق ذلك الانتماء تبعات ثقيلة من صهر للهوية الفردية أو الأسرية أو القبلية في الهوية الوطنية المجردة والواسعة التي استلزمت استنباط معالم تاريخية ولغوية واجتماعية واقتصادية وسياسية تبررها وتثبتها وتسوغ اختلافها عن غيرها من الدول - الأمم. وتوج هذا الهيكل السياسي السائد ظهور بوادر نظام دولي ابتدأ بمحاولات متعثرة تمثلت بعصبة الأمم في بداية القرن العشرين، أو بمعنى آخر منتدى الدول المستعمرة التي تقاسمت العالم فيما بينها وفقًا لقواعد استقلالية وضعتها. وآل النظام الدولي اليوم إلى الأمم المتحدة مع كل المؤسسات المتفرعة عنها أو المتمثلة بنموذجها، التي مازالت مع كل عيوبها تشكل الإطار الدولي الأوسع والأشمل في تاريخ البشرية الذي يحاول تنظيم علاقات الشعوب والدول ببعضها البعض وطرح أطر حقوقية وتعاقدية ودبلوماسية لهذه العلاقات. وقد أضاف صعود المد الرأسمالي وانتصاره على الشيوعية مؤخرًا بعدًا اقتصاديًا جديدًا لظاهرة القرية الكبيرة التي يعيشها العالم بفضل الاقتصاد المعولم وتكنولوجيا الاتصالات المتسارعة، وإن كانت الظاهرة غير واضحة المعالم بعد. ولكنها على عولميتها الاقتصادية لا يبدو أنها ستؤدي إلى تخفيف أو زوال الفروق المادية والإنتاجية والتكنولوجية والفكرية التي تعاني منها البشرية، بل إنها ستعمق الانقسام الحاد والمتزايد في كل دول العالم إلى أغنياء مستغلين وفقراء مستغلين.

أين هو مفهوم الحرية في هذه المعمعة؟ يبدو لي أننا اليوم كجنس إنساني يتقارب أفراده اقتصاديًا وتكنولوجيًا. وإن كانوا قلما يتعارفون أو يتحابون حقًا، نتعامل مع مستويات مختلفة من فهم الحرية كمبدأ مما يسبب الكثير من التناقض والمهاترات والاختلافات في التطبيق. ولكننا في الحقيقة نمتلك مرجعًا عالميًا يمكننا الاحتكام إليه، قبلته كل الدول الأعضاء في الأمم المتحدة، الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨، (هذا الإعلان، بالمناسبة وقعت عليه كل الدول العربية الأعضاء بالأمم المتحدة مما يجعلها قانونيًا وأخلاقيًا مسؤولة عن تطبيق مواده، أو على أقل تقدير الامتناع عن خرقها، وهي للأسف غالبًا ما تقوم بذلك)، ولا أظن أن أحدًا يمكنه الادعاء بأن الإعلان العالمي هو أكمل وأشمل تعريف بالمطلق لحقوق الإنسان، ولكنه بلا مراء يمثل أكمل تعريف حقوقي متوافر لها اليوم. وعلى الرغم من الاعتراضات التي نسمعها كثيرًا، من اليمين الديني واليسار الفكري على السواء، عن عدم ملاءمة هذه الحقوق لشعوب الدول النامية والفقيرة بسبب من أنها قد فصلت أساسًا على مقاس الثقافات الغربية، الأوروبية والأمريكية المسيحية الديانة والعلمانية التوجه والمهيمنة اقتصاديًا وعسكريًا وإعلاميًا، فإن مواد الإعلان نفسه تستحق التأمل والاعتبار، فالحقوق المذكورة في هذه المواد إنسانية عامة تعريفًا، يهفو إليها الناس أجمعين وإن تفاوتت قدراتهم في صياغتها والتعبير عنها وفقًا لدرجة ثقافتهم ووعيهم السياسي والاجتماعي. وهي تتعارض أكثر ما تتعارض مع مصالح الدول الغربية نفسها، التي ساهمت أكبر مساهمة في صياغتها، كما يبدو واضحًا من تطاول هذه الدول على حريات شعوبها، وخصوصًا فقرائها وأقلياتها ومهاجريها، وعلى حريات الشعوب الفقيرة والنامية التي تعاني من استغلال غربي اقتصادي واستثماري ودعم لأنظمة الحكم الشمولية فيها. وهي، أي الحقوق الأساسية كما وردت في ذلك الإعلان، قد صيغت من قبل مجموعة من المفكرين العالميين إنسانيي النزعة الذين تأثروا تأثرًا بالغًا بهمجية الحرب العالمية الثانية، التي تسببت بها الحضارة الغربية أساسًا، والذين اطلعوا على العديد من النظم الأخلاقية والتشريعية والدستورية التاريخية إما مباشرة أو عبر تشربهم بمبادئ أخلاقية تدين ببعض أو بكل مبادئها لغيرها من النظم السابقة عليها، قبل أن يبدأوا مداولاتهم ومناقشاتهم.

يتناول الإعلان في مواده الأولى (من ١ إلى ٥) الحقوق الإنسانية المبدئية، من الحياة والسلامة والمساواة والكرامة، بلغة بسيطة وواضحة، فيها بعض من صدى دساتير دينية وعلمانية سابقة، ولكنها أعم وأوسع فهي موجهة لكل إنسان بغض النظر عن أي عامل تمييزي طبيعي أو وضعي مهما كان. وينتقل في المواد من ٦ إلى ١٢ للحديث عن الحقوق القانونية للأفراد، من اعتراف بشخصية الفرد القانونية، إلى المساواة بين الأفراد أمام القانون، إلى كفالة نزاهة المحاكم، إلى رفض الإجراءات التعسفية، إلى التمسك ببراءة المتهم حتى تثبت عليه التهمة. ثم يتبعها الإعلان في المواد من ١٣ إلى ١٥ بحقوق الانتماء التي تعكس بالضرورة واقع عالم ما بعد الحرب الكونية المكون من دول - أمم ذات سيادة يتبعها الأفراد ويحملون جنسيتها، كما يتبين لنا من المادة ١٣ البند ١ «لكل فرد حرية التنقل واختيار محل إقامته داخل حدود كل دولة»، أو المادة ١٥ البند ١ «لكل فرد حق التمتع بجنسية ما»، أي أن الإعلان يتعامل مع الدولة - الأمة على أنها مصدر الانتماء الأول بالنسبة للأفراد، وهو الوضع الذي مازال سائدًا اليوم. المادة ١٦ تحدد حقوق الأفراد بتكوين أسرة على اعتبار أنها «الوحدة الطبيعية الأساسية للمجتمع»، وهو الوضع الذي مازال سائدًا في أغلبية البلاد ولو أن بعض المجتمعات اليوم بدأت تشهد بوادر تحول في هذه النظرة. والمادة ١٧ تقرر حق التملك للأفراد. هذان الحقان معتمدان في كافة الشرائع والقوانين السابقة على الإعلان، ولو أنهما بطبيعتهما يعكسان تطورًا تاريخيًا واضحًا وطويلاً من المشاع إلى التخصيص فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية وباحتكار الموارد الطبيعية والصنعية ابتداءً من الحضارات البشرية الأولى في أودية الأنهار الكبرى في مصر والعراق والهند والصين، لكي يصل أوجه في عصر القومية الذي مازلنا نعيش فيه، وإن كنا على ما يبدو على وشك مغادرته إلى «العولمة» التي ابتدأت بتوحيد مجالنا الاقتصادي والاتصالاتي وهي الآن بصدد تحدي الحدود الوطنية والدولية.

المادتان ٢٠ و٢١ تعنيان بالحقوق السياسية للأفراد كناخبين وكمشاركين سياسيين في إطار ما يمكن وصفه بالنظام البرلماني الديمقراطي، الذي يبدو أن الإعلان يعتبره النظام السياسي الأمثل، وهو ما يتلاءم مع السياق التاريخي للإعلان عقب الحرب العالمية الثانية التي أدت إلى انهيار الأنظمة الفاشية وانتصار الأنظمة الليبرالية البرلمانية الغربية (وحليفتها الشيوعية السوفيتية، ولكنها لم تكن آنذاك في موقع يمكنها من فرض وجهة نظرها بعد). ولكن الوضع اليوم في العالم يبرهن للأسف أن التفاؤل بالليبرالية البرلمانية الذي عم آنذاك لم يتغلغل في كافة أصقاع العالم، وبخاصة العالم الفقير، داكن الألوان، والمستعمر، حتى بعد نيله حريته ومسيره في دروب الاستقلال، بل إن الغرب الليبرالي هو نفسه معوق الديمقراطية في دول فقيرة كثيرة شاء سوء حظها أن تكون أهميتها التجارية أو الاستراتيجية أكبر من قيمة شعوبها بالنسبة للغرب المهيمن، أما المواد من ٢٢ إلى ٢٧ فهي التي تحدد حقوق العمل والضمان الاجتماعي والصحي وحق التعليم والثقافة لكل الناس كخلاصة لنضال الإنسانية بعد الثورة الصناعية في سبيل تحقيق حد أدنى من الحياة الكريمة والفعالة والمنتجة لكل الناس، وتأتي المادتان ٢٨ و ٢٩ لضمان حقوق الفرد المنصوص عليها في الإعلان بشكل عام ومعادلتها بالواجبات المترتبة على الانتماء للمجتمع وضرورة احترام مبادئ الأمم المتحدة في تطبيق الحقوق والواجبات. وينتهي الإعلان بالمادة ٣٠ التي تؤكد على أنه «ليس في هذا الإعلان نص يجوز تأويله على أنه يخول لدولة أو جماعة أو فرد أي حق في القيام بنشاط أو تأدية عمل يهدف إلى هدم الحقوق والحريات الواردة فيه». هذه المادة الختامية تبدو لي كمحاولة من جانب واضعي الإعلان للحد من إمكانيات التسلط والقهر في ظل الأطر السياسية التنظيمية السائدة، من دول وطنية أو تنظيمات حزبية أو حكام دستوريين أو دكتاتوريين، التي يمكنها أن تهدد تطبيق الحقوق الواردة في الإعلان العالمي بغض النظر عن توقيعها عليه.



الحـــرية والانتمـــاء

ولكن هذه المادة الختامية أضعف من أن تحد فعلاً من إمكانية حصول تجاوزات وخروقات بما أنها ترد كمادة في نفس الإعلان التي تروم حفظه من الخروقات. وهي على الأغلب نابعة من صراع فكري بين مندوبي الدول والمفكرين المثاليين من محرري الإعلان تمخض عن حل وسط يضم المادة للإعلان من دون تزويدها بأدوات ضامنة لحسن تطبيقها.

ولكن المادتين اللتين تهمانني في سياق هذا المقال هما المادتان ١٨ و١٩ اللتان لا يمكن وصفهما إلا بالتحرر بالمعنى الحقيقي بالنسبة لما سبق الإعلان العالمي من دساتير وشرائع في أي مكان من العالم وعلى مر التاريخ، وإن كانتا تدينان بعض الشيء لأفكار ظهرت بشكل جنيني في دستوري الثورتين الأمريكية والفرنسية. المادة ١٨ تتناول حرية الاعتقاد، والمادة ١٩ حرية التعبير. تقول المادة ١٨: «لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته، وحرية الإعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ومراعاتها سواء أكان ذلك سرًا أو مع الجماعة». أما المادة ١٩ فتقول: «لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون أي تدخل، واستقاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة كانت دون تقيد بالحدود الجغرافية». وليست هاتان الحريتان بالضرورة أكثر أهمية من الحريات المدرجة في مواد الإعلان الأخرى، بل إن إمكانية تطبيقهما مشروطة بتوافر الحقوق الأخرى التي تكفل للفرد حدًا أدنى من الكرامة الإنسانية والاستقلالية تجاه المجتمع. بل إن العديد من المنظرين، خاصة مفكري العالم الثالث المعاصرين من نقاد نظرية التقدم يلحون على أن المطالبة بحريتي الاعتقاد والتعبير عندما تكون الكرامة المعيشية المتمثلة في حقوق العمل والصحة والتعليم والأمان من العوز مفقودة أو مهدورة، إما عبث منهجي أو ترف فكري لا قبل للمجتمعات المسحوقة به.

ولكننا لو تمعنا قليلاً في المادتين ١٨ و١٩ لوجدناهما تمثلان طفرة معرفية في تمثل الحقوق الإنسانية تنتقل بالفرد من ضمان وسائل معيشته في المجتمع حوله ماديًا وقانونيًا وأسريًا واجتماعيًا وسياسيًا إلى ضمان حقوقه (أو حقوقها) كفرد مفكر وعاقل ومستقل، حر بالتفكير في حقوقه نفسها وفي التفاعل معها سلبًا وإيجابًا، وبالاعتقاد الحر في أية منظومة فكرية تستهويه أو ترضي نظرته وفهمه للكون حوله من دون خوف من اضطهاد المنظومات الأخرى القائمة أو تسلط القائمين عليها أو الداعين إليها أو المؤمنين بتفوقها. بل هو حر (أو حرة) في رفض المنظومات الفكرية والأيديولوجية والدينية القائمة ومحاججتها ونقدها والحلم باستبدالها بغيرها والدعوة العلنية لتغييرها وتقديم بدائل لها وتنظيم المؤسسات التي ستقدم هذه البدائل، والعمل على نشر هذه المبادىء في أي مكان بالعالم من دون تقيد بحدود الدول، أي بالمنظومة القومية السائدة عندما كتب الإعلان العالمي قبل أكثر من خمسين سنة. ربما كان هذا التصور عندما وضع، أقرب إلى التمني منه إلى الإمكانية الواقعية. ولكن صياغته نفسها وإعطاءه تعريفًا حقوقيًا ملزمًا، وتوقيع دول العالم بأجمعها - ماعدا استثناءات قليلة - عليه، ومن ثم قيام حركات الدفاع عن حقوق الإنسان الناشطة في أرجاء العالم اليوم باعتماد مبادئه جعله أقرب إلى الواقع المأمول منه إلى التخيل اللاواقعي.

قامت المادتان ١٨ و١٩ في الحقيقة بدفع مفهوم الحرية نفسه دفعة نوعية هائلة، بل إنهما حققتا ما أسماه الفيلسوف الأمريكي الراحل توماس كون (Thomas Kuhn) «انزياحًا استبداليًا» (Paradigm Shift)، تلك العبارة الاصطلاحية التي ابتذلت كثيراً في الدراسات العلمية والاجتماعية والإنسانية على حد سواء، والتي قصد منها «كون» إنجاز طفرة معرفية أو إدراكية تنقل مستوى الإدراك والعلم من درجة إلى درجة مخالفة لها ومختلفة عنها، وأحيانًا مغايرة ومناقضة لها، لم يكن من الممكن لها أن تتبلور ويعبر عنها في ظل المنظومة المعرفية السابقة بقواعدها وأطرها الفكرية والتنظيرية ومستويات إدراكها. فالمادتان ١٨ و١٩ لم تكونا ممكنتين حقًا في عالم سيطرت عليه أنظمة فكرية غائية ونهائية، حددت تمامًا ما الصالح وما الطالح، وما المقبول وما المرفوض، وما الممكن التفكير فيه وما لا يمكن التفكير فيه، في كل المواقف والمواقع عبر الزمن، كعالم ما قبل الثورة العلمية والمعرفية التي اصطلح على تسميتها في أوروبا بعصر التنوير (Enlightenment). بل إن هاتين المادتين ما كان من الممكن التفكير فيهما إلا بعد أن ثارت الشعوب الأوروبية أولاً، وغيرها لاحقاً، ضد الاستغلال الكنسي والملكي والإقطاعي وضد هدر حقوق الناس السياسية والمعيشية، وبعد أن أسس مفكرو التنوير للعلوم الإنسانية الحديثة التي تنطلق من الإنسان وحياته ومصلحته وتصب بحثها فيه، وبعد أن أسست الفلسفة الحديثة لمبدأ الشك كمنهج للبحث والتقصي الفلسفي والعلمي ابتداءً من القرن السابع عشر قبل أن يعمم على جميع أنواع البحوث الاجتماعية والإنسانية، بحيث أصبح للتساؤل والتخطي وتحدي المنظومات المعرفية القائمة مناهج وإطارات نظرية متماسكة. وقد كان على البشرية جمعاء - وليس لثقافة ما معينة كالثقافة الغربية كما يدعي المشككون والأصوليون - أن ترتفع بالإدراك الإنساني ككل من مستوى المجموعة أو الجماعة أو المجتمع أو الأمة أو أي كيان متعال ومجرد إلى مستوى الفرد العاقل والمدرك لذاته ولإمكانياته لكي تتمكن من صياغة نصية قانونية محكمة لحقوق هذا الفرد مقابل الجماعة ومقابل الهياكل الجماعية الشمولية المهيمنة على فردية الفرد من مؤسسة ودولة وأمة وامبراطورية ووطن ودين.

من هنا تنبع الأهمية الحدية الفاصلة لهاتين المادتين اللتين ترتقيان بمفهوم الحرية إلى أعلى مدى ممكن لها في ظل النظام المعرفي السائد حاليًا على صعيد العالم (مما لا يعني بالضرورة أن هذا هو مداها الأقصى بالمطلق)، ومن هنا كذلك تنبع الإشكالات النظرية والمنهجية والتطبيقية التي تواجههما، مفهومًا وممارسة، في عالمنا العربي المعاصر المكبل بقيود هيكلية واجتماعية متوارثة أو مفروضة فرضًا عليه في ظل الأوضاع الاقتصادية والسياسية والعسكرية التي تسحقه داخليًا، والغطرسة الإسرائيلية الاستيطانية والتغلغل الاستثماري الغربي التي تتحداه، وتستنزفه خارجيًا، والأنظمة الشاملة التي تحكمه على مختلف الأصعدة - السياسية والدينية والاجتماعية - وتكتم أنفاسه من المحيط إلى الخليج بغض النظر عن اختلاف التسميات وتفاوت درجات الشمولية والتسلط، ومن هنا أيضًا تنبع الضرورة الملحة لطرق موضوع الحرية الفردية، التي هي أساس الحرية الاجتماعية، كأداة تحرر اجتماعي وسياسي تسمح لمجتمعاتنا العربية بالتعامل واقعيًا وإيجابيًا مع الأزمات التي تكبلها ومواجهة التحديات التي تحيط بها بدلاً من الركون إلى المعزوفة السائدة في معظم الخطاب العربي السلطوي المعاصر عن ضرورة تضحية الحقوق والحريات على مذبح التحرر القومي ومجابهة الغزو الاستيطاني الإسرائيلي والتصدي للمؤامرات - الداخلية والخارجية، والخارجة عن إرادتنا بداهة - التي يبدو أن أمتنا مصابة بأكثر من حصتها المنطقية منها، والتي يبدو أننا على الرغم من تحملنا لفقداننا لحرياتنا كشعوب وكأفراد لم نفلح في مواجهة أو دحر أي منها.

نظريًا، يمكن لأي نظام شمولي القبول بكل مواد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ما عدا المادتين ١٨ و١٩ اللتين تنتميان لمنظومة فكرية تجاوزت في أسسها ومفاهيمها النظام الشمولي نفسه كأساس لتنظيم علاقة الفرد بالمجتمع. فمن ضمن إطار المرجعية المعرفية للنظام الشمولي، لا ضير حقًا من قبول مبدأ حق الفرد بالحياة أو بسلامة شخصه، (ولو أن معظم أنظمتنا العربية الحاكمة أو المجموعات الثائرة عليها قد أهدرت هذا الحق على حد سواء، مع إدراكها التام لمخالفة ما فعلته لأسسها المرجعية نفسها) أو في العمل أو في تكوين أسرة، أو حتى بالحصول على محاكمة عادلة (وهو ما أصبح مستحيلاً في معظم بقاع العالم العربي اليوم، ولكن لأسباب لا علاقة لها بالمنظومة المعرفية السائدة بل بسوء تطبيقها). فهذه كلها حقوق لا تتحدى المنظومة نفسها أو تراتبيتها، ولا تفسح المجال لتمكين الفرد من مساءلتها ونقدها مما يهدد بالنهاية أسس شرعيتها ووجودها. وهي أيضًا كلها حقوق تعترف مسبقًا بالجماعة وأولويتها وبوجود نظام يسوسها يعلو على الفرد ويفرض نفسه عليه (أو عليها). ما تحققه هذه الحقوق هو المحافظة على وجود وكرامة ورخاء الفرد ضمن إطار أولوية الجماعة: أي أن هذه الحقوق تنتمي للمنظومة الفكرية والمعرفية السابقة على عصر التنوير، وهي بالتالي لا تتخالف بنيويًا أو معرفيًا مع أي من الشرائع الدينية أو الدساتير الوضعية الإنسانية ما قبل الحداثية التي قدمت الجماعة على الفرد في كل مرة تعارضت فيها مصالح الطرفين. ولكن المادتين ١٨ و١٩ شيء آخر، فهما تعترفان للفرد بكيانه المنفصل عن الجماعة، وتسمحان له (أو لها) بمساءلة وتحدي ونقد بل ورفض أنظمة وأطر الجماعة مهما تكن ويتخيل بدائل لها والسعي لتحقيق هذه البدائل والتعبير عن هذا السعي بكافة الوسائل التعبيرية المتاحة من فن وعلم وأدب وفكر وعقيدة وسياسة وغيرها. وهنا بيت القصيد فيما يحدث - أو بالأحرى ما لا يحدث - اليوم في العالم العربي.

فالأنظمة العربية، سياسية كانت أم دينية أم اجتماعية، تنتمي كما لاحظنا بالنسبة لكل الأنظمة الشمولية للمنظومات المعرفية الغائية التي ترى أن هدف الحياة الإنسانية محدد مسبقًا، وهو عمومًا السعي لدوام الجماعة واستقرارها وتماسكها الأخلاقي والانتمائي وخلاصها الديني وطهرها العقائدي أو الوجودي، دائمًا على حساب الفرد وحريته، وأحيانًا على حساب حياته. بل وترى هذه المنظومات أن الطريق إلى هذه الغاية معروف ومرسوم، وإن اختلف بين ثقافة وأخرى اختلافًا بينًا، وأن هناك أسلوبًا واحدًا صحيحًا للوصول إلى الغاية المنشودة، وكل ما عداه مخطىء أو مغرض أو كافر أو متخلف أو غير ذلك من النعوت السلبية. في حين أن حريتي الاعتقاد والتعبير قد تشكلتا فلسفيًا في عصر التنوير الذي شكك بكل الأشكال الميتافيزيقية للتفكير، وتعثرتا في تطورهما خلال نشوء النظام الجديد إثر الثورتين الفرنسية والصناعية اللتين تسببتا بالكثير من الألم والأمل في آن واحد. وصقلتا خلال المخاض الحداثي في بداية القرن العشرين الذي عانت الإنسانية عبره من أهوال الحروب العالمية والهيمنة الاستعمارية التعسفية وصعود

> **الحرية تلك القيم المهدورة في الحياة الخاصة والعامة وفي الخطابات المعاصرة - الرسمية منها والشعبية - على امتداد العالم العربي بشكل خاص والعالم ككل بشكل عام، تتقاطع مع الانتماء القومي واستحقاقاته في عمليتي شد وجذب ربما كانتا من أهم عوامل تكون هويتنا وتاريخنا المعاصرين**

الأنظمة الفاشية بكافة تلويناتها، إلى أن حصلتا على صيغتهما الحالية مع الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وقد انتمتا أساسًا لمجموعة الأفكار التي ركزت على أولوية الإنسان الفرد المفكر والعاقل، وعلى لزوم الشك في كل منظومة غائية تحد من حريته، والأنظمة الشمولية على رأسها، وعلى القبول بالتخطيء وبالرأي الآخر كوسيلة لدفع الحوار والوصول إلى أجوبة مقبولة لكل الأطراف. ومن هذه الأفكار انطلقت الحركات الإصلاحية الفكرية الجديدة منذ نهاية القرن الثامن عشر، والتي شهدت أوجها في النصف الثاني من القرن العشرين، لترفض مبررات الأنظمة الشمولية كافة، ولترسم مبادىء توازن جديد بين الفرد والجماعة، ممثلة بالسلطة السياسية أو الاجتماعية أو العقائدية والدينية، حرصت فيها على ضمان حقوق الفرد تجاه الجماعة بما أنه أساسًا الطرف الأضعف في هذه العلاقة، وعلى رأس هذه الحقوق حريتا الاعتقاد والتعبير اللتان تسمحان للفرد باختيار انتمائه للجماعة أو بنقده أو برفضه وتغييره بما يوافق آراءه.

وعلى هذا فالأنظمة العربية المعاصرة على الرغم من حداثتها الظاهرية أحيانًا، على الأقل من خلال ارتكازها على مبدأ الدولة - الأمة وهيكل السلطة المركزية بكل أدوات استعراضها ورفاهها وقمعها، لا يمكنها إطلاقًا الاعتراف بحريتي الاعتقاد والتعبير. وليس ذلك لأنهما تتحديان أسس شرعيتها ومبررات وجودها فقط، بل لأنهما «تتحدثان لغة غير لغتها» لغة لا يمكنها فهمها من ضمن المنظومات المعرفية التي تعتمدها في تبرير تسلطها وقراراتها وسياساتها. بل هي لا تريد فهمها لأنها لو فعلت - كما فعلت أنظمة غائية أخرى في الشرق والغرب تمسكت لفترة طويلة بمنظوماتها المتناقضة، كان آخرها النظام الشيوعي السوفيتي وتفرعاته - فهي ستضطر إما لتغيير أسسها المعرفية والإدراكية واليقينية تغييرًا جذريًا، والتخلي بالتالي عن امتيازاتها المكتسبة والمغتصبة والموروثة وإعادة النظر بتقييمها لإنجازاتها الفعلية والموهومة، أو للسقوط بسبب إفلاسها الذي سيكشف عنه وعيها بنظامها المعرفي المتناقض داخليًا وجوهريًا ومنهجيًا وبالتالي فلسفيًا، تمامًا كما اكتشف آدم وحواء عريهما عندما انتقلا من حالة معرفية إلى حالة أخرى.

ولا يقتصر الفهم المجتزأ للحرية على الأنظمة الحاكمة والسائدة التي تعودنا على توجيه اللوم لها فيما تعانيه الأمة العربية عمومًا من إحباط وتخلف وقمع، بل يتجاوزها إلى العديد من الأفراد الفاعلين أنفسهم. فهم وإن تغنوا بحريتي الاعتقاد والتعبير فهم يطبقونهما أو يطالبون بتطبيقهما على أنفسهم ومماثليهم فكريًا أو عقائديًا فقط وحجبها عن غيرهم ممن لا يرونهم مستحقين لهذه الحقوق لأسباب شتى، مع أن الأرضية المعرفية الفعلية لهذين الحقين هي ضرورة تعميمهما على كل الأفراد مهما تخالفوا في الفكر والإدراك والمنظور والأصل والدين والجنس والطبقة الاجتماعية والمستوى الاقتصادي. ولا أظن أن وضع أي شرط اجتماعي أو قانوني لتطبيق حريتي التعبير والاعتقاد، كما تفعل غالبية الخطابات العربية المعاصرة بغض النظر عن توجهها الديني أو العقائدي أو السياسي - فيما عدا ضرورة مراعاة تطبيقهما الدائم والشامل على الكل - محق أو مجد أو ممكن بنيويًا. فأي تحديد لهما ينفيهما نفيًا تامًا، ويعيدنا للمنظومة المعرفية السابقة التي أطرت مفهومي الاعتقاد والتعبير ضمن حدود مصلحة الجماعة ورؤيتها واعتقادها ومدى تقبلها للنقد والتغيير، أي بمعنى آخر رهنتهما بمدى قدرة الجماعة، أو قدرة ممثليها وزعمائها الذين يتكلمون بالنيابة عنها إن انتخابًا أو اغتصابًا، على تقبل ما يغاير أسس معرفتها بنفسها.

هذا هو الشرخ المعرفي العميق الذي تواجهه الغالبية العظمى من قضايا حرية الاعتقاد والتعبير التي شغلت الناس في العالم العربي مؤخرًا من مصر إلى لبنان إلى سورية إلى الأردن وفلسطين والكويت وقطر والبحرين واليمن والجزائر والمغرب: أفراد يمارسون حقوقهم في التعبير عن آرائهم شفاهًا أو كتابة أو فنًا (من موسيقى وسينما ورسم ونحت وغناء ورقص وغيرها) أو من خلال اختياراتهم الشخصية من منطلق إيمانهم بحريتي الاعتقاد والتعبير، وأنظمة وحركات ومؤسسات وأفراد يهاجمونهم ويدينونهم وينزلون أشد العقوبات بهم بتهم مختلفة ومتناقضة أحيانًا ولكنها تصب جميعها في خانة الخروج عن الجماعة وتهديد أمنها أو نظامها أو عقيدتها أو ترابطها الاجتماعي أو أهدافها السياسية المنشودة، أي خانة وضع متطلبات الجماعة فوق حقوق الفرد بالمطلق. ولا فرق أساسيًا حقًا بين ما تدعيه الأنظمة الثورية أو التقليدية الحاكمة عندما تحجر على حرية الأفراد بالتعبير أو بالاختيار بحجة الأمن والنظام وقيم المجتمع، وما تدعيه الحركات الدينية المتطرفة أو العقائدية المغالية عندما تغتال آراء بعض الأفراد (أو الأفراد أنفسهم أحيانًا) بحجة مروقهم وكفرهم وضلالهم أو رجعيتهم وتحجرهم وتشددهم، أو ما يقرره الكثير من المعلقين في الصحف السيارة والإذاعات والقنوات الأرضية والفضائية عن عدم التزام المتهمين بقيم المجتمع وعقائده وتراثه، أو ارتباطهم بجهات أجنبية (من دون أي دليل حقيقي طبعًا)، أو انتمائهم الفكري لبيئات غريبة وخارجية، وما شابه ذلك من الاتهامات التي لا تتناول أبدًا لب المشكلة. فكل هذه الجهات تصدر عن فهم مبتسر وسطحي لحريتي الاعتقاد والتعبير، فهم متناقض لأنه يحاول حصر مفهومهما التنويري، المرتكز على الفرد كهدف للتفكير، ضمن إطار المنظومة المعرفية ما قبل الحداثية التي ترى الفرد دومًا كتابع للمجتمع. وإلا فكيف نفهم التوافق شبه التام في إدانة بعض المفكرين والمبدعين بين الأطراف السلطوية الثلاثة، النظام الحاكم والهيئات الدينية والإعلام بمفكريه ومعلقيه وصحفييه الذين ينتمون عمومًا للفكر القومي أو حتى الفكر اليساري، عندما تتخالف هذه الأطراف الثلاثة في كل شيء آخر؟ والأنكى من ذلك هو أن هذه الأطراف الثلاثة تتوافق أيضًا في تشكيكها بانتماء الفرد المخالف لمجتمعه وبانصياعه لمصلحة مجتمعه (كما يقررها مسيروه ومستبدوه)، على أساس أن من خالف الجماعة فهو ليس منها. أي أنها تلجأ لسلاحي العزل والتمييز، والتخوين أو النفي أحيانًا، كمقدمة لخلق تباين حدي بين الفرد المستقل التفكير والمجتمع، رافضة حتى القبول بمناقشة فكرة أن التعبير الفردي ليس بالضرورة منابذة للمجتمع. بل ربما كان هذا التعبير، كما في حالة العديد من مفكرينا وفنانينا المخالفين والمعاقبين مؤخرًا، التزامًا واعيًا بهذا المجتمع ونضالاً من أجل نهوضه من كبوته التي طالت. بل ربما كان انتماء الكثير من هؤلاء الأفراد أقوى وأصلب عودًا وأكثر إيمانًا بمجتمعهم من الكثير من منتقديهم ومهاجميهم.

لا غرابة في هذا الوضع من وجهة النظر التاريخية والبنيوية على حد سواء. فالمنظومة المعرفية الغائية مازالت هي الأساس الناظم لكل المؤسسات الفاعلة في العالم العربي اليوم والمحرك المستتر لمعظم المنتج الفكري العربي الذي يلتزم حدود الجماعة على الغالب.

ولا يغنينا الكلام الكثير عن الديمقراطية والحرية واحترام الرأي الآخر الذي نسمعه بصيغ متعددة، فهو لا يعدو كونه محاولات مسرحية للظهور بمظهر حداثي ولمماشاة الاتجاه العالمي نحو المزيد من الحرية للأفراد من دون كبير سبر للتناقضات البنيوية التي تجعل تحقيق هذه الحرية والإبقاء على الأنظمة السائدة سياسيًا واجتماعيًا ودينيًا في آن واحد مستحيلاً. فالثقافة العربية لم تعان الحداثة وجوديًا ومعرفيًا وكيانيًا (أنطولوجيًا)، وهي بالتالي لم تصغ مقاربتها لها بنفسها ولم تمر بالهزات النفسية العميقة التي مرت بها المجتمعات الأوروبية خلال اكتشافها لحداثتها. بل إن الحداثة ومستحقاتها من هياكل معرفية وقانونية وسياسية واجتماعية واقتصادية وتكنولوجية، قد فرضت عليها فرضًا في ظل التدخل الأوروبي الذي مهد للاستعمار الحديث وما تلاه من ظهور الدول الوطنية بأنظمتها الإدارية والسلطوية المستوردة في القرن التاسع عشر، وعودتها ثانية في النصف الثاني من القرن العشرين بعد جلاء المستعمر. ولا تختلف ردود أفعال غالبيتها اليوم كثيراً عن ردود أفعال أجدادنا في القرن التاسع عشر عندما جوبهوا بضراوة هجوم الغرب متنامي السيطرة الذي ابتدأ يهدد سلطتهم في بلادهم بعد أن كان قد قضى على أي نفوذ لهم خارجها. فقرروا إما تقليده لتلافي تهديده ومن ثم مجابهته. أو الانكفاء على أنفسهم وتناسي التحدي آملين بحل ما. وعندما فوجئوا بالغرب ينزل عليهم مضاربهم محتلاً ومستغلاً ويجبرهم على تقليده وفق هواه ووفق مخططاته الاستعمارية اضطروا للانصياع. ولكن هذا التقليد، سواء منه المقتبس محليًا أو المفروض استعماريًا، لم يتجاوز المظاهر والقشور. فلا الحكام المحليون وأعوانهم ولا المندوبون الساميون المعينون من عواصم الاستعمار وإداراتهم، كانوا فعلاً معنيين بتهيئة تربة صالحة لبزوغ حداثة خاصة بالشعوب العربية التي حكموها كثقافة وكجماعات بشرية متميزة، نابعة من إدراكها ومعاناتها واصطدامها بمعطيات العصر العلمية والفكرية والتكنولوجية. بل هم لم يزيدوا على أن أنزلوا المظاهر الحداثية تنزيلاً على القواعد المعرفية الموجودة من دون محاولات جادة لتطويرها أو مراجعتها ونقدها إلا فيما ندر (حالة مصر محمد علي هي واحدة من هذه النوادر التي بدأت كإرهاص يفتش عن كيان اجتماعي وسياسي جديد). وحتى هذه الحالات النادرة لم يتح لها أن تعمر طويلاً أو أن تنفذ عميقًا في الطبقات الجديدة المتعلمة التي أنتجتها لأغراض وظيفية محددة من إدارة وجيش وصحة وتعليم وهندسة وتخطيط.

وهكذا حصلنا على «نظامنا الجديد» - كما عرفه محمد علي والسلطات العثمانية كل على حدة في بداية القرن التاسع عشر، وجيوشنا الجديدة وحكوماتنا الجديدة وشرطتنا الجديدة ومخططاتنا العمرانية الجديدة. وبعدها في القرن العشرين، حصلنا على دساتيرنا الجديدة وأعلامنا الجديدة وبرلماناتنا الجديدة وقوانيننا الجديدة وسجوننا الجديدة وجامعاتنا الجديدة ومدارسنا الجديدة ووسائل إعلامنا الجديدة، غالبًا كمنحة مفروضة من الأعلى من دون كبير مشاركة أو إدراك من القاعدة. ولكننا لم نحصل على حداثتنا ولا على فكرنا الجديد ولا حرياتنا الجديدة إلا كبدايات واعدة في تلك اللحظات الوامضة القصيرة في النصف الأول من القرن العشرين التي اصطلح على تسميتها تيمنًا بإيطاليا القرن الخامس عشر، «عصر النهضة

الحـــرية والانتمـــاء



العربية»، حينما سطعت أصوات حرة وقوية تسبر غور مجتمعاتها وتنقد هياكلها المتهالكة وتقترح أسسًا جديدة وجادة وموضوعية للنهضة، وفي رحم هذه الحركة النهضوية استطاع فنانونا وأدباؤنا ومفكرونا النهضويون بعد نجاحهم في هضم واستعمال الأدوات الأساسية لحرفهم التي تعلموها من الغرب أن يصوغوا نتاجًا ثقافيًا متميزًا وأصيلاً ومتعلقًا ببيئته ومنتميًا لتاريخه مع تلاقحه في الوقت ذاته مع تيارات الثقافة العالمية وتجاوبه معها وطرحه لمعاناة إنسانية شاملة. وقد دام هذا المشروع النهضوي لفترة قصيرة، واستفاد من فراغ الحرية النسبي الذي حققته حركات مقاومة الاستعمار في مختلف البلاد العربية قبل وبعد تحررها. ولكنه لم يتمكن من تجاوز إطاره النخبوي تعليميًا وطبقيًا والتغلغل إلى لب المجتمعات الشعبية التي بقيت غريبة عنه، أو من إيقاف مد الأنظمة الشمولية التي جاءت بعد مرحلة الاستقلال كردة فعل منطقية للتناقضات الاجتماعية التي تجاهلتها حركات التحرر البرجوازية أو حاولت قمعها أو حلها تجميليًا.

وجاءت مأساة فلسطين وخسارة الجيوش العربية الفادحة أمام المنظمات اليهودية عام ١٩٤٨ وغرس إسرائيل في قلب العالم العربي لتعطي دفعة قوية للمطالبين بأنظمة سياسية جديدة ومختلفة في الدول العربية الناشئة. ووجدت الأنظمة الثورية الساذجة والمتحمسة التي جاءت إلى السلطة بانقلابات عسكرية في أعقاب تلك الخسارة تحت شعارات رنانة من الحرية والوحدة والاشتراكية في التهديدات الصهيونية والاستعمارية والرجعية، الحقيقية منها والمتخيلة، المتكأ الذي كانت تفتش عنه لتبرير إلغائها لتعددية الأصوات، «لئلا يعلو صوت على صوت المعركة». ولكن هذه الأنظمة استمرت على ما يبدو لعبة تكميم الأفواه بسبب وبدون سبب حتى عندما استبدلت شعارات المعركة بشعار السلام كخيار استراتيجي في السنوات العشر الماضية. وقد وافق هذا التوجه مصلحة الغرب المسيطر، الذي استمدت الأنظمة منه عكازاتها وأوراق قوتها، على الرغم من أن هذا الغرب نفسه دعم حركات التعددية في كل بقعة أخرى في العالم تقريبًا ماعدا العالم العربي. فالغرب، وإن لمحت أجهزة إعلامه وبعض مسئوليه إلى حالة حقوق الإنسان المتدهورة في عالمنا العربي بين حين وآخر، لن يحاول قلقلة أنظمتنا الشمولية لأن التعامل مع طرف واحد قلق على كرسيه أسهل كثيرًا من إقناع شعب بكامله بحق الغرب في نفطنا بأسعار متدنية وبحق إسرائيل في الوجود.

وهكذا نجد أنفسنا اليوم بعد عقود من التسلط السياسي والاجتماعي والاقتصادي ووأد كل مشروع تنويري أو تحديثي أو حتى ديني أصولي يمكن أن يهدد شمولية الأنظمة وتسلطها بحجة أو بأخرى، قد انكفأنا كثقافة، وربما كأفراد، على أنفسنا وعلى ماضينا، وعدنا للانغماس في نقاشات مستمرة وسفسطائية على المدى الطويل، تكرر في بنيتها وإن لم يكن في مداها ومنهجها نقاشات القرن الماضي، عن الأسلوب الأنجح في اقتباس وتطبيق بعض مظاهر الحداثة (الغربية عنا، والغربية عمومًا) التي نجد أنفسنا بأشد الحاجة إليها للعيش في هذا العالم على الأرضية المعرفية ما قبل الحداثية التي يصر الكثير منا على التمسك بها من دون أن يدركوا عبثية التوفيق بين المنحيين. وبدأنا ننسى أن العصر غير العصر، وأن المشاكل التي نعاني منها كمجتمعات وكشعوب هي مشاكل معاصرة لها جذورها ومسبباتها الحقيقية في تاريخنا الحديث وهياكلنا الطبقية والإنتاجية والاجتماعية والفكرية الجديدة وفي العلاقات الدولية المعاصرة، وأن علينا التعامل معها وجهًا لوجه من منطلقات العصر ومكاسبه وإطاراته السياسية والاقتصادية والمعرفية. بدلاً من ذلك، انكببنا على تحديث تراثنا وتلميعه، مما أفقده في الحقيقة مصداقيته التاريخية وحوله إلى مسخ تراثي - حداثي، ليحل في مخيلتنا وفي خطاباتنا محل واقعنا المزري والمعتقل في سجون الأنظمة والمحدد بالعقليات المتسلطة والجامدة.

في هذا المحيط المعرفي الراكد، لابد أن يكون دوي تفكير الأحرار والمتفردين مزعجًا ومقلقًا للسادرين في غيهم الشمولي والاستبدادي أو في نقاشاتهم اللامجدية عن خروجنا عن مأزق الحداثة مع كل مكاسبها المرجوة بأيدينا من دون أن نعاني الحداثة أصلاً. ربما كان هذا هو سبب ردود أفعال المؤسسات المهيمنة العنيفة والهزلية في آن واحد مؤخرًا: فأي تعبير فردي خارج إطار الجماعة يمكن أن يفتح صندوق «باندورا» المقفل بكل أفاعيه وسمومه، وبكل تناقضاته ومهازله وحساباته المؤجلة. وقد يؤدي هذا الفتح إلى زحزحة الاستسلام المتكاسل الذي أصابنا أفرادًا وشعوبًا وجعلنا نركن إلى واقعنا المزري كما لو أنه قدرنا المحتوم من دون كبير مساءلة أو محاولة للمقاومة أو للتفتيش عن بديل، وعلى هذا فأي قصيدة أو أغنية أو لوحة أو فيلم أو مقالة أو كتاب أو محاضرة أو برنامج أو تنظيم أهلي أو قناة فضائية جريئة أو حتى تصرف فردي يشذ عن المرسوم، خطر يجب إسكاته وطمسه ومعاقبة المسئول عنه. ولا يغفر لبعض هؤلاء المتسائلين تراثهم النضالي الطويل والواضح الانتماء، كما حصل لبعض من أعظم شعرائنا وكتابنا ومغنينا في الآونة الأخيرة. بل ولا يفلت من ذلك البطش حتى بعض مفتشي الرأي أنفسهم عندما يحاولون، بسذاجة أو بمكر، التعبير عن آرائهم هم بعدما طمسوا آراء الغير كما حدث في أكثر من حالة في مصر مؤخرًا.

من هذا المنظور، يبدو الطريق إلى تحقيق بعض من حريتي التعبير والاعتقاد في العالم العربي شاقًا وطويلاً وأعقد بكثير مما يحلو للكثير من المصلحين والمفكرين المتفائلين أن يتصوروا. فالعالم العربي بالتأكيد ليس هناك بعد، لأن الأنظمة والمنظمات والهيئات والمؤسسات التقليدية بهياكلها القائمة لا يمكنها السماح بحريتي التعبير والاعتقاد، والعمل بوحي من هذا الاعتقاد، من دون التخلي عن هياكلها وقواعدها المعرفية، على الرغم من أن تواقيع مندوبي الدول العربية مثبتة على النص الأصلي للإعلان العالمي لحقوق الإنسان بما يفترض أن الحكومات العربية واعية بالتزامها به بكامل مواده، على الأقل نظريًا. كل ما ألاحظه هو أن أفرادًا ومؤسسات عديدة في العالم العربي اليوم - من مختلف الاتجاهات والعقائد - يحاولون ممارسة حريتي التعبير والاعتقاد كما يفهمونها في محيط لا يريد أن يدرك أهمية هاتين الحريتين أو يحترم ممارستهما. ثم يدفعون الثمن الباهظ لمحاولاتهم سجنًا وتغريمًا وتهديدًا للسمعة، وأحيانًا إعدامًا أو اغتيالاً أو تشريدًا. والبعض غيرهم ينتظرون وجلين أن تكتشف تجاوزاتهم المتحررة التي لم ينتبه إليها حماة النسق المعرفي السائد بعد ويداورونها بكل الوسائل الممكنة. والكثيرون ملوا انتظار التغيير فهاجروا إلى بلاد الله الواسعة، ربما أتيحت لهم هناك كسرة من فرصة بممارسة حريتهم بالتعبير وبالاعتقاد.

نقطتان مضيئتان اليوم تنفحان بعضًا من أمل في نهضة تحررية قادمة، فلسطين المحتلة والشتات العربي في الغرب. كلاهما في بداية نضاله لتعريف هويته الثقافية العربية خارج الإطار الجيوسياسي للعالم العربي وأدواته القمعية. وكلاهما يقف بمواجهة تحديات هائلة من نوع آخر. فالمشهد الثقافي العربي في أوروبا والولايات المتحدة اليوم غني بانجاهاته الديناميكية التي تحاول الاستجابة لضغوط الهجرة والتمييز العنصري من جهة والانتماء والحنين من جهة أخرى والتعامل مع مناخ الانفتاح اللاميالي في آن واحد. وتبرز هذه الخواص في أعمال الكثير من الفنانين والمثقفين والكتّاب والمفكرين العرب المهاجرين والمقيمين والمنتجين في أوروبا والولايات المتحدة، الذين يفوق عددهم عدد أمثالهم في العالم العربي نفسه وعدد أمثالهم من المهاجرين من أية قومية أخرى (مما لابد أن يطرح سؤال لماذا؟). وكذلك تبرز هموم الوطن الأم وهموم التحرر في الصحف والمجلات العربية التي تنشر في أوروبا والولايات المتحدة والقنوات الفضائية التي تبث بالعربية، والكتب التي تطبع بالعربية والأفلام السينمائية عن العالم العربي التي تنتج من قبل سينمائيين عرب، وأصوات المغنين العرب التي تصدح على مسارح وإذاعات بلاد الهجرة. يرافق هذا الزخم الثقافي العربي في بلاد المهجر، حيث تتوافر حرية نسبية في التعبير والاعتقاد، تواجد سياسي وتنظيمي لمذاهب دينية وحركات صوفية وكنائس شرقية وحركات فكرية وسياسية نابعة من العالم العربي ومضطهدة فيه ولكنها مهمومة بهمومه. وكذلك الحال بالنسبة لدعاة حقوق الإنسان العرب والسياسيين المبعدين والناشطين الدينيين والعلمانيين وحتى العسكريين المطرودين وشذاذ الآفاق والمغامرين العرب، الذين سمحت لهم الأوضاع بالتعبير عن أنفسهم في أوروبا والولايات المتحدة بغض النظر عن توافقهم الفكري مع بلاد هجرتهم. كل هذه الإرهاصات زاخرة باحتمالات التغيير التي لم تجد لنفسها متنفسًا في منبتها فهاجرت بحثًا عن النور والهواء، ولكنها مازالت مسكونة بآلام وآمال الوطن الأم.

أما شعب فلسطين المحتلة فهو من خلال نضاله المستمر، الذي يتأجج انتفاضات تراجيدية متوالية، يسعى لأن ينتزع في آن واحد حريته في تقرير مصيره الوطني على أرضه، وحريته في رسم حداثته الخاصة به، على الرغم من وعورة الطريق إلى كلا الهدفين، وعلى الرغم من المعارضة الخارجية والداخلية العنيفة التي تتشابه في بعض معطياتها ومتبلاتها في العالم العربي ككل. ولكن معاناة الاحتلال العسكري الإسرائيلي الغاشم من جهة ومعاناة الاحتكاك الدائم بثقافة المستوطن اليهودي الغربي الحداثية من جهة أخرى، قد عجمتا عود الشعب الفلسطيني - في الداخل ولكن في الشتات بوجه خاص - وشحذتا وعيه مما أكسب بعضًا من أفراده شجاعة المستميت في التعبير والاعتقاد والدفاع عن هذا الاعتقاد. (ولابد هنا من ملاحظة الظاهرة نفسها في تطور فكر حزب الله في لبنان من حزب شيعي إلى حركة تحرر وطني بالمعنى الحداثي للكلمة)، بل إن بعضًا من هذه الأصوات بدأ خارج المحيط الفلسطيني ليلهم أشقاء عربًا يعانون من انعدام الحرية في بلادهم من دون محتل يمكنهم أن يلقوا اللوم عليه أو يناضلوا وطنيًا ضده. هذه الأصوات، بعفويتها وبرسوخ قناعاتها بحقها في أرضها وبانتمائها لهذه الأرض على الرغم من كل الضغوط الغاشمة تذكرنا جميعًا، نحن الذين أنسينا أو تناسينا، بحقنا بالحرية بواجبنا بالكفاح في سبيلها.

نقطتان مضيئتان اليوم تنفحان بعضًا من أمل في نهضة تحررية قادمة، فلسطين المحتلة والشتات العربي في الغرب. كلاهما في بداية نضاله لتعريف هويته الثقافية العربية خارج الإطار الجيوسياسي للعالم العربي وأدواته القمعية. وكلاهما يقف بمواجهة تحديات هائلة



يعود الأمس لنا.. عندما نكتب

مــرفت عــبــدالنــاصــر

ارسم صـــــــــورة
لـرع.. فـى قـــــارب
وأرسم بالقـــرب منهـــا
صـــــــــورة للنفس
التى تبـــغى أن يكون
لهـا قـيـمـة أو شـأن
فـــــــإن رآها رع
وهو يجـدف فى السمـاء
وشـــعـــر فى قلبـــه
أنهــا روح تستـــحق
هـذا الشـــــــأن..
ســوف تعـود معـه
روح جـــــــديدة
فـى الغـــــــد..

كتاب الموتى
١٥/١٣٣

روح كهف المخاطر
وعلشان خاطرى خاطر..

كلمات إعلان من إعلانات الرسوم المتحركة القديمة عن عطر «قسمة» تطلب فيه الأميرة غادة من الشاطر حمادة أن يذهب «لكهف المخاطر» ليحصل لها على «قسمة» ويصبح بهذا جديرًا بها!..

كنت أحب كلماته وموسيقاه وأنا صغيرة وأرددها كثيرًا وأشعر بأنها ليست كلمات فى إعلان عابر، بل إنها كلمات سر سحرية تدخلنى عالم المغامرة والمخاطر والأساطير.. كنت بالطبع أريد أن أكون «الشاطر حمادة» الذى يذهب بنفسه إلى أرض المخاطر ليبحث عن كنز مختف فى مغارة ما ليس من أجل الأميرة غادة أو أى أميرة ما، فهذا لم يعننى على الإطلاق.. ولكننى - دون أن أدرى - كنت أشعر أن فى مغارة المخاطر «قسمة الحياة».. قسمة البحث والتنقيب عن المجهول.

وكبرت دون أن أعرف أننى أمضيت حياتى بالفعل (ومازلت) فى اقتفاء أثر هذا المصير.. حتى بدأت أدخل عوالم معرفية مسحورة.. شعرت من خلالها أننى ربما أكون قد تمكنت حقًا من اجتياز بوابات المغارة الحقيقية.. وأن هذا الشىء المجهول ما هو فى الحقيقة إلا «كتاب تحوت» الذى ضاع منذ زمن بعيد ولم يستطع أحد أن يعثر عليه.. كتاب يقولون عنه فى الحواديت أنه لن يصل إليه يومًا إنسان.. كتاب مدفون فى مغارة ما فى آخر البلاد ويقولون أيضًا أنه محفوظ فى خزانة البرونز داخل الخشب، أما خزانة الخشب فهى محفوظة فى خزانة من صفيح يحرسها ثعبان!.. من يحاول العثور على هذا الكتاب له أن يذبح الثعبان.. لابد أن يحصل على الكتاب بدون أن يؤذى كائنًا ما كان.

«كتاب» فى «خزانة من الصفيح» يحرسها ثعبان فى مغارة فى آخر الدنيا، الوصول إليها محفوف بمصاعب ومخاطر لا بداية لها ولا نهاية.. لابد لمن يأخذ على عاتقه مهمة البحث عن هذا الكتاب أن يملك الرغبة والتحدى مع مقدرة خاصة تفوق إمكانات بصر العين، لابد أن يملك القدرة على رؤية وفهم واستيعاب الأشياء من الداخل.. أن يملك «سيا».. «البصيرة» تلك التى تجدف ليلاً لمركب «رع» المسافر فى السماء حتى يتغلب على ثعابين الظلام ليخرج مع كل نهار صباحًا جديدًا!!

ما هى «سيا» تلك وما علاقتها بتحوت وكتابه.. ناهيك عن عين حورس!

سيا - مفهوم مصرى فلسفى فى غاية التعقيد!.. «سيا» تعنى «المعرفة الكلية» الباطنة والمكتسبة. الكم المعرفى غير القابل لاختزالات منطقية سريعة.. ولهذا لا يمكن تعريفها بسهولة ولكنها تحوى فى طياتها مكونات معرفية عالية فى الدقة.

أول مكوناتها «ريخ»، وهى «تقنية المعرفة» - أى الوسائل والأساليب المختلفة التى تكتسب من خلالها المعرفة ونسجل بها أيضًا هذه المعرفة وننقلها للآخرين. وبهذا تكون «ريخ» هى «المعرفة المتعلمة» أى «الجانب المعلوماتى» من المعرفة ومن أجلها اهتم المصرى القديم بفكرة التوثيق - أى الكتابة من أجل التسجيل - ومن هنا يأتى أول الأدوار التحوتية.. «صناعة الكتابة واختراع الحروف والجمع المعرفى» وبهذا جاءت تسميته فى الكتابات القديمة «ريخ - سو» (الذى يعرف) وأحيانًا ريخ - تم (الذى يعرف كل شىء).

ويعين تحوت فى عملية الجمع والتوثيق والتسجيل «سيشات» المماثل الأنثوى له والتى تعرف بـ«ربة المكتبات». تحمل «سيشات» فوق رأسها تاج «النجمة السباعية» الذى ربما يرمز مجازًا «للسبع كلمات الإبداعية» والتى لا يعرف أحد بالتفصيل مغزاها ولكنها ربما تدل على نظام تصنيفى دقيق للمعرفة يتمكن من خلاله القارئ من اكتساب المعرفة بشكل منظم وإبداعى، أما لباس سيشات فهو «رداء الكهنة». فهى بالفعل كاهن محراب الكتب فى معبد المعرفة «بير عنخ» أو «بيت الحياة». وتمسك سيشات دائمًا «بسعفة النخل» رمز السنين والعمر والتاريخ، لدرجة أن الكتابة ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بمفاهيم الخلق واستعادة الحياة مثلها مثل الأسطورة الأوزورية نفسها، كم هو رائع هذا التعبير «يعود الأمس لنا.. عندما نكتب».

ومع كل هذه الأهمية التى أعطيت للكتابة وصناعة الكلام إلا أننا نرى رع فى حكاية جميلة - عرفت عن طريق أفلاطون - يحذر تحوت بمخاطر الكلمة المكتوبة ومخاوفه من أن يدرك البشر أن «الكتابات» هى المصدر الوحيد للمعرفة الكلية، يقال إن تحوت ذهب يومًا إلى رع متهللاً يحكى له بفخر شديد عن اختراعه للحروف، فلم يجد منه غير اللامبالاة ولهذا أخذ تحوت يعيد عليه أخبار اكتشافه وسعادته أن الحروف معناها الكتابة وهذا معناه الكتب.. حتى نطق رع بعد أن نفد صبره قائلاً: «تلك هى المشكلة.. سوف يظنون أن المعرفة تأتى فقط من الكتب»!

وأيضًا إيزيس - التى كان لها دلال كبير على الجد الأسطورى «رع» واكتسبت الكثير من علمه وحكمته - نراها فى بعض المواقف توجه النقد لتحوت بسبب اهتمامه الزائد والمفرط بتفاصيل معرفية على حساب أولويات الموقف الآنى، تقول الأسطورة إن إيزيس استعانت يومًا بتحوت ليشير عليها بعلاج لابنها المريض حورس.. فأخذ تحوت يشرح ويفسر ويسهب فى طبيعة الحال وأسبابها حتى قالت له إيزيس: نعم نحن نعرف أنك الحكيم وتعرف كل شىء ولكنك بطئ للغاية فى اتخاذ القرارات»!

ومن هذه الأمثلة ندرك أن الحصيلة المعلوماتية مهما زادت واتسعت غير كافية وحدها لاكتساب «سيا» ومن هنا تأتى أهمية «حيكا»، أى ملكة الحدس البديهية، وهى تعبر عن تلك المعرفة الداخلية (غير المفهومة) والتى تسكن الأحشاء كما أسماها المصرى القديم، وكما تعبر عنها مفردات لغات كثيرة حتى الآن.

حيكا - هى المعرفة الضرورية التى تأتى للإنسان من حيث لا يدرى لتنقذه فى المواقف الصعبة والحرجة والمهددة لكيانه ووجوده وهى التى تظهر الإنسان متميزًا عن أقرانه وأنداده، إنها المعرفة الدفاعية التى ينتصر الفرد بأسلحتها على كل القوى المعادية

والمشاكسة، إنها القدرة على التصرف السريع الحكيم في الظروف المعقدة، إنها قوة الفرد الغامضة والمدفونة فيه. ومن هنا فإن القرارات التي توحي بها حيكا غالبًا ما تصدق صحتها وإن بدت أحيانًا للوهلة الأولى غير منطقية، إنها أيضًا التعبير الحقيقي عن سحر الشخص نفسه وقدراته الخاصة على تطويع المعرفة المكتسبة لصالحه، إنها ببساطة «المعرفة الإبداعية والقدرة الخلاقية». هذه هي «حيكا».. ومن يمتلكها يملك حساسية عالية متميزة - مصنفة ومرشحة جيدة لكل المؤثرات الخارجية السمعية والبصرية وكل ما يستقبل بالحواس الخمس، ولهذا من الممكن أن نقول مجازًا عن «حيكا» إنها «الحاسة السادسة»، كما هو متعارف عليه في تعبيراتنا العصرية.

قرأت منذ فترة بعض الكلمات التي نقلت عن الفيلسوف «كيرجارد» تقول: «فلتجعلني أسمع ما يستحق أن يسمع وأرى ما يستحق أن يرى»، وبالطبع موضوع ما يستحق أو لا يستحق إدراكه أمر متروك للتمني! وأيضًا تقييم ما يستحق بالفعل عملية يطول الشرح فيها، ومع هذا فلقد تعلمت أن أقولها لنفسي في كل صباح عسى أن أنجح فعليًا في ترويض حواسي على الاستقبال الاختياري الجيد للمؤثرات الخارجية!

فالقدرة على التعرف على «حيكا» يعني بالضرورة امتلاك درجة عالية من حدة وحساسية الإدراك. التعرف على حيكا هو التعرف على الطاقة الكامنة فينا وممارستها في ممارسة الحياة كما ينبغي أن تكون، مبدعة وخلاقة. فحيكا هي الروح الفعالة - (حي - كا - الكا في فعل / الكا تفعل)، وبالتالي من لا يستخدمها أو لا يعرف كيفية ممارستها والتعامل معها يقول المصريون عنه إنه «بلع سحره» مثله مثل من فقد ذاكرته الإبداعية.

وربما يتساءل البعض ويقول أليست «حيكا هي لعبة السحر القديمة؟ والتي أخذ كثيرًا على مصر الاهتمام بها وكانت السبب في اتهامهم الدائم بغياب الفكر المنطقي. أليس إرثنا منها هو ما تلقى على عاتقه مسئولية الجهل والشعوذة التي مازلنا نعاني منها حتى الآن؟

لا.. لا أعتقد هذا مطلقًا «فحيكا» ليست الضرب بالبيضة والحجر (حرفيًا على الأقل!)، ولكنها شيء آخر معقد في عمقه مازلنا نسمع أصداءه في تاريخ الوعي الإنساني والفلسفات الحديثة.

لماذا نجح هاري بوتر؟ سؤال يفرض نفسه على كل المفكرين في الوقت الحالي - تلك القصة التي كتبتها سيدة مجهولة للأطفال وهي جاهلة تمامًا بحرفة الكتابة وأدواتها، ليتهافت عليها الكبار قبل الصغار وتصبح ظاهرة ثقافية في مجتمعات ما بعد الحداثة، مجتمعات سفن الفضاء وشبكات الاتصال ونقل المعلومات.

ألم تعتمد حدوتة «هاري بوتر» في محورها على «حيكا» وإن كانت صانعتها غير متمكنة من «ريخ»؟

لتحكي لنا عن طفل يكتشف في نفسه قوته السحرية التي تسميها الكاتبة «رولنج» بدون تلاعب أو تغيير باسم السحر الواضح والصريح.

لماذا نجحت القصة وهي تبدو خرافية - قد يقول البعض إنه أمر خطير جدًا فهي تروج للامنطقية ولتغييب الوعي ونجاحها يعكس قوة ونفوذ سياسات تسويق الكتب الحديثة، وفي أفضل الحالات التفسيرية ما هي إلا نوع من التمرد يقصد به هدم النظرية العلمية لأنها في نظر عدد غير قليل لم تأت بما كان متوقعًا منها، بل ربما تكون قد خذلتنا.

وعندما فشل الكبار في إيجاد تفسير مقنع لظاهرة هاري بوتر، قرروا أن يسألوا الأطفال أنفسهم: لماذا يحبون هاري بوتر؟

«الجميل في هاري أنه لم يعرف في البداية عن قدرة السحر الموجود فيه، لم يعرف أنه مولود هكذا. ولكنه قام باكتشافه في نفسه، إنه طفل عادي مثلنا، ولكنه فقط حكيم!». إجابة طفلة عمرها ست سنوات!، وقالت أخرى: «إن هاري استخدم مهارته في التحليل والتركيب فقط بعد أن التحق بمدرسة الحكماء، أريد أن أدخل مدرسة كمدرسة هاري، ربما أستطيع يومًا أن أصنع دواءً شافيًا للسرطان».

وآخرون قالوا إنها قصة مليئة بالحركة والمغامرة والاكتشاف والجميل في هاري أنه يملك شيئًا غريبًا لكنه لا يتباهى به دائمًا.. إن له حياته العادية وله حياة أخرى سحرية. والبعض من الأطفال كان متأثرًا أيضًا بنشأة هاري وطفولته السيئة التي لم تكن عقبة في طريقه لاكتشاف قدراته التي لم يكن يعرف أنها موجودة فيه وهي نفس القدرات التي جعلته في التغلب على صعاب كثيرة فيما بعد.

من هنا نرى أن الأطفال لم يروا في هاري بوتر قصة سحر خرافية ولكنهم اكتشفوا بأنفسهم ضرورة اكتشاف النبع الداخلي والتعرف على المواهب الخفية وضرورة «التميز» في مجتمعات «القوالب العادية والتي تحجم وتسطح الفرد»، وأن العادية برتابتها وقواعدها قد تكون ظالمة مظلمة كالنوم في غرفة ضيقة تحت السلم حتى يكتشف الإنسان نوره الداخلي فيضيء عتمة المكان ويكبر بسحره حتى «يصير السحر حكمة» عندما يلتحق «بمدرسة الحكماء» فيصعد السلم.



يقول مارسيل بروست «لا تأتي الحكمة هكذا ولكن لكل واحد أن يجدها في نفسه بعد رحلة يقوم هو بها ولا يمكن أن يقوم بها أحد بدلاً منه»، وهي نفس الحكمة التي قال عنها فرويد: «إن الوصول إليها لا يتم إلا ببحث شاق وتنقيب، كالتنقيب عن آثار مدفونة في باطن الأرض أو فتح مدينة مجهولة، إنها اكتشاف الحياة السابقة للعقل!».

ومن هنا جاءت أيضًا «التوليفة البروستية» في علاقة «الذاكرة بالمعرفة»، فالذاكرة مرتبطة بشكل وثيق بالإدراك الانتقالي وأيضًا المقدرة الاختيارية على اختزان ما يريد الإنسان اختزانه - إراديًا أو غير إرادي - بعد تصنيفه أولاً والحفاظ عليه في ملفات تتحكم فيها ملكته الخاصة في التخليق والإبداع، وهي التي تصنع بعد ذلك التركيبات الاستعارية والكنايات التي نستعيدها ونسترجعها كل يوم عندما نخرجها من أراشيف الذاكرة.. «كاستعادة أزمنة ماضية» - تلك الكنايات التي تحكم بدورها سلوكياتنا وأفعالنا.

وهذا يعني أن كلا من «فرويد وبروست» أعطى أهمية كبرى لمفهوم «الحيكا المصري» والدور الذي تلعبه في تكوين الفكر التطوري، ولكن أهمية «ملكة السحر الداخلي» لم تجعل المصري القديم يغفل دور التقنية خاصة دورها التنظيمي والترتيبي لمصادر المعرفة المختلفة وطرق استخدامها وتناقلها ولهذا يعود مرة أخرى إلى «ريخ» ويربط ربطًا رائعًا بينها وبين «حيكا»، ليقول لنا إنه لابد من تواجد الاثنين، «أي منهجية المعرفة وسحر الكشف الإبداعي».. لو اهتم الإنسان بشكل ووسائل اكتساب وتوصيل المعرفة أي «ريخ» على حساب «حيكا» دون صياغتها في قواعد وقوالب وأشكال منطقية متعارف عليها وقابلة للتداول بين البشر.. ومن هنا تأتي الكلمة ليست كأداة اتصال ولكن كنفوذ لغوي مؤثر في حد ذاته، قوة الكلمة التعبيرية وخصوصيتها اللغوية وهو ما أسماه المصري القديم «حو».

تقول الأطروحة على لسان تحوت.. «إن شخصية وموسيقية الصوت في الكلمة ومخارج اللفظ في اللغة المصرية تتجسد فيها طاقة الأشياء، نحن لا نستخدم مجرد كلمات ولكنها نغمات تعلو في قوتها».

وقال المصري أيضًا لغتنا ليست مجرد كلمات، ولذلك كان لابد لها أن تأخذ شكلاً يليق بقوتها. كان لابد أن تكون حروفها على هيئة طيور لتكون الوسيط بين معرفة الأرض والسماء، فالطيور فقط هي التي تقدر على التحليق عاليًا في السماء!».

وبهذا تكون للغة أهمية خاصة بها وليس فقط لكونها أداة كتابة وتدوين.. يقول الفيلسوف اللغوي والمحلل النفسي «جاك لا كان»: «عندما نستخدم اللغة في كلامنا نغرس أنفسنا في نظام رمزي معقد نخضع له فيصنعنا ويعيد صياغتنا. الميزة الطريفة في الإنسان أنه يستعمل اللغة وهو غير واع بأن الكلمات هي التي صنعته وتستمر في صناعته!».

وهي نفس «اللغة» التي قال عنها «فرويد» إنها «تخلق اللاوعي» وهي أيضًا «الاستعارات والكنايات البروستية».. «ما نسميه حقيقة واقعة ما هو إلا لقاء بين إدراك وذكرى - ثم تبدأ الحقيقة عندما تصف لنا كلمات الكاتب هذا اللقاء!».

تحوت - «ريخ تم» - العالم الأكبر.. العارف بتقنيات المعرفة (ريخ) وفي داخله سحره الخاص (حيكا).. كل رموز مدرسة الفلسفة التبصيرية الحديثة من فرويد وبروست ولا كان اجتمعوا في شخص تحوت لتكوين «سيا» أو البصيرة.

كل من فرويد وبروست ولا كان تعامل مع مكونات سيا ليؤكد أهمية وجود كل هذه العناصر فينا لاكتساب الوعي الكامل أو البصيرة.. ومن الممكن مجازًا أن نقول إن فرويد ربما لكونه عالمًا - كان اهتمامه في الأساس بالتنقيب والبحث عن المعلومة أي المنهجية المعرفية (ريخ) - وبروست لأنه أديب كان منطقيًا أن يكون تركيزه أكثر على الإدراك والذاكرة الإبداعية (حيكا) - أما لا كان الفيلسوف اللغوي والعالم النفسي فلقد كان اهتمامه بالكلمة ونفوذها في تشكيل السلوك.

الفلسفة المصرية - سيا (المعرفة الكلية / الحكمة) = ريخ (التقنية / الأسلوب) + حيكا (الإبداع / الخلق) + حو (الكلمة).

الفلسفة الحديثة - البصيرة = فرويد (البحث والتنقيب) + بروست (الإدراك / الذاكرة) + لا كان (اللغة).

ومع ذلك نجد المصري يهتم بدرجات تكوين البصيرة وأهمية التناسب والتناغم بين مكوناتها حتى لا تأتي واحدة على حساب الأخرى، ومن هنا جاء ارتباط تحوت بماعت، التي تعني الهارمونية.

ولكن ما علاقة سيا - بحورس وعينه؟

تقول الأسطورة المصرية إن حورس فقد عينه أثناء صراعه مع ست.. واستعان بتحوت أثناء القتال الذي نجح في أن يعيد إليه عينه المفقودة ولولا هذا التدخل من جانب تحوت لم يكن لهذا الصراع أن ينتهي لصالح حورس.. فهل يا ترى هذا الصراع مجرد صراع بين الخير والشر، وإن كان كذلك فما هو المغزى من وراء فقدان العين؟ ربما تكون هناك قراءة أخرى لهذا الصراع، أليس من المحتمل أن يكون هذا صراعًا رمزيًا بين المعرفة الذكية الأحادية في أهدافها التآمرية والممثلة في «ست» والمعرفة الحماسية المثالية المشحونة بطاقة شبابية اندفاعية وهي الممثلة في شخص «حورس»؟.. ومن المنطقي أن نستنتج ألا يحسم الصراع أي من الطرفين، ليس من المعقول أن تكون النتيجة لصالح المعرفة التآمرية أو المعرفة الاندفاعية، فكلاهما مدمر ولهذا كان لابد من تدخل تحوت ليصحح طبيعة حورس المعرفية ويعينها أن تصبح معرفة مبصرة واعية.. معرفة حكيمة.

عندما أعاد تحوت البصر لحورس.. أعاد له بصرًا جديدًا.. بصرًا مبصرًا.

العين - «الأوتشات» هي أهم الرموز المصرية القديمة والكلمة تحمل في الحقيقة أبعادًا كثيرة في معناها الحرفي مثلها مثل كلمة «ماعت»، ولن أحاول بأي حال اختزانها في كلمات وصفية ولكنني سأشرحها من خلال وصف المصري لعملية حساب النفس.

قرر المصري القديم أن بصيرة الإنسان وحكمته تسكن قلبه، القلب يوزن بميزان ريشة ماعت والناطق بصدق القول في الحياة هو تحوت.

إن عملية حساب النفس هي طريقة رمزية للحكم على النفس أو تقييم النفس من خلال قدرتها على إعادة خلق ذاتها من خلال القول العارف المتمكن والصادق، أي من خلال المعرفة الحقيقية أو «سيا».

عــــــروض مــــوجــــزة

كتب عربية

حديث الزمان

أحمد زكي

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١، ٤٢٠ صفحة



يضم الكتاب بين دفتيه عصارة ما كتب واحد من أهم الرموز الفكرية والأدبية والعلمية في مصر، وبرغم عطائه الفذ وتفرده في مجاله، لم ينل حظه من التكريم حتى رحيله عن دنيانا في ١٣ أكتوبر ١٩٧٥.

جمع الدكتور أحمد زكي العلم والفلسفة والأدب، فقد حصل على بكالوريوس العلوم من ليفربول عام ١٩٢٣، وعلى الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩٢٤، وعلى الدكتوراه في العلوم عام ١٩٢٨، وهي درجة لم يسبقه إليها سوى علي مشرفة وعبد العزيز أحمد. حصل على الأستاذية في الكيمياء، وصار عضوًا بمجمع اللغة العربية منذ عام ١٩٤٦ وحتى وفاته. عين مديرًا لجامعة القاهرة عام ١٩٥٣، ووزيرًا للشئون الاجتماعية عام ١٩٥٢، ورأس تحرير مجلة الهلال من ١٩٤٧ وحتى ١٩٥٠، وأنشأ مجلة العربي في الكويت عام ١٩٥٨.

أُبعد الدكتور أحمد زكي قسرًا عن المشاركة في الحياة العامة في أعقاب أزمة مارس ١٩٥٤، ولا يُعرف سبب وحيد لإبعاده، فربما كان السبب أن الثورة اعتبرته ضمن السياسيين الذين أفسدوا الحياة السياسية قبل يوليو ١٩٥٢، كونه تولى وزارة الشئون الاجتماعية قبل مجيئها، وربما كان السبب أن شقيقه كان الطيار الخاص للملك فاروق، وربما كان نُحي لاعتراضه على ما جرى في مارس ١٩٥٤، ورفضه أن يعمل أستاذًا جامعيًا في وزارة يتولاها رجل عسكري، وخصوصًا أنه تربى ثقافيًا وفكريًا على مبادئ الليبرالية التي عاشتها مصر في السنوات السابقة على الثورة.

ومتابعة أقسام الكتاب تكشف عن موسوعية الدكتور أحمد زكي وتعدد اهتماماته، فهو يكتب في يونيو ١٩٤٩ تحت عنوان «مصرع الحرية في القرن العشرين»، منتقدًا الموقف منها في الشرق والغرب، وبين أصحاب التوجهات اليسارية والليبرالية، يقول: والصراع القائم اليوم بين شرق الأرض وغربها، ليس صراعًا على الحرية، فالكل مجمعون على ضرورة وضعها وراء قضبان من حديد، ولكن الخلاف على مصيرها بعد ذلك، فأهل اليسار يريدون أن يقتلوها بالسم قتلة عاجلة، وأهل اليمين يريدون أن يقتلوها ولكن مصابرة ومطاولة.

ويكتب عن الحكم الصالح فيقول: إن الحكم الصالح ليس بديكتاتورية ولا بديمقراطية، ولا هو بفاشية ولا بديكتاتورية (...) الحكم الصالح برجال له صالحين، يؤمنون بالله ويخافونه، ويؤمنون بالناس ولا يخافونهم، يصدعون بالحق، ويبثون الحب والطمأنينة ويفتحون في قلوبهم للخير بابًا يدخل منه كل راغب في خير، والناس عندهم سواسية(...) يبذلون من أنفسهم أكثر مما يبذلون لها، وتلك صفات الأنبياء، وعز حاكم أن يكون نبيًا.

وتحت عنوان «حروب النساء الناعمة» كتب عام ١٩٤٩ يقول: إن المرأة قد تكسب حق التصويت في سياسة، وقد تكسب ما تراه نصيبها في إدارة، وقد تكسب حق العمل وحقوقًا لها في زواج أو طلاق، وقد تخاصم الرجل خصومة تنتفخ منها أوداجه وينخدش فيها وجهه ويتقطع قميصه، ثم تنفض الجلسة، وتأتي للاستراحة فترة، تبحث فيها عنه وعنها فتجدهما وراء الكواليس وقد جمعتهما قبلة.

إن الغاية لا تستغني أبدًا عن وسيلتها، والرجل وسيلة المرأة، والولد غايتها. أفكار عديدة وموضوعات شتى اجتماعية وسياسية وعلمية وأدبية، جال فيها وبينها الدكتور أحمد زكي، الذي كتب عن الجمال والحب والذرة والهجرة إلى القمر والحياة والحرية ومعنى السعادة وغاية العبادة ودلالة المرض وجمال الشيخوخة والطبيعة وغيرها، يجمع بينها أنها كتبت بلغة أدبية يسيرة وعميقة في آن معًا، سمّاها أحمد أمين أدب العلم، في إشارة إلى دقة الأسلوب وكثافته وهما سمتان اكتسبهما صاحبه من عقليته العلمية، ورقاقة لغته التي منحته إياها ميوله الأدبية وعشقه للشعر.

□ □ □

مي في حياتها المضطربة

جميل جبر

بيروت: دار الجديد، ٢٠٠١، ١٨٢ صفحة



حياة مي زيادة، دراما إنسانية كاملة.

فهذه الفتاة التي ولدت في مدينة الناصرة عاصمة الجليل بفلسطين عام ١٨٨٦، لأب لبناني ماروني وأم فلسطينية أرثوذكسية، قُدِّر لها أن تخلب ألباب الرجال من نخبة المثقفين في مصر والشام لعدة عقود، وصار صالونها الأدبي الأسبوعي تجمُّعًا يضم أشتاتًا من الأفكار والمذاهب، تديره برقة وذكاء وسعة اطلاع، حتى أن كل ضيف فيه، كان يظن أنه المقصود بالحفاوة، المقرَّب من قلب الآنسة، كما كانوا يلقبونها آنذاك.

هفت قلوب الجميع إلى قلب مي، وبينهم من كان في مقام أساتذتها، غير أن واحدًا فقط أحبته على البعد، وبقي هو في دنياه معربدًا كما شاء أن يحيا حياته، يرجوها أنثى لا امرأة أديبة مثقفة، هذا ما تؤكده الرسائل المتبادلة بين جبران خليل جبران ومي، فقد أحبته مي حبًا كبيرًا، أما هو فقد دعاها إلى زيارته في نيويورك كي تقيم معه، طارحًا فكرة الزواج منها تمامًا قبل أن تنشئ مي صالونها الأدبي، نشرت مجموعة شعرية حملت عنوان «أزاهير حلم» بتوقيع «إيزيس كوبيا» في عام ١٩١١ باللغة الفرنسية، وهي قصائد لفتت إليها الأنظار بقوة، بعدها بدأت تنشر مقالات في صحيفة «المحروسة»، وقد أشرف أحمد لطفي السيد على تهذيب لغتها العربية وتصحيح عباراتها، فأطلقت لذاتها العنان، وكتبت مقالات عن حرية المرأة ودورها في النهضة الحديثة، وعرَّفت قرّاء العربية بعديد من أدباء الغرب بلغات مختلفة، حيث كانت مي تجيد الإنجليزية والفرنسية والإيطالية واللاتينية، وتلم بالألمانية والإسبانية وغيرهما. صارت مي جزءًا من حركة النهضة المصرية التي كانت في طور التشكل آنذاك، مما شجع كثيرين من أبرز رجالات العلم على حضور ندوتها كل ثلاثاء، بل الحرص عليها بقداسة بالغة. وقد شهدت ندوتها سجالات بين مصطفى صادق الرافعي والعقاد وطه حسين وأحمد لطفي السيد وإسماعيل صبري وشبلي شميل ويعقوب صروف وخليل مطران وولي الدين يكن وداود بركات ومصطفى عبد الرازق ومنصور فهمي.

وقد عرفت مصر قبل صالون «مي» صالون الملكة «نازلي»، لكن الأخير كان ارستقراطيًا يجمع النخبة المثقفة الغنية، أما صالون مي فكما وصفه طه حسين «كان ديمقراطيًا .. لا يرد عنه الذين لم يبلغوا المقام الممتاز في الحياة المصرية»، وقد قال عنه العقاد: «ساعتان في صالون مي، تنسى معهما أن في البلد أحزابًا أو منازعات سياسية»، بما يعني أنه كان برلمانًا ديمقراطيًا حرًا.

يكشف الكتاب من خلال كتابات مي ذاتها ومراسلاتها إلى أصدقائها، عن توق مي إلى الحرية وتحرير المرأة، لكن في إطار الالتزام بالقواعد والقيم الأخلاقية المتعارف عليها في عصرها، فقد دعت إلى «السفور» لكن ليس إلى حد العري، ودافعت عن حق المرأة في التعليم والعمل، لكن دون أن يجور ذلك على حقوق بيتها وأولادها، وقد استنكرت في رسالة لها إلى صديقها جبران كيف يدعوها إلى أن تسافر بمفردها إلى نيويورك كي يراها وتراه!

وبدءًا من عام ١٩٢٩، بدأت المصائب تتوالى على مي، ففقدت أباها، ثم صديقها يعقوب صروف، وغير صديق وأديب من رواد ندوتها، وكانت فاجعتها الكبرى حين توفي جبران، حبيبها الأوحد، ثم أمها في عام ١٩٣٢، وبدأت تميل إلى العزلة والوحدة، واستسلمت لأحزانها حتى أنها حاولت الانتحار ولم تفلح.

وقد أثرت وحدتها ووساوسها المخيفة على صحتها النفسية والعقلية، ونقلت إلى مصحة «العصفورية» بلبنان، وبقيت فيه تسعة أشهر لا تقابل أحدًا، تنتابها الأزمات فتثور وتنتحب وتكسِّر كل ما يقابلها، ثم يعاودها الهدوء فتدون يومياتها وخواطرها. ويقول الذين زاروها بعد خروجها من المصحة - كما يشير المؤلف - إلى أنها لم تكن مجنونة كما حاول أقاربها الطامعون في ثروتها والذين حجروا عليها أن يشيعوا، بدليل أنها عادت لحياتها الأدبية والاجتماعية، وتواصلت مع أصدقائها عبر الرسائل كما تعودت، حتى وافتها المنية في ١٩ أكتوبر ١٩٤١ بالقاهرة.

□ □ □

التفضيل الجمالي

دراسة في سيكولوجية التذوق الفني

شاكر عبد الحميد

الكويت: عالم المعرفة، ٢٠٠١، ٤٧٢ صفحة



حشد المؤلف في كتابه، المحاولات السيكولوجية المختلفة لدى عشرات الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع والمختصين في علم الجمال، والتي سعت إلى وصف الجمال وفهمه وتفسيره، وقد لاحظ أن تطورًا - وربما تناقضًا - في دلالات المفهوم جرى بتراكم الخبرات وباختلاف البيئات والحضارات، فهل الجمال هو النظام والتماثل والانسجام كما رآه «الفيثاغوريون»، وهل يوازي الجمال الاعتدال ويوزن بميزان الأخلاق كما رآه «دمقريطس»، أم يرتبط بالخير والمنفعة كما تصوره «سقراط»، أم الجمال هو أساسًا في الشكل كما رآه «أفلاطون» لا في المحتوى، وقد تمنى أفلاطون أن يحدث تآلف بين الشكل والمضمون كي يكتسب الشيء أقصى درجات جماله.

ظهر علم الجمال أو «الاستاطيقا» كمصطلح لأول مرة خلال القرن الثامن

عــــــــروض مــــــوجــــزة

عشر من خلال الفيلسوف «بو مجارتن»، وصار هدف هذا العلم الجديد، تفسير الظواهر والخبرات الجمالية، وغاص علم الجمال في بحور العلوم الاجتماعية والإنسانية وأفاد منها وأضاف إليها.

وخلال عصر النهضة الأوروبية عادت أفكار النسبة والتناسب والتوازن والاعتدال إلى الظهور مرة أخرى، وجاءت الرومانتيكية كرد فعل مضاد للاعتماد الصارم على العقل، ورأى «كانط» ـ خلال القرن الثامن عشر ـ أن النشاط الجمالي نوع من اللعب الحر للخيال العبقري المتحرر من النفعية ومن التفكير المنطقي، ورأى «هيجل» الجمال في اتحاد الفكرة بمظهرها الحسي، فيما اعتبر «شوبنهور» الجمال محررًا للعقل.. «فهو يسمو بنا إلى لحظة تعلو على قيود الرغبة وتتجاوز حدود الإشباع».

أما مصطلح «التذوق» الفني، فظهر أيضًا في القرن الثامن عشر في إنجلترا، وقد عرّف أديسون ملكة التذوق على أنها «ملكة الروح التي تتنبه إلى مظاهر الجمال وتستجيب لها بالسرور، وعلامات النقص فتستجيب لها بالنفور».

وعملية التذوق ذات صلة وثيقة بالإدراك، ثم تجرى محاولة للتمييز بين هذه المدركات أى تحليلها إلى مكوناتها الأساسية، ثم إعادة تركيبها في مكوّن جديد، وتتداخل الحساسية الجمالية والحكم الجمالي والتفضيل الجمالي في عملية الإدراك الكلي للعمل الفني، وجميعها مما يتأثر بالأبعاد الثقافية والاجتماعية والمعايير القيمية والسلوكية لدى الفرد الذي يمارس عملية التذوق من ناحية، ولدى المجتمع الذي يعيش فيه وأفضلياته من ناحية ثانية بعد أن يبسط المؤلف تصوراته عن علم الجمال ومفاهيم التذوق والتفضيل الجمالي عبر تطورها التاريخي منذ اليونانيين القدماء وحتى اليوم، يقدم لنا عددًا من النظريات الفلسفية التي اهتمت بالتفضيل الجمالي، ثم يناقش في فصول مستقلة علاقة التفضيل الجمالي بالفن التشكيلي والموسيقى والأدب والبيئة وفنون الأداء، ويقدم في الختام رؤية مستقبلية للتفضيل الجمالي، يمكن أن تفيد في التربية الجمالية للنشء، ويؤكد على أن التربية الجمالية ينبغي أن تقوم على جناحين من التفكير، أحدهما منطقي والآخر إبداعي، كي لا يلغي الخيال أو يواري ضرورات الإلمام بالأسس والقواعد المكونة للعمل الفني أو العكس، ويدعو إلى ثورة تعليمية تسعى إلى التربية عن طريق الفن، وتقرّب المسافات بين فنون الغرب ونظرياته وفنون الشرق، وتنمي إمكانيات التلقي وترتقي بها على نحو نقدي ومعرفي.

□ □ □

فنانون وشهداء
عز الدين نجيب
القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠١، ٢٤٢ صفحة



يمزج المؤلف إبداع الفنانين بواقعهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي، ويجسد مآسيهم على أكثر من مستوى: مستوى الاضطهاد السياسي مثلما حدث مع الفنان عبد الهادي الجزار الذي اعتقل عام ١٩٤٨ بسبب لوحته الشهيرة «الكورس الشعبي»، والتي صور فيها عددًا من أبناء الشعب يقفون حفاة كأنهم في معسكر اعتقال، وأمام كل منهم على الأرض طبق فارغ.

وكما حدث مع الفنانة إنجي أفلاطون التي اعتقلت عام ١٩٥٩ ضمن مئات آخرين ناضلوا من أجل الحرية والعدالة، وقد قضى الجزار في السجن عدة أسابيع، أما إنجي فإن فترة اعتقالها دامت ٤ سنوات.

ويطلعنا المؤلف على جوانب اجتماعية قاسية أودت بحياة بعض الفنانين، بينهم «تحميا سعد» الذي أحب فتاة فقيرة مثله كانت تعمل «موديلاً» للفنانين، ولم يستطع بسبب فقره المدقع أن يتزوجها، وأبت نفسه الكريمة أن يعيش على كدها، واضطر إلى هجرها، ومات بنزيف في الصدر، غير أن القريبين منه أدركوا أن وفاته سبقت ذلك بكثير بسبب ما عاناه من نكران وجحود.

وكذلك تسببت الظروف الاجتماعية التي واجهها الفنان سعد الخادم، الذي ينتمي إلى أسرة أرستقراطية في تحويل حياته وحياة زوجته الفنانة عفت ناجي إلى جحيم، إذ بسبب فقرهما الشديد، اضطرت زوجته إلى أن تبيع أثاث بيتها وبعض ما يمتلكانه من تحف نادرة.

وظل الفنان عبد المنعم مطاوع يعاني طوال حياته من الفقر والتشرد، بلا بيت يؤويه ولا مرسم ينتج فيه، وقد فارقت روحه جسده بين يدى طبيب ناشئ في مستشفى حكومي بقرية وحوله نفر قليل من محبيه الفقراء.

وقد لفظ الفنان كمال خليفة أنفاسه عام ١٩٦٨ في حجرة بائسة فوق إحدى العمارات، مفلسًا لا يملك نفقات علاجه عن عمر يناهز ٤٢ عامًا.

وحين واجه الفنان متعدد المواهب

رحلة إلى عالم الجن والعلاج الروحاني
نادية رضوان
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١، ٣١٠ صفحات



ميزة هذا الكتاب ومأزقه في نفس الوقت، أن مؤلفته أستاذة جامعية متخصصة في علم الاجتماع.

الذين يؤمنون بعالم الجن والعلاج الروحاني، وجدوا فيما قالته دليلاً على صدق إيمانهم، فبعد أن كان الوثوق بهذا العالم والاقتراب منه من خصال العامة، ها هي أستاذة جامعية تنضم إلى القافلة، بما يعطي عالمهم صدقية أكبر.

على الجانب الأخر، المشككون في وجود هذا العالم وصلته ببني الإنسان، سارعوا إلى إدانة المؤلفة، واعتبروا ما ساقته في كتابها محض خيال، وتحريض على العودة إلى عصور الغيبيات والظلام، فكيف والعالم يحتفل ببدايات الفيته الثالثة، مصحوبًا بانتصارات تكنولوجية هائلة تطل علينا أكاديمية تدعي اتصالها بعالم الجن، وتتلمس علاجًا لمشكلاتها عند أعتابه؟

لكن ثمة ميزة ـ وربما مأزق ـ إضافية في الكتاب، أنه يستند إلى تجارب شخصية مباشرة للمؤلفة في هذا العالم، ليس بحوثًا نظرية أو استخلاصات من تجارب آخرين، بل هي التجربة التي عاشتها عبر ترددها على عشرات الوسطاء والمعالجين الروحانيين في مصر والعالم ترجو عندهم الشفاء من صداع مزمن لازمها لأكثر من ربع قرن، وجرّبت بسببه عشرات الأدوية والوصفات والعلاجات التي نصحها بها الأطباء، لكن الأطباء فشلوا، فلم يكن بد من أن تقرع أبواب من يزعمون قدرة على الاتصال بالجان والعلاج الروحاني، وهكذا وقعت المؤلفة ضحية لعدد من الدجالين والمشعوذين وأرباب السوابق، وصادفت آخرين حاولوا أن يحلوا مشكلتها بصدق ولوجه الله.

صلة المؤلفة بعالم الأرواح بدأت مبكرة، فهي تحكي لنا كيف حاولت أن تحضر روح أبيها بعد وفاته بشهور قليلة، مستفيدة من كتابات أنيس منصور في هذا الميدان ومن بعض ما تعلمته من جلسات تحضير الأرواح التي كانت تحضرها طفلة في بيت الشيخ رافع، حفيد رفاعة الطهطاوي ـ أحد رواد النهضة المصرية المستنيرين بالمصادفة ـ الذي كان يجاورهم في منطقة حلوان جنوب القاهرة.

تقول المؤلفة إنها نجحت بمعاونة أخواتها في تحضير روح أبيها، وقد أعجبت اللعبة الأطفال فظلوا يكررونها ويستحضرون أرواح أقاربهم كضرب من ضروب اللهو.

وحين كبرت وأعيتها الحيل في علاج صداعها المزمن، عادت من جديد تتلمس الشفاء في عالم الجن والأرواح.

تحدثنا المؤلفة عن عشرات التجارب التي تخصها أو تخص آخرين، لكنها إجمالاً مما شهدته بنفسها وعاينته، متسلحة طبعًا بإيمانها بالعلم وقدراته قبل أى شيء آخر، ويتردد في ثنايا حكاياتها بعض ما يشاع عن هذا العالم، من قدرة للمعالجين الروحانيين على استخراج الجان من أعماق البشر، فيعودون إلى ما كانوا عليه من طبيعة وتواؤم، أو علاج لأمراض استعصت على الأطباء، أو طرد لجني شرير يعاشر فتاة معاشرة الأزواج ويحول بينها وبين كل عريس يتقدم لخطبتها.. إلخ، كما أن المؤلفة لا يزعجها أن تحكي لنا عن نفر من الدجالين الذين سعوا إلى استغلال حاجتها للعلاج، كي يجبروها على ممارسة الرذيلة، برغم أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تتيح لها الشفاء.

ودون الإسهاب في سرد الحكايات التي توردها المؤلفة، نود أن نخلص إلى السؤال الأساسي الذي يتعلق بعالم الجن، وهو عالم موجود بنص القرآن الكريم، لكن صلة هذا العالم بالبشر واطلاعه على حياتهم وقدرات الإنس على تسخير الجن لخدمة أغراض خاصة، مما يلتبس على العلماء وليس فقط على العامة، وربما كان أشهر المحدثين الذين غاصوا في هذا الميدان هو الدكتور رءوف عبيد الذي كان أستاذًا شهيرًا في القانون، جذبه عالم الروح فكتب مجلدًا ضخمًا عنوانه «الإنسان روح لا جسد»، حكي فيه عشرات من التجارب الروحية التي يعجز العقل عن استيعابها.

المسألة برأيي أعمق من تكذيب المؤلفة أو تصديقها، القضية ببساطة أن هذا الموضوع لم يحسم ـ مثل قضايا كثيرة ـ بين العلماء والفقهاء، وهو ما فتح بابًا للدجالين والمشعوذين لم يغلق، ما حدود الصدق والكذب فيما يدعون؟ وما حدود قدرات الجن على علاج مشكلات الإنس إن صدقنا بالتماس بين العالمين؟

أسئلة معلقة لم يحسم العلماء الإجابات عليها، ولسنا مضطرين للإنابة عنهم فيما هم فيه مختلفون.

عماد الغزالى

عـــــروض مـــوجـــزة

«محمد شفيق» مصاعب مادية واجتماعية دفعته للاكتئاب، فإن المسئولين عن الحركة الثقافية في مصر، بدلاً من علاجه وبحث أسباب ضيقه، ألقوا به في مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية عام ١٩٨١، ليلاقي عذابات فوق طاقة البشر نتيجة جلسات العلاج الكهربائي، وينتهي شفيق جثة بثلاجة المجهولين في مشرحة زينهم، وقد أثبت تقرير الطبيب الشرعي أن جمجمته تعرضت لعدة ضربات في عدة مواضع أدت إلى الوفاة.

ويلقي الفنان أضواءً مهمة على حياة الملكة فريدة، زوجة الملك فاروق التي تركت تراثًا فنيًا بديعًا، وعاشت حياة بائسة في ظل مجون الملك السابق وانفلاته، وفيما سمحت ثورة يوليو ١٩٥٢ للملك بالسفر إلى خارج مصر، فإنها منعت زوجته من السفر، وقضت بقية حياتها بعيدة عن أولادها، وقد وافتها المنية في شقة من غرفتين وصالة بعيدة عن أحبائها وذويها.

ويشير المؤلف إلى ملاحظات لافتة تتعلق بأصول بعض الفنانين، إذ يلاحظ أن بعضًا من هؤلاء ممن عبروا بقوة وشفافية عن الحارة المصرية، ليسوا من أصول مصرية وبعضهم ينتمي إلى الأرستقراطية الصاعدة آنذاك مثل سيف وأدهم وانلي وتحية حليم ومرجريت نخلة ومحمد وعفت ناجي وإنجي أفلاطون وغيرهم.

ويأسى الفنان على مصير نتاج هؤلاء المبدعين وما آل إليه من إهمال وضياع، ويجد في ذلك تعبيرًا عن تردي الواقع الثقافي والاجتماعي الذي سمح بما جرى لهذه المواهب الباهرة.

□ □ □

هكذا يصنع المستقبل

مجموعة باحثين

أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث، ٢٠٠١



يحتوي الكتاب على ١٣ بحثًا، ألقاها خبراء دوليون في مختلف العلوم الإنسانية، في إطار المؤتمر السنوي الخامس لمركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية الذي عقد قبل شهور.

يتعرض «بول كيندي» أستاذ التاريخ ومدير برنامج دراسات الأمن الدولي بجامعة «ييل» للتحديات التي تواجه البشرية في القرن الحادي والعشرين، وقسمها إلى مجموعات ثلاثة، تركز المجموعة الأولى على شكل البشرية وحجمها، أو القوى الديموجرافية الناشطة في أنحاء العالم وتأثيرها المحتمل، وتبحث المجموعة الثانية في الثورات التقنية، ليس من الناحية الفنية فحسب، وإنما من حيث انعكاساتها على الاستقرار المالي والسيادة القومية والحريات الفردية، وتتطرق المجموعة الثالثة إلى التغيرات الحاصلة في موازين القوى، وكذلك إلى الإرهاب الدولي والجريمة المنظمة والحروب العرقية والإقليمية.

وفي الفصل الذي يحمل عنوان «تحول الثقافات»، يرى «ألفن توفلر» أن هذا التحول شهد ثلاث موجات من التغيير: ثورة زراعية أدت إلى التحول من المجتمع البدائي إلى المجتمع الزراعي المستقر، وثورة صناعية بدأت منذ ثلاثمائة عام ومازالت مستمرة، ثم التحول من القوة البدنية إلى القوة الذهنية، وما يصاحب ذلك من عدم استقرار سياسي وثقافي واجتماعي ومؤسسي.

ويكتب «جيرمي ريفكن» رئيس مؤسسة الاتجاهات الاقتصادية الأمريكية عن هندسة الجينات وأثرها على البشرية، ويقدم صورة أكثر تفاؤلاً عن مستقبل العالم الذي يعيش عصرًا من التقنية الحيوية يبشر بوفرة تكفي لإطعام العالم، وتقضي على صور المعاناة الإنسانية، لكنه يؤكد أن ذلك كله لن يتحقق دون ثمن.

ويناقش «كريستوفر موراي» مدير البرنامج العالمي لمتابعة السياسات الصحية في منظمة الصحة العالمية، التحديات العالمية للأنظمة الصحية في القرن الجديد، ويشير «موراي» إلى انتكاستين صحيتين برغم التحسن في المستويات الصحية عالميًا، وهما الزيادة المستمرة في نسبة وفيات الذكور الكبار في دول أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي السابق، وانتشار فيروس الإيدز.

وتركز «جودي وليامز» الحائزة على جائزة نوبل للسلام في العام ١٩٩٧ على حقوق الإنسان في القرن الحادي والعشرين وتدعو إلى تنشيط منظمات المجتمع المدني وتوقيع معاهدة دولية لحظر استخدام الألغام الأرضية.

أما «زبجنيو بريجنسكي» المستشار السابق لشئون الأمن القومي في الولايات المتحدة، فيؤكد على أن الولايات المتحدة وإن كانت هي القوة العالمية الوحيدة الآن في العالم، فإن هذا لا يعني أنها تملك قدرة مطلقة، ويتعين عليها أن تصوغ استراتيجية تشرك فيها الدول الكبرى هدفها تخفيف الصراعات واحتواؤها.

دراسات عديدة يضمها هذا الكتاب الذي جعل هدفه المستقبل وتحدياته بكل ما ينطوي عليه من مخاطر وما يحدو البشرية فيه من آمال.

كتب أجنبية

Cocaine: An Unauthorised biography

(الكوكايين: سيرة ذاتية غير معتمدة)

Dominic Streatfeild

Virgin, 2001, 485pp., £20.00



في العالم الآن إحصاءات عديدة عن إدمان المخدرات خاصة بين الشباب والمراهقين، وعلى سبيل المثال فإن إحصاء بريطانيًا ذكر أن ٩ من كل ١٠ من البالغين في مدينة برايتون عرفوا الكوكايين بمعنى أنهم جربوه ولو لمرة واحدة. والكوكايين لم يعد مجرد مسألة فردية متعلقة بشخص يدمن تعاطيه أو هو على وشك، بل إنه أصبح تجارة بمليارات الدولارات وهناك عصابات، بل ودول متورطة في إنتاجه وترويجه. إنه كما يقول مؤلف الكتاب الشائعة الأكبر في عالمنا فكثيرون يشكون في أن أموالاً كثيرة تدعى الأموال القذرة ناتجة عن تجارته وإذا كان عليك أن تحصيها بدقة فيتعين أن تنظر في كل ورقة بنكنوت في العالم.

ويقوم الكتاب على أساس جولة عبر جبال الأنديز من بوليفيا إلى كولومبيا، بحث تزدهر زراعة وتجارة الكوكايين، وينطلق من ذلك إلى قصة هذا الخطر المرعب الذي كانت بداية انتشار إدمانه في نهاية القرن التاسع عشر. ويتطرق إلى تأثيره على اقتصاديات الدول وعلى الأفراد من خلال أرقام وإحصاءات عديدة.

إن أول قضية في بريطانيا عن الكوكايين تعود إلى عام ١٩١٦، عندما تمت محاكمة رجل لترويجه لهذا المخدر، وقد تم اتهامه بإمداد الجنود بكميات من الكوكايين تجعلهم أقل قدرة على أداء مهامهم، إلا أن الرجل دافع عن نفسه قائلاً إن المخدر يجعل الشخص متطلعًا لأداء عمله بجد أكبر.

ويقول المؤلف إن نجاح الكوكايين «الوهمي» ينبع بشكل كبير من قدرته على إقناع مستخدميه بأنه يستطيع أن يجعلهم يؤدون أعمالهم بقدرة أكبر.

والكتاب بشكل عام مكرس لاستكشاف آفاق الظاهرة وليس لحل المشكلة التي يمثلها الكوكايين، ولذلك فإن المؤلف مثلاً تحدث عن إمكانية أن يختفي الكوكايين من الوجود عام ٢٠٤٥ على أساس أن الحرب ضده شديدة وعاتية وهو يستند في ذلك لتوقع قاله أحد المؤرخين، ولكن دون أن يقدم أدلة منطقية عن كيفية اختفاء الكوكايين في هذا التاريخ بالذات.

ومن الأمور الشيقة في الكتاب أيضًا قضية تجريم الكوكايين أو السماح بتداوله وتعاطيه بحرية فبعض الجماعات في أوروبا تطالب بذلك على اعتبار أن السماح به، ولكن في ظل قواعد محددة وصارمة كفيل بالسيطرة عليه بدلاً من محاولة مصادرته، وهو أمر ثبتت صعوبته إن لم تكن استحالته.

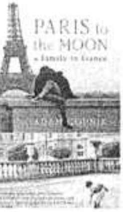
□ □ □

Paris to the Moon

(باريس إلى القمر)

Adam Gopnik

Vintage, 2001, 338PP, £7.99



للكاتب البريطاني الشهير أوسكار وايلد عبارة شهيرة تقول: «عندما يموتون فإن كل الأمريكيين الطيبين سوف يذهبون إلى باريس». ومؤلف هذا الكتاب أمريكي يعيش في مدينة نيويورك لكنه مقيم بالعاصمة الفرنسية منذ الثامنة من عمره، وكتابه ليس مجرد سرد لجغرافية مدينة الجن والملائكة أو مدينة النور، كما تشتهر باريس أو حديث عابر لمحب، لكنه يغوص في أعماق باريس، ومن خلال مجموعة من المقالات يتحدث عن الأطفال في باريس وكذلك الطهي والتسوق، وهناك حديث عن السياسة والجريمة في المدينة، وأسلوب الكاتب تغلب عليه حرفة الصحافة، فهو لا يقدم بحوثًا أكاديمية، بل مقالات مدعومة بالمعلومات والحكايات الطريفة الجذابة.

وإذا كان كتاب كثيرون وبشر عاديون من شتى أنحاء العالم قد انبهروا بباريس وأشادوا بروعتها وجمالها وثقافتها وفنونها، فإن الكتاب الأمريكيين خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين اعتبروا باريس جواز مرور لخروجهم من المحلية إلى العالمية، وهناك كثيرون منهم جاءوا إلى العاصمة الفرنسية ليتعلموا ويتزودوا بمعارف عصرهم ويعودوا إلى أمريكا تسبقهم شهرتهم، كما أن باريس كانت مخترعة الصيحات والموضات الجديدة التي سرعان ما تنتقل إلى شتى أنحاء العالم.

□ □ □

عروض موجزة

The Silent Take over: Global Capitalism and the death of Democracy

(السيطرة الصامتة: الرأسمالية الكونية وموت الديمقراطية)

Noreena Herty

Heinemann, 2001, £12.99



رغم محاولات يسار الوسط من السياسيين الأوروبيين طمس الحقائق إلا أن الواقع يشير إلى أن عصرًا من الليبرالية الجديدة يسود العالم وبشكل خاص أوروبا، وأن ما يسمى بالطريق الثالث الذى روج له الرئيس الأمريكى السابق بيل كلينتون ورئيس الوزراء البريطانى تونى بلير ليس سوى مجرد حيلة عبر أطلسية، حسب هذا الكتاب الجديد، لتحلية مذاق الدواء القاسى الذى يتعين على الشعوب تناوله.

وباستثناء بعض المحسوبين على يسار الوسط فى الصحافة الغربية، فإن كثيرًا من الناس والمتعلمين بشكل خاص، ينظرون إلى الطريق الثالث باعتباره فكرة خيالية.

إن التأثير الشديد لليبرالية الجديدة يتمثل فى السيطرة الشديدة التى يمارسها نمط الاستهلاك على مقدرات الاقتصاد الرأسمالى الحديث، فتدفق السلع والخدمات خلال العقدين الأخيرين بلغ مستوى غير مسبوق فى مقابل انخفاض الإنفاق العام وتزايد ضخ رؤوس الأموال الخاصة فى الاقتصاد.

ويضرب المؤلف مثالاً بمشروع حزب العمال الجديد فى بريطانيا الذى وصل إلى الحكم فى مايو ١٩٩٧ ويتوقع له أن يحقق فوزًا جديدًا فى الانتخابات البرلمانية المقرر إجراؤها فى يونيو الحالى.

ويقول أن فترة الحكم الأولى كانت مجرد بداية وأن الحزب بعد فوزه المتوقع سيعمل على تشجيع دخول رأس المال الخاص فى كل خدمة عامة من التعليم للصحة وجمع الضرائب وحتى السجون.

إن تأثير ذلك كله على الديمقراطية واضح فمع سيطرة الشركات الكبرى على وسائل الإعلام والسياسات، فإن أى حديث عن التنوع والتعددية سيكون مجرد «لغو فارغ».

□ □ □

Orientalism.. Areader

(الاستشراق.. مختارات)

Edited By A.L.Macfie

Auc press, 2000, 382pp.



كثيرة هى الكتب التى تناولت موضوع الاستشراق سلبًا أم إيجابًا ومدى الدور الذى لعبه المستشرقون، خاصة خلال الحقبة الاستعمارية، فهناك من اتهمهم بأنهم كانوا الطليعة المثقفة للجيوش وهناك من أنصفهم، وفى كل الأحوال فإن الموضوع أثار جدلاً شديدًا ولازال حتى الآن قادرًا على إثارة الجدل.

ويعرض الكتاب الذى أصدرته الجامعة الأمريكية بالقاهرة وقام بتحريره ايه. إل. مكفاى مختارات تعطى القارئ وخاصة إذا كان طالبًا يبحث فى موضوع الاستشراق فكرة جيدة تصلح للانطلاق منها. وهى مختارات تغطى مناطق عديدة مثل الإسلام والإمبريالية والآداب والأسطورة والأيديولوجيا والعلاقات الثقافية وعلم الاجتماع والنسوية.

ويبدأ المحرر الكتاب بمقدمة عن جذور الاستشراق والنقاش الدائر حوله ويتحدث بالتفصيل عن الهجوم الذى يتعرض له خاصة فى الشرق الأوسط، وعقب نهاية فترة الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية أطلق عديد من الباحثين خاصة من الشرق الأوسط هجومًا متواصلاً على حركة الاستشراق متهمين المستشرقين بالانحيار والتحيز فى دراساتهم وأحكامهم ونشأ عن ذلك نقاش واسع حول الاستشراق وتاريخه والتركة الناتجة عنه.

ويفرد المحرر مساحة كبيرة من الكتاب لإدوارد سعيد المفكر الفلسطينى المعروف والأستاذ فى جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة وصاحب الكتاب المرجع «الاستشراق» الذى حظى بتقدير عالمى غير مسبوق وهو أيضًا مؤلف الثقافة والامبريالية. ويتحدث سعيد عن موضوعات شتى مثل الإسلام والعرب ودوجما الغرب. إن هذا الكتاب يقدم بانوراما عن الاستشراق مفيدة للقارئ بشكل كبير وهو يغطى الموضوع من كافة جوانبه.

□ □ □

Theories du Capitalisme Mondial

(نظريات فى الرأسمالية العالمية)

Fouad Nohra

Preface de Samir Amin

Paris: L'Harmattan, 2001, 303p.



تتجه التطورات الأخيرة للأسواق الوطنية والعالمية نحو تأكيد تفوق الغرب التكنولوجى وسيطرته على المؤسسات الدولية، مما انتهى بالولايات المتحدة الأمريكية إلى ادعاء الهيمنة الحضارية العالمية باسم عالمية الرأسمالية وعولمة القيم الغربية.

لاقت هذه المقولة ردود فعل نقدية متعددة فى العالم الثالث، تناولت موضوعات الصراع الحضارى والتعددية الثقافية والتحليلات المعرفية والسياسية والاجتماعية لأزمة النظام العالمى الراهن، ويعد كتاب «نظريات الرأسمالية العالمية» إضافة مهمة لأنواع التحليل السالفة الذكر، من حيث إن مؤلفه الدكتور فؤاد نهرا يتناول هذه الإشكاليات من زاوية الباحث المتخصص فى الفلسفة الاقتصادية، فضلاً عن أهمية الدراسة التنظيرية المطولة التى كتبها الدكتور سمير أمين فى مقدمة هذا الكتاب التى يتناول فيها تاريخ علم الاقتصاد السياسى ويعرض لأحدث محاولات التجديد فى هذا العلم على ضوء آليات العولمة الراهنة.

يمكننا إيجاز محاور الكتاب الرئيسية فيما يلى:

- قانون القيمة فى إطاره الإبستمولوجى بين التحليل الكمى والكيفى.
- تحديد آليات النظام العالمى وبالتالى توصيفه بالرأسمالية أم التغريب.
- مفهوم الاستقطاب وفكرة انقسام العالم الرأسمالى إلى مركز وأطراف.
- تحليل آليات توسع الرأسمالية وتجدد إنتاجها على الصعيد العالمى، ونتائج ذلك فيما يتعلق بمدى وأهمية الدوافع الثقافية فى عمليتى التغريب والتهميش.
- مسألة الديناميكية السياسية والثقافية فى الصراع الطبقى وفى مخططات الطبقات المسيطرة فى المجتمعات المركزية.

ويتناول سمير أمين فى المقدمة، مسألة تحليل الاستلاب الاقتصادى الذى يتمحور حول مفهوم القيمة.

والجديد لديه هو تحليله لتطور مفهوم القيمة فيما هو راهن وفيما يمكن أن يصير فى المستقبل مما يسوقه إلى القول بتراخى قبضة قانون فائض القيمة وديكتاتوريته التفسيرية لصالح عوامل أخرى سياسية وثقافية تدخل كعناصر شارطة للظواهر محل الدراسة.

إن هذا التحليل، الذى يمكننا أن نصفه بالبنيوى والذى يربط تراخى أو تلاشى قانون فائض القيمة بظواهر بنيوية أخرى - كظاهرة الاستقطاب وعولمة السوق - يفتح الباب أمام التعامل بشكل جديد مع العامل الثقافى الذى تتعاظم أهميته لديه بالرغم من ثباته على القول بأولوية العامل الاقتصادى وتبعية القيم الثقافية.

ونلاحظ هنا، أن للثقافة مفهومين لدى سمير أمين: الثقافة بمعنى الخصوصيات الاثنية والدينية وما شابهها. والثقافة بالمعنى الكونى العام للبشرية، فهو يقول بتبعية العامل الثقافى للعامل الاقتصادى، حين يستخدم التحليل الأيديولوجى المحارب للخصوصيات الدينية والقومية، بينما يتعاظم لديه، شأن العامل الثقافى بالمعنى الإنسانى الكونى حين يتصدى للتحليل البنيوى لآليات التوسع والتراكم الرأسمالى.

ويبدو تعاظم العامل الثقافى بمعناه الإنسانى الكونى فى قوله بضرورة تجاوز المجتمع الشيوعى للقيمة الكمية وتغليبه للقيم الكيفية، وهو ما يُفصله فى القسم الرابع من المقدمة المتعلق بتحولات قانون القيمة. والقسم الخاص الخاص ببعض التأملات حول الانتقال إلى ما بعد الرأسمالية.

غير أن سمير أمين يقدم هذا التجاوز الذى يرفع من شأن العامل الثقافى كنظام قيم كونى، باعتباره عودة لكارل ماركس واستعادة لمفهوم General Intellect «العقل العام»، الذى تحدث عنه ماركس نفسه.

يقول سمير أمين: إن الثورة المعلوماتية والإلكترونية بدأت عملية تصيب «قيمة التبادل» الاقتصادية بتراخ يتزايد بمقدار ما يتعاظم الطابع الجماعى الاجتماعى للعمل والقيم السياسية والإكولوجية فى المجتمعات.

لقد ضعفت اليوم حسابات الربح الاقتصادى لصالح حسابات كيفية قيمية أخرى تتماشى مع مفهوم «العقل العام» الذى أصبح يفرض أفكارًا مثل فكرة راتب المواطنة بدلاً من فكرة راتب العمل القائمة على السعر الاقتصادى.

ولم يعد الدخل يتم توزيعه بمقتضى ساعات العمل، ولكن وفقًا لمقدار الثروة التى يقررها المجتمع ويحددها، فالمرتبات ينبغى أن تدفع للمواطنين وليس فقط للعاملين.

د. أسامة خليل

آثـــار

آثار مصر فى العصرين اليونانى والرومانى

عزت زكى قادوس

القاهرة: دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠١

ثمانية أقسام يضمها الكتاب الذى يبدأ بالإسكندرية وآثارها ومعابدها، ثم إقليم دريوط، ثم الفيوم، فالمنيا، ثم معابد مصر العليا ومنها معابد دندرة وإسنا وإدفو وكوم أمبو، وينتهى بآثار النوبة، والأديرة والكنائس فى مصر القبطية، ويضم الكتاب إلى ذلك قائمة بأسماء الأباطرة والملوك فى العصرين الرومانى واليونانى وفترات حكمهم.

■■■

تراث القاهرة

درويش أبو سيف (المحرر)

القاهرة: الجامعة الامريكية، ٢٠٠١

مجموعة من الدراسات والأبحاث عن الآثار الإسلامية فى القاهرة، والتى تتنوع بين المساجد والأسبلة والمدارس والمنازل وغيرها، يعرض المؤلف لبعض هذه الآثار بالتفصيل فضلاً عن تخصيصه جزءًا خاصًا للأوقاف الإسلامية وأنواعها.

أديــــان

أول السابقين ورابع الراشدين على بن أبى طالب

فؤاد حمدو الدقس

دمشق: دار الرضوان، ٢٠٠١

كان على بن أبى طالب أصغر المؤمنين المصدقين لرسالة النبى الكريم، وكان سلوكه فى حياته نموذجًا للخلق الإسلامى القويم، كما كان دفاعه عن الدين وعدالته حين تولى أمر المسلمين عقب الفتنة الكبرى، تطبيقًا للشريعة السمحاء وفهمًا للتكاليف على وجهها الصحيح. المؤلف يلقى أضواء علىّ على بن أبى طالب كرّم الله وجهه، ودوره فى مسيرة الإسلام وتاريخ المسلمين.

■■■

An Introduction to Buddhist Ethics: Foundations, Values and Issues

(مقدمة للأخلاقيات البوذية: الأسس والقيم والقضايا)

Peter Harvey

Cambridge UP, 2001, 478pp., £40.00

منذ ظهور الديانة البوذية قبل ألفين وخمسمائة عام، انتشرت بشكل واسع من مهدها فى الهند ليصبح لها الآن حوالى نصف مليار متبع من جميع أنحاء العالم.

يتناول الكتاب المبادئ المختلفة للبوذية ومدى تعدد فرقها المتنوعة، ويناقش موقفها من القضايا الإنسانية المعاصرة مثل حقوق الإنسان والحيوان، والبيئة، والإجهاض، واقتصاد السوق، والانتحار، والحرب، والسلام.

■■■

Idolizing Pictures: Idolatry, Iconoclasm and Jewish Art

(عبادة الصور: الوثنية وتحطيم المقدسات والفن اليهودى)

Anthony Julius

Thames & Hudson, 2001, 120 P., £8.95

من ضمن الوصايا العشر التى وردت فى التوراة المتضمنة فى الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم، يوجد نهى صريح لتصوير أو نحت كل ما يشبه ما فى السماء أو فى الأرض.. «حتى لا تفسد النفوس».

ولهذا فإن الفنانين اليهود الذين يقومون بأعمال التصوير هم بالأساس يهود علمانيون. أما مؤلف هذا الكتاب فهو يهودى ملتزم، ولكنه أيضًا رجل مثقف يحب فن التصوير ويحب التردد على المعارض الفنية المختلفة. لذلك يقوم فى الكتاب بتقديم نظرية جديدة مفادها أن تلك النواهى التوراتية إذا نظرنا إليها بتعمق نجد أنها تشجع الفن، ولكنه نوع خاص من الفن، ذلك الفن الثورى الساخر، الذى يؤدى إلى نزع القداسة عن الأشياء والمخلوقات.

■■■

Sikh Religion, Culture and Ethnicity

(ديانة وثقافة السيخ)

Christopher Shockle, Gurpharpal Singh and Arvinel-Pal Mondair (eds)

Curzon, 2001, 220 PP., £40.00

تعتبر ديانة السيخ ديانة حديثة نسبيًا، فقد أسسها «الجورو» أو المرشد الثالث ناناك فى الهند منذ خمسة قرون تقريبًا. وكان ناناك قد ولد عام ١٤٦٩ فى أسرة هندوسية، لكنه كان منزعجًا من الطبقية التى سادت الهندوسية وتعدد الآلهة والأوثان فيها، كما رأى فى المسلمين الموجودين فى الهند آنذاك غزاة يحتلون بلاده وينهبونها. وقد درس ناناك علوم الإسلام وذهب إلى مكة والمدينة وكان من بين أصحابه مسلمون. ونادى بالإيمان بإله واحد غير قابل للتحديد خالق للوجود كله.

يعالج هذا الكتاب قضايا مختلفة فى تاريخ ديانة السيخ وفى تطور جماعات السيخ نفسها، وموقفها السياسى فى الهند، حيث يوجد فى العالم الآن حوالى ١٥ مليون سيخى، بعضهم فى الشتات والبعض الآخر أقلية مهمشة ومعرضة للإبادة فى الهند.

■■■

Can A Darwinian Be A Christian? The Relationship Between Science and Religion

(هل يمكن لداروينى أن يكون مسيحيًا: العلاقة بين العلم والدين)

Michael Ruse

Cambridge UP, 2001, 242pp., £14.95

يهدف المؤلف وهو فيلسوف مؤمن بالداروينية إلى تبيين أنه من الممكن أن يكون المرء مسيحيًا مخلصًا لديانته، ومؤمنًا بالنظرية الداروينية فى آن واحد، حيث لا يوجد تعارض بين وجود الله الخالق للكائنات الحية المختلفة، والإيمان بأنه بعد خلقها يتركها لقواعد الانتخاب الطبيعى.

■■■

The Prayer of Jabez: Breaking Through to the Blessed Life

(صلاة يعبيص: التقدم نحو حياة مباركة)

Bruce H. Wilkinson

Multhnomah Pub, 2000, 96p., $9.99

حقق هذا الكتاب مبيعات مذهلة فى الولايات المتحدة، وهو يحتوى على دعاء أو صلاة لرجل صالح ذكر مرة واحدة فى الكتاب المقدس فيما لا يزيد على سبعين كلمة. هذا الرجل دعا الله أن يباركه وأن يوسع عليه، فاستجاب الله له. وقد اهتمت الصحف الرئيسية فى الولايات المتحدة بالشعبية الواسعة لهذا الكتاب، حيث أجاب القراء من رجال الأعمال أن الدعاء زاد من أرباحهم، ورد أحد رجال الدين أن هذه الحمى تجسد نرجسية ومادية العالم المعاصر، وليس روح التدين الحقيقية.

اقتصاد

الفقر وتوزيع الدخل فى الوطن العربى

عبد الرازق فارس

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١

أظهرت أحدث إحصائية أن نحو ١,٣ مليار نسمة فى العالم يعانون من الفقر المدقع، وبرغم تنوع الموارد ومصادر الدخل فى الوطن العربى، فإنه يحتوى على نسبة لا يستهان بها من الفقراء، ويقع ملايين من سكانه تحت خط الفقر.

ما هى الأسباب التى أدت إلى هذا الوضع، وكيف يمكن تجاوزه؟ هذا ما يجيب عنه المؤلف الذى تعرض لأثر الصراعات فى تفاقم مشكلة الفقر، ويرسم خريطة بالأرقام لأهم مناطق الفقر وتوزيعها.

■■■

المياه والزراعة فى مصر

تحرير: أحمد السيد النجار

القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠١

تعرض الدراسة لمشكلة المياه فى مصر فى الوقت الراهن، حيث الزيادة السكانية المطردة والتناقص الحاد فى مساحة الأرض الزراعية، ومحدودية المياه التى تستفيد منها الصناعة إلى جانب الزراعة، فضلاً عما يذهب منها للاستخدام الآدمى.

مشكلة المياه كما يؤكد الكتاب لم تعد فنية، إنها قضية أمن قومى ومن هنا تنبع أهميتها فى مصر والعالم العربى.

■■■

ثورة الدواء ومستقبل التحديات

محمد رءوف حامد

القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠١

تمر صناعة الدواء فى العالم بطفرات هائلة مستفيدة من الأبحاث العلمية والتكنولوجية الكبرى، ومن الثورة فى علوم الجينات والهندسة الوراثية، والتطوير المستمر فى هذه الصناعة بقدر ما يعد بخير كثير للبشرية، بقدر ما يوصد أبوابًا فى وجه فقراء المرضى من قاطنى العالم الثالث الذين لن يستفيدوا من هذه الطفرة مع تطبيق الجات، وهذا هو التحدى الذى يواجه ملايين البشر.

■■■

Taking Trade to the Streets: The Lost History of Public Efforts to Shape Globalization

(التاريخ المفقود للجهود الأهلية فى تشكيل العولمة)

Susan Ariel Aaaronson

Forewords: Pat Choate and I.M. Destler

Michigan UP, 2001, 248pp., $29.95

يصف الكتاب كيف أنه مع مرور الوقت أصبح هناك أفراد ومنظمات غير حكومية يجدون فى اتفاقيات التجارة ما يهدد النظم الوطنية التى تحدد القواعد الاجتماعية والبيئية للدولة.

وتتخذ المؤلفة من الولايات المتحدة دراسة حالة، فتقوم بدراسة تاريخ نقاد اتفاقيات التجارة، وتركز على اتفاقية النافتا واتفاقيات الجات. هؤلاء النقاد قاموا بإرساء حركة عالمية تسعى لمراجعة شروط اتفاقيات التجارة، بدأت فى النمو منذ الثمانينيات وتتخطى الحدود السياسية، كما تتحدى الآراء السائدة حول دور الحكومة فى الاقتصاد.

إنتـــــرنت

الشبكة السريعة الذكية

محمد الشرقاوى

القاهرة: دباء للنشر، ٢٠٠١

لم يعد الإنترنت ترفًا، صار ضرورة حياة، يتعامل معه الطلاب والباحثون والجمهور بشكل يومى تقريبًا، المؤلف يقدم معلومات مهمة عن شبكة الإنترنت عمومًا، ثم تفصيلات عن شبكة إنترنت ٢، وهى شبكة تخص التعامل الأمريكى الإسرائيلى فحسب.

■■■

How to Start A Business Website

(كيف تنشئ موقعًا على شبكة الإنترنت لعملك؟)

Mike Powers

Aron Books, 1999, $20.00

يقدم هذا الكتاب نصائحه لكل صاحب عمل، لكى يستطيع أن ينشئ لعمله موقعًا ناجحًا على شبكة الإنترنت وتعظيم ربحه ونطاق عمله بهذه الطريقة. تتضمن النصائح كيفية جذب الزبائن من غرف الدردشة والقوائم الخبرية، وطرق الإعلان على الشبكة، كما يبين الوسيلة المثلى لعقد المعاملات المالية عبر الإنترنت، وأفضل الطرق التى تجعل موقعك جاذبًا للانتباه وسهلاً فى العثور إليه.

تـاريـــخ

Hitler's Italian Allies: Royal Armed Forces, Fascist Regime and the War of 1940 - 1943

(حلفاء هتلر الإيطاليون: القوات المسلحة الملكية والنظام الفاشي وحرب ١٩٤٠-١٩٤٣)

Macgregor Knox

Cambridge UP, 2001, 207pp., £16.95

دراسة عن القوات المسلحة الإيطالية فى سنوات الحرب العالمية الثانية، تهدف إلى التوصل إلى أسباب ضعف الأداء العسكرى الإيطالى فى كل وجه من أوجه تلك الحرب، من الاستراتيجية الكبرى إلى أصغر العمليات التكتيكية.

ويرى المؤلف أن اللوم لا يقع على موسولينى وحده، بل إن المشكلة الحقيقية كانت فى «الثقافة العسكرية» الإيطالية، من جهل الجنرالات بالتطورات التقنية الحديثة، واعتمادهم التقليدى على الأعداد الكبيرة والهجمات الأمامية، وغيرتهم العميقة من بعضهم البعض.

■■■

Sheba: Through the Desert in Search of the Legendary Queen

(سبأ: عبر الصحراء بحثًا عن الملكة الأسطورية)

Nicholas Clarp

Houghton Mifflin, 2001, 320pp., $26.00

ملكة سبأ أو بلقيس هى المرأة الوحيدة فى القرآن والكتاب المقدس التى مارست الحكم السياسى، ومع هذا فإن الأسس التاريخية لملكة سبأ لم تكن دائمًا واضحة. فى هذا الكتاب يصف لنا الأثرى الأمريكى رحلته الاستكشافية بين اليمن وإثيوبيا، لتجميع خيوط القصة من مصادرها المختلفة الأثرية والتاريخية والأسطورية والمقدسة.

دراسات نفسية

The Madness of Adam and Eve

(جنون آدم وحواء)

David Horrobin

Bantam Press, 2001, 281PP., £18.99

نظرة جديدة فى مرض الفصام، حيث يؤكد المؤلف (مرتكزًا على دراسة لمنظمة الصحة العالمية) على أن مرض الفصام متأصل فى البشر منذ بدء التاريخ لأنه موزع بشكل متساو فى جميع شعوب العالم التى يحتوى كل منها على نسبة من مرضى الفصام تتراوح بين ٠,٥٪ و١,٥٪.

ويعتقد الكاتب كذلك أن مرضى الفصام يتمتعون بمواهب خاصة وقدر من العبقرية أو الذكاء غير العادى، ويحاول إثبات أن كلا من جايمس جويس وبرتراند راسل واسحق نيوتن وكانط كانوا جميعًا مصابين بأعراض الفصام.

■■■

Revels in Madness: Insanity in Medicine and Literature

(الجنون فى الطب والأدب)

Allen Thiher

Michigan UP, 2001, 354pp.,

محاولة لفهم تغير مفهوم الجنون عبر التاريخ، من خلال البحث فى النصوص الأدبية وفى تاريخ الطب. يبحث المؤلف فى المراحل المختلفة فى الثقافة الغربية منذ هومر فى المرحلة الكلاسيكية عبر المرحلة الوسطى لدى سرفانتس وشيكسبير إلى مرحلة الكتابات الحديثة.

رحـــلات

مفاكهة الخلان فى رحلة اليابان

يوسف القعيد

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١

يمثل الكتاب خلاصة زيارة المؤلف لليابان، وموقفه من الحداثة على الطريقة اليابانية، وحياة اليابانيين وأسباب تقدمهم وازدهارهم، على الرغم من أنهم بدأوا نهضتهم منذ نصف قرن تقريبًا وكيف أثرت العولمة على الشعب اليابانى، وهل مازال محتفظًا بخصاله الطبيعية أم تخلى عنها.

■■■

Travels With A Tangerine: A Journey in the Footnotes of Ibn Batutah

(رحلة فى هوامش ابن بطوطة)

Tim Mackintosh - Smith

J Murray, 2001, 340pp., £18.00

يصف المؤلف رحلاته إلى المغرب ومصر وسوريا وانطوليا وعمان واسطنبول، محاولاً اتباع خطى الرحالة العربى الكبير ابن بطوطة الذى تأثر به كثيرًا بعد أن قرأ كتبه التى ترجمت إلى الإنجليزية عام ١٨٢٩.

روايات وقصص

أوانى الورد

أحمد الدويحى

دمشق: دار علاء الدين، ٢٠٠١

يقدم هذا الجزء الأول من الرواية يوميات العزلة التى عاشها الراوى فى أيام حرب الخليج، ويعرض لرؤى وتفاصيل عن هذه الحروب وانعكاساتها على السياسات الراهنة سواء فى المنطقة العربية أو العالم.

■■■

رائحة الصابون

إلياس خورى

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠١

يتحول أبطال الرواية إلى ضمائر غيبية بعد وفاتهم فى الحرب الأهلية، وهكذا يجعل المؤلف تلك الضمائر شواهد على حياة الناس الاجتماعية، والسياسات الآثمة التى تعبث بالأوطان فتمزقها، وتقهر الشعوب تحت وطأة الاحتلال والتطاحن القبلى.

■■■

وداعًا روزالى

حسونة المصباحى

ألمانيا: منشورات الجمل، ٢٠٠١

رواية جديدة للأديب التونسى المقيم فى ميونيخ بألمانيا منذ عام ١٩٨٦، وقد نشر قبل عامين «الآخرون» وسبقتها مجموعات قصصية منها «حكاية جنون ابنة عمى هنية»، و«السلحفاة»، و«ليلة الغرباء»، ورواية «هلوسات ترشيش» التى فازت بجائزة «توكان» لأفضل كتاب فى عام ٢٠٠٠، وهى جائزة تمنحها مدينة ميونيخ.

■■■

Glue

(صمغ)

Irvine Welsh

Cope, 2001, 470pp., £16.99

اشتهر إرفين ولش برواياته الغريبة التى تتناول الأركان المظلمة فى حياة الشباب الأوروبى المعاصر. من ضمن هذه الروايات رواية «ترابنسبوتنج» التى تحولت إلى فيلم سينمائى ورواية «إكستاسى» و«قذارة».

وتدور أحداث روايته الأخيرة فى أدنبرة، حيث يتتبع حياة أربعة من أصدقاء الطفولة الذين نشأوا فى السبعينيات فى رحلتهم إلى الرجولة التى تصل بهم إلى الوقت الحاضر. وتدخل بنا الرواية إلى عالم هؤلاء الشباب، أثناء ارتيادهم للنوادى الليلية، وأثناء تناولهم للمخدرات، وأثناء ارتيادهم مباريات كرة القدم، ومعاركهم فى شوارع سكوتلنده.

■■■

The Undiscovered Chekhov: Fifty One New Stories by Anton Chekhov

(إحدى وخمسون قصة جديدة لأنطون تشيكوف)

Trans. by Peter Constantine

Duckworth, 2001, 224pp., £14.99

مجموعة من القصص القصيرة التى تترجم لأول مرة، كتبها تشيكوف فى الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٨٨٧، أى عندما كان عمره واحدًا وعشرين عامًا. ومعروف أنه لم تتم ترجمة كل أعمال تشيكوف، حيث كان غزير الإنتاج بدرجة كبيرة. فعندما بلغ السادسة والعشرين كان قد نشر أكثر من أربعمائة قصة قصيرة.

سـيـاسـة

أرض السفارة الأمريكية فى القدس.. الملكية العربية والمأزق الأمريكى

ترجمة: سميرة خورى

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠١

يؤكد المؤلف أن الموقع المرتقب للسفارة الأمريكية فى القدس المحتلة، هو ملك لعدد من اللاجئين الفلسطينيين، صادرته إسرائيل عند احتلالها للقدس عام ١٩٤٨، وقد قام فريق بحث فلسطينى بجمع وثائق وأدلة لمدة ستة أعوام، جميعها تثبت الحق الفلسطينى فى هذه الأرض.

■■■

إسرائيل الكبرى والفلسطينيون، سياسة التوسع ١٩٦٧-٢٠٠٠

نور الدين مصالحة

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠١

عرض للأسس الأصلية للنزاع الفلسطينى اليهودى، وهى الأرض والسكان والماء، وهو ما أدركته باكرًا النزعة الاستيطانية التوسعية لدى اليهود، الذين قاموا بعمليات مصادرة وشراء أراض لم تحدث من قبل فى التاريخ بهدف السيطرة على الأرض وتشجيع الهجرة اليهودية، والاستيلاء كذلك على مصادر المياه.

■■■

الجانى والضحية.. مصادرة الإسلام والعروبة

رياض الريس

بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٠

الصراع بين الإسلاميين والعروبيين يبدو فى كثير من الأحيان مفتعلاً وبلا منطق. وقد عانت منطقتنا من عديد من تلك الصراعات التى تزج بمفكريها ومثقفيها فى أتون ملفات لا طائل منها. المؤلف يرصد ما تتمخض عنه تلك الملفات ودوافع إثارتها، ويشير إلى الدور الذى لعبه «النفط» فيها.

■■■

العلاقات الروسية العربية فى القرن العشرين وآفاقها

جورج شكرى كتن

أبو ظبى: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠١

شهدت العلاقات الروسية العربية خلال القرن العشرين انعطافات مهمة، ومرت بثلاث مراحل، بدأت بالمرحلة القيصرية التى شهدت خريفها خلال العقدين الأولين من القرن الماضى، مرورًا بالمرحلة السوفيتية التى استمرت ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن (١٩١٧-١٩٩٠)، وهى مرحلة شهدت تطورات مهمة محليًا وعالميًا، ثم أخيرًا مرحلة روسيا الاتحادية حيث تفكك الاتحاد السوفيتى وصار أثرًا بعد عين، وهى المرحلة التى نعيشها اليوم.

■■■

كويت (٢١) رؤية واقعية

تحرير: غازى الربيعان

الكويت: الجمعية الكويتية للدراسات والبحوث التخصصية، ٢٠٠٠

بحوث ضمتها ندوة عقدتها الجمعية وتناولت عدة موضوعات عن إدارة الأزمات ودور مجلس الأمة ورؤى المثقفين الكويتيين للتيارات السياسية والثقافية التى يموج بها العالم وكيفية التعاطى معها.

■■■

مفاوضات السيادة على الشرق الأوسط

يحيى غانم

القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠١

يسعى المؤلف إلى الغوص فيما وراء الكواليس، ليقدم لنا الصراع على السيادة فى منطقة الشرق الأوسط، والأسلحة الدبلوماسية التى تم استخدامها فى هذا الصراع والأيادى التى لعبت فيه من وراء ستار واللاعبين الأساسيين على مسرحه، ويضم الكتاب وثائق وتعليقات منذ بدء

مفاوضات السلام وحتى اليوم، أى منذ أكثر من ثلاثين عامًا.

■■■

L' Odore Dei Soldi: Origini e Misteri Delle Fortune Di Silvio Berlusconi

(رائحة المال: أسرار ثروة سليفيو برلسكونى)

Elio Veltri, Marco Travaglio

Editori Riuniti, 347pp., 24.000 Lire

تصدر هذا الكتاب قائمة أفضل الكتب مبيعًا فى إيطاليا فى الفترة التى سبقت الانتخابات العامة الإيطالية التى أجريت فى الثالث عشر من الشهر الماضى. الكتاب ينقب فى الماضى الحالى لبرلسكونى المرشح الفائز بالانتخابات، وقد اشترك فى كتابته صحفى من صحيفة «لاريبوبليكا» وسياسى مهتم بالكشف عن الجريمة والفساد فى المجتمع الإيطالى وقامت بنشره دار نشر معروفة بتشجيع الميول اليسارية.

سير ومذكرات

أشواق العاشق العجوز

عاصم الجندى

قبرص: دار الملتقى، ٢٠٠١

عاش المؤلف حياة حافلة، غنية بالصراعات السياسية والاجتماعية، وقدم تجربته فى هذا الكتاب الذى يتضمن أيضًا إبداعاته الشعرية والقصصية وخواطره التى تحتل المرأة فيها حيزًا كبيرًا، وهى تبدو تارة منفى، وتارة وطنًا، وتارة تعبيرًا عن المعاناة النفسية والعاطفية.

■■■

عبد الرحمن الخميسى.. القديس الصعلوك

يوسف الشريف

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١

يعرف البعض عبد الرحمن الخميسى بوصفه شاعرًا، ويعرفه آخرون بوصفه ماركسيًا مارس دوره الوطنى ضمن تيار سياسى محدد فى مرحلة ما قبل الثورة وبعدها، ويعرفه بعض ثالث بوصفه ممثلاً، وآخرون يرون فيه مكتشفًا للمواهب، ويشيرون بالذات إلى اكتشافه للفنانة سعاد حسنى، والحق أن الخميسى كان ذلك كله، وكان إنسانًا محبًا للحياة بكل ما فيها، وقد اغترف من ملذاتها وتزوج كثيرات من مصر وخارجها. المؤلف يروى لنا كثيرًا عن الخميسى من خلال معاشرته وصداقة استمرت سنوات طويلة.

■■■

مذكراتى

فوزى الزمرلى

تونس: دار الجنوب، ٢٠٠١

تتناول هذه المذكرات الفترة التى قضاها بيرم فى تونس، وأهم إنجازاته فى هذه الفترة أدبيًا وعمليًا، والاضطرابات النفسية التى عاشها بسبب ملاحقته ونفيه، وعبقريته الأدبية الفذة.

■■■

Cocteau L' Egyptien

(كوكتو المصرى)

Ahmed Youssef

Preface de Jean Lacouture

Editions du Rocher, 2001, 189pp.

يكتب مراسل صحيفة الأهرام فى باريس أحمد يوسف فى هذا الكتاب عن علاقة جان كوكتو الكاتب والشاعر والسينمائى والمسرحى الفرنسى الشهير، بمصر بصفة خاصة والشرق بصفة عامة. وكان كوكتو قد زار مصر فى عامى ١٩٣٦ و١٩٤٩ جال خلالهما بأنحاء الإسكندرية والقاهرة والأقصر.

يتحدث الكاتب عن علاقة كوكتو بطه حسين وبالأمير محمد وحيد الدين ابن الأميرة شويكار، كما يضم فى كتابه مجموعة نادرة من صور كوكتو فى مصر، وذكرًا لآرائه وتعليقاته التى وردت عن مصر، خاصة فى كتاب «معلهش» الذى منع ترجمته إلى العربية.

■■■

Apricots on the Nile: A Memoir With Recipes

(مشمش على النيل: مذكرات ووصفات)

Colette Rossant

Bloomsbury, 2001, 178pp., £12.99

ولدت كوليت لأب يهودى ـ مصرى وأم فرنسية، وعندما توفى أبوها تركت لمدة أربعة أعوام فى رعاية جديها الثريين فى مصر. وهناك وجدت كوليت تسليتها ومتعتها فى مطابخ الأسرة مع «أحمد» طباخ الولائم الفاخرة الذى علمها بعض الوصفات المصرية والتركية المهمة. وعندما عادت كوليت إلى أمها فى باريس، وجدت «جورجيت» التى علمتها أصول إعداد الصلصات الفرنسية الشهيرة.

لهذه الأسباب تأتى ذكريات كوليت فى كتابها عن القاهرة وباريس والمنازل التى عاشت وتربت فيها مرتبطة بوصفات لأطباق من الأكلات التى عرفتها هنا وهناك.

شعر

فى الماء دائمًا وأرسم الصور

زياد العنانى

عمان: منشورات أمانة عمان الكبرى، ٢٠٠١

قصائد تتفاوت طولاً وقصرًا يغلب عليها طابع الحزن، والموت هو موضوعها الأساسى، الذى يعتبره الشاعر عتبة أو منعطفًا لحياة جديدة، وهروبًا من مأزق الحياة ومآسيها التى لا تنتهى.

■■■

هواء قديم

محمد سليمان

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١

ديوان جديد لأحد الأصوات المهمة من شعراء قصيدة النثر فى مصر، يضم الديوان ٥ قصائد طويلة يشتمل بعضها على مقطوعات هى: عادة فى الشتاء، دهاليز، البعيدة اسمها مليح، حفريات، ورق أصفر.

■■■

وحـــدك

خلود المعلا

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

قصائد قصيرة للشاعرة الإماراتية التى صدر لها من قبل ديوان «ضيعت الزمن» عام ١٩٩٧، وهى قصائد عليها الطابع العاطفى والإنسانى، تشبه لوحات مرسومة للحظات مسروقة من عمر الزمن.

صحافة

الصحافة العمانية المهاجرة.. صحيفة الفلق وشخصياتها

محسن الكندى

بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠١

دراسة نظرية وتطبيقية فى واحدة من الصحف العمانية المهمة، كيف كانت هذه الصحيفة معبرًا عن الوطن العمانى وتطوراته، وأشواق العمانيين وطموحاتهم، ومن هم أبرز محرريها ومن تناوبوا على إدارتها.

■■■

I Watched a Wild Hog Eat My Baby: A Colorful History of Tabloids and Their Cultural Impact

(تاريخ صحافة التابلويد وأثرها الثقافى)

Bill Sloan

Prometheus Books, 2001, 255pp., $25.00

رغم عنوانه المثير، إلاآن هذا الكتاب يقدم دراسة جادة عن الأثر المجتمعى لصحافة التابلويد.

علوم

العلاج الجينى واستنساخ الأعضاء البشرية

عبد الهادى مصباح

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

عن استنساخ وتصنيع الأعضاء البشرية وزراعة الخلايا والأنسجة بديلاً لزراعة الأعضاء، والمؤلف يعرض لمشكلات العلاج الجينى ويشرح معنى الجينوم البشرى وكثيرًا من قضايا الهندسة الوراثية وعلاقتها بالخريطة الجينية، وكيفية استخدامها والآفاق التى تفتحها فى مجال الطب خصوصًا فى علاج أمراض القلب والشرايين والأورام السرطانية.

■■■

Annie's Box: Charles Darwin, His Daughter and Human Evolution

(صندوق آنى: تشارلز داروين وابنته والارتقاء البشرى)

Randal Keynes

Fourth Estate, 2001, 345pp., £16.99

راندال كينز مؤلف هذا الكتاب هو أحد أحفاد العالم الإنجليزى الشهير تشارلز داروين. وفى هذا الكتاب يتعمد المؤلف الربط بين حياة داروين الشخصية وبيئته المنزلية وبين نظريته الشهيرة فى النشوء والارتقاء. فطبقًا للمؤلف لم تكن رحلات داروين فى غابات وجزر أمريكا الجنوبية هى التى شكلت نظريته وإنما حديقة منزله والطبيعة المحيطة بها حيث كان يمشى يوميًا لعدة ساعات ويجرى اختباراته.

ومن ناحية أخرى كان لداروين وزوجته عشرة أبناء وبنات، من بينهم ابنة تدعى آنى ماتت وعمرها عشر سنوات. يقول المؤلف إن موت آنى بالرغم من وجودها فى بيئة صحية بسبب مرض ضعف وراثى، كان وراء إيمان داروين بسطوة قوانين الطبيعة ونظريته عن البقاء للأصلح.

فكر

العقل الأخلاقى العربى.. دراسة تحليلية

محمد عابد الجابرى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١

ينشغل الجابرى فى هذا الكتاب بالموروثات الخمسة فى الفكر الأخلاقى، وفى الثقافة العربية، وهى الموروث العربى الخالص، والموروث الإسلامى، والموروث الفارسى، والموروث اليونانى، والموروث الصوفى، وهو يدعو إلى استفادة الفكر الأخلاقى العربى من هذه الموروثات جميعها كى يواكب عصره.

■■■

المثاقفة بين العروبة والإسلام

مجموعة من المستشرقون

دمشق: دار الجندى، ٢٠٠٠

لعب المستشرقون دورًا غير منكور فى الثقافة والفكر العربى الحديثين، البعض ثمّن هذا الدور غاليًا، وآخرون رأوه مؤامرة للنيل من الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة، هذه المجموعة من الدراسات تلقى أضواءً على نشوء الثقافة العربية فى القرون الوسطى.

■■■

المعرفة الإسلامية والعولمة

إدريس الخرشاف

الرباط: منشورات الزمن، ٢٠٠٠

محاولة لإبراز ما يمكن أن تسهم به العلوم الإسلامية فى زمن العولمة والإنترنت، ردًا على الادعاء بأن هذه العلوم لا صلة لها بعلوم العصر وتقنياته.

■■■

اليوتوبيا والجحيم

نبيل عبد الفتاح

القاهرة: المركز القومى للدراسات الاجتماعية، ٢٠٠١

تبدو العولمة فى تجلياتها الإيجابية يوتوبيا، تعد بالرفاهة والثراء والاستحواذ والتواصل الذى لا يعرف حدودًا، لكن هذه اليوتوبيا ليست صحيحة على إطلاقها فثمة ما يشقى ويؤلم فى هذه المرحلة من

مراحل التطور الإنساني، وأكثر من سيعاني من سلبيات العولمة هم شعوب العالم الثالث.

المؤلف يحدثنا عن اليوتوبيا والجحيم في ٩ فصول، أحدها يناقش الفكر المصري الحديث بين التقليد والتحديث.

■■■

دولة الإمارات العربية المتحدة.. الوطنية والهوية العربية الإسلامية

سالي فندلو

ترجمة: مركز الإمارات للدراسات

أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠١

تطرح مدارس الاستشراق عادةً ما يخلخل مفاهيم الهوية، ويعكس صورة مرتبكة عن الذات في علاقتها بالآخر، هذه الدراسة تصحح تلك المفاهيم، وتقدم تصورات عن الهوية والذات الوطنية في علاقتها بمحيطها العربي الإسلامي من خلال قراءة للتاريخ وللواقع العملي معًا.

■■■

نبض الأشياء الضائعة

شريف حتاتة

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠١

صور صيغت بطريقة أدبية وبحساسية تعبيرية رفيعة لعشرات القضايا والمشكلات التي تواجهنا في حياتنا،والكاتب صاحب تجربة ثرية ضمن الحركة اليسارية العربية، وصاحب مواقف دفع ثمنها باكرًا ولايزال.

فنـــــون

Gary Cooper: American Hero

(جاري كوبر: بطل أمريكي)

Jeffrey Meyers

Robert Hale, 2001, 384pp.

مثل جاري كوبر في أكثر من تسعين فيلمًا سينمائيًا على مدى ٣٦ عامًا من الحياة المهنية. وقد ولد جاري كوبر عام ١٩٠١ لأبوين إنجليزيين وسافر إلى إنجلترا لإتمام دراسته، ثم بدأت نجوميته عام ١٩٢٧ في الفيلم الصامت «أجنحة» الذي كان أول فيلم يفوز بجائزة أوسكار.

يقوم المؤلف في هذا الكتاب بإبراز شخصية جاري كوبر في حياته الخاصة وشخصيته في حياته السينمائية. حيث ظل لفترة طويلة يقدم نموذج بطل الغرب الأمريكي، ثم تنوعت أدواره بعد ذلك. ويتحدث المؤلف عن أبرع أدواره في أفلام «الظهيرة»، و «جون دو»، و«مستر ريدز يذهب إلى المدينة»، و«موروكو»، و«الحب بعد الظهر». كما يتحدث عن حياته الشخصية، التي اتسمت بتعدد علاقاته الغرامية رغم زواجه المستقر الذي دام ٣٠ عامًا حتى وفاته عام ١٩٦١. حيث أقام علاقات مع معظم الممثلات اللاتي مثلن معه، مثل مارلين ديتريش، وكارول لومبارد، وانجريد برجمان، وجريس كيلي، وانيتا اجبرج. وقد قام جاري كوبر في نهاية حياته باعتناق المذهب الكاثوليكي، وربطته

هواية الصيد بعلاقة صداقة وثيقة بالكاتب الأمريكي «إرنست همنجواي».

■■■

Reflections On Baroque

(أفكار عن الباروك)

Robert Harbison

Reaktion, 2001, 264pp., £19.95

يقوم المؤلف بتوسيع مفهوم الباروك بالحديث عن مختلف أنواع الفنون المعاصرة التي تحمل سمات الباروكية. والباروك أسلوب فني ومعماري تطور في أوروبا في القرن السابع عشر، وهو يتميز بالزخارف الجريئة والغريبة أحيانًا التي تضم أشكالاً ملتوية ولا متساوية، ولكنها منسجمة في مجملها، ذلك في العمارة، أما في الأدب، فتتميز الباروكية بالتعقيد وبالإفراط في الصور الغريبة الغامضة.

يبين المؤلف أن الفن الحداثي في القرن العشرين، يمثل الامتداد الطبيعي لعصر الباروك في القرن السابع عشر.

فلســفة

عبد الرحمن بدوي.. فيلسوف الوجودية الهارب إلى الإسلام

سعيد اللاوندي

القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠١

أثار كتاب بدوي الصادر في العام الماضي ضجة كبيرة، فقد القى الفيلسوف الوجودي بسهامه في كل اتجاه، ولم ينج أحد من طعانه، مفكرو عصره جميعًا وحتى الساسة الذين تعامل معهم والذين لم يتعاملوا معه.

المؤلف يقدم الجانب الآخر في حياة عبد الرحمن بدوي، ويعرض لبعض معاركه الفكرية مع فلاسفة ومفكري عصره.

■■■

من النقل إلى الإبداع

حسن حنفي

القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

يتعرض المؤلف لموقف الموروث الفلسفي العربي من الحكمة اليونانية والرومانية وكذلك الهندية والآسيوية، وكيف أمكن للعرب الاستفادة منها، ويتناول بشكل مفصل الحكمة الإسلامية وكيفية معالجتها لإشكالية الوافد والموروث وتطوير آلياتها بما يحقق الإبداع.

قــــراءة

العلاج بالقراءة

شعبان خليفة

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠١

عن تاريخ ومبادئ العلاج بالقراءة، والعلاج في المستشفيات والمؤسسات الخاصة، ومؤسسات العقاب الجماعي، ومؤسسات الإصلاح، وكيف يمكن أن يكون العلاج بالقراءة وسيلة ناجحة في هذا الإطار، ويشير المؤلف بوجه خاص إلى العلاج بالقرآن والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية وكتب السلوك والشعر وغيرها.

■■■

Speed Reading

(القراءة السريعة)

Tony Buzan

BBC Consumer Pub., 2000, 223pp.,

يقدم معلومات ونصائح عن كيفية التمرس على القراءة السريعة بكفاءة، مبينًا فوائدها العديدة. كما يقدم معلومات حول آخر الاكتشافات الطبية والعلمية عن حدود ميكانزمات الذاكرة المخية.

للأطفـــــال

لماذا يحل الظلام؟

تاهنا صوفي

ترجمة: محمد أمين سليمان

القاهرة: دار سفير، ٢٠٠١

جزء جديد من سلسلة «لماذا» التي ترد على استفسارات الأطفال وأسئلتهم عن الكون والحياة، وهذا الكتاب يرد على سؤال عن حلول الظلام وأسبابه، وحركة الأرض حول الشمس،وحركة النجوم والمجموعة الشمسية وحركة المذنبات وتأثيرها على الأرض.

■■■

The New Faber Book of Children's Verse

(كتاب فابر الجديد لقصائد الأطفال)

Mathew Sweeny (editor)

Sarah Fanilli (illustrator)

Faber, 2001, £16.99

(للأطفال من سن التاسعة إلى سن الخامسة عشرة).

طبعة محدثة ومزيدة من الكتاب الذي أصدرته «فابر» عام ١٩٥٣ ويضم مختارات متنوعة من القصائد للأطفال. يحتوي الكتاب على قصائد للشعراء القدامى المفضلين مثل روبرت لويس ستيفنسون ووالتر دولامار وكريستينا روسيتي، إلى جانب قصائد أخرى لشعراء حديثين مثل سيمون أرميتاج وسيموس هيني وغيرهما.

أغلب القصائد لم تكتب أصلاً للأطفال وإنما قصائد عامة، ولكن اختيارها من جانب المحرر للأطفال يعود إلى سهولتها وموضوعاتها الجذابة وما تحتويه من موسيقى محببة أو أقصوصة صغيرة أو طرفة.

نقــــد

الأدب العربي والعالمية

مجموعة من النقاد

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

بحوث أدبية قُدِّمت في المؤتمر الذي أقامته لجنة الدراسات بالمجلس، يتحاور فيه الباحثون حول كيفية تجاوز أدبنا العربي واقعه وعبوره إلى العالمية، ويدللون على نقاط تماس بين الأدب العربي والأدب العالمي سواء في أعمال أديب نوبل نجيب محفوظ أو سواه من الأدباء العرب الذين ترجمت أعمالهم إلى لغات أجنبية.

■■■

تقاسيم نقدية

زينب العسال

القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠١

دراسة لعدد من الأعمال الأدبية المميزة، تستفيد فيها المؤلفة من المناهج النقدية الحديثة، فضلاً عن إفادتها من الدراسات السوسيولوجية والاجتماعية التي قام بها باحثون عرب وأجانب، وبين ما تدرسه «عودة الروح» لتوفيق الحكيم، ورواية «الجبل»لفتحي غانم، و«ارتحالات اللؤلؤ» لنعمات البحيري.. وغيرها.

■■■

جغرافية الشعراء

أماري شميل

لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ٢٠٠١

نجح الشعراء القدامى في تقديم صورة واضحة عن بيئتهم الطبيعية، من تلال وجبال وصخور وأنهار ووديان، والمؤلف يتناول هذه القدرة والموهبة الفذة على التصوير الطبيعي للكون والناس.

■■■

دراسات جديدة العروض بالشعر الشعبي الكويتي

عبد الرزاق العدساني

الكويت: المؤلف نفسه، ٢٠٠٠

يؤرخ المؤلف لحالة الشعر العامي الكويتي على مدى ١٥٠ عامًا، وكيف واكب هذا الشعر التحولات التي شهدتها الكويت طوال هذه الفترة.

■■■

شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي

دان أوريان

ترجمة: محمد أحمد صالح

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

تبدَّلت صورة العربي في المسرح الإسرائيلي تبعًا لمراحل الصراع ذاته، فالعربي ما قبل النكبة هو بدوي جاهل لا صلة له بما يجري حوله في العالم، وهو في الستينيات شخص ذليل مكسور لا يصلح إلا لممارسة الحقير من الأعمال، وفي المرحلة الأخيرة هو متطرف إرهابي ضد السامية، هذه هي صور العربي المختلفة التي تعكس الذهنية الإسرائيلية وتصوراتها عن العرب.

■■■

The Strength of Poetry

(قوة الشعر)

James Fenton

Farrar, Straus and Giroux, 2001, 276pp.

مجموعة من محاضرات أستاذ الشعر السابق بجامعة أوكسفورد، تتركز كل منها على حياة شاعر بالتحديد، وعلاقة آلامه ومعاناته بالأشعار التي أنتجها.

عـــــادل حســـــين.. تأبـــين ظـــــالـم ورد اعتبـــــار لازم

كـتـبت كـريسـتـينا أودون فى «الأوبزرفـر» تنتـقـد ثلاثة من «قـلاع الليبرالية» فى بريطانيا الذين يفاخرون بإسلاموفوبيتهم، ويقرون بعجزهم عن كبح جماحها. وتقول أودون أن التحامل والتحيز كلمات كريهة عند الليبراليين إلا عندما يتعلق الأمر بالإسلام.

يبدو لى أن ما يعانيه «الليبراليون» الإنجليز الكارهون للإسلام لا يختلف فى جوهره عـمـا يعـانيـه «المتنورون» المصـريون المناهضـون للوسطية الإسلامية، حيث يكمن الاختلاف بين الفريقين فى المسمى: عنصرية دينية وأخرى فكرية، تسعى كل منهما إلى نفى وتهميش الآخر، إما بتجاهل وجوده والاستخفاف بحقوقه أو بتسفيه فكرته وتشويه سمعته. والمؤسف أنه فى بعض الأحيان يتورط أعضاء الفصيل المصرى فى الهجوم على الخصم الإسلامى رغم علمهم أنه لا يملك الدفاع عن نفسه ودحض ما يوجه إليه من افتراءات، إما لأنه رحل عن الدنيا أو لأنه محظور عليه الوصول لأى من المنابر التى يُشهر به على صفحاتها، والأمثلة على ذلك عديدة، كان آخرها مقال د. رءوف عباس فى عدد مايو ٢٠٠١ من مجلة «وجهات نظر» الذى أبّن فيه المفكر الإسلامى الراحل عادل حسين، الأمين العام السابق لحزب العمل.

ولكن قبل مناقشة هذا المقال تجدر الإشارة إلى عدم توفيق محرر المجلة فى جمع مقالىّ رءوف عباس عن عادل حسين، وأمينة شفيق عن المصرى اليهودى الراحل شحاتة هارون، تحت مقدمة واحدة. ولا أجد تفسيرًا لهذا الجمع سوى اعتقاد المحرر بأن عدد المجلة قد يفتقد التوازن إذا تم تأبين إحدى الشخصيتين دون الأخرى، وأنه لإحداث هذا التوازن، لا بد من الجمع بين الإسلامى والماركسى بغض النظر عن أنه لا يوجد أساس للمقارنة بينهما سوى ما يشاركهما فيه عشرات الملايين من البشر: المصرية والوطنية. إذن التوازن لا يتحقق بالصورة التى شاهدناها فى عدد مايو، وإنما يتحقق بالتناول الموضوعى للشخصيتين دون الربط بينهما، وهو ما لم يتأت للأسباب التالية:

أولاً: من حيث الشكل لم يكن أى من الكاتبين موضوعيًا فى تناول الشخصية محل التقييم، حيث ظهر شحاتة هارون فى صورة ملاك، بينما ظهر عادل حسين فى صورة انتهازى منافق، كما سيأتى تفصيله. وبينما اهتمت أمينة شفيق بالتركيز على محاسن شحاتة هارون والاحتفاء بيهوديته، عمد رءوف عباس إلى تضخيم مساوئ عادل حسين والادعاء عليه بغير دليل والازدراء بإسلاميته. لم ينتبه المحرر أيضًا إلى أن تابين شحاتة هارون جرى بقلم من تنتمى إلى فصيله الفكرى والسياسى، بينما تابين عادل حسين جرى بقلم من يناهضه فكرًا وسياسة. وإذا جاز لنا أن نفاضل بين لاموضوعية أمينة شفيق ولاموضوعية رءوف عباس، فلا جدال حول تفضيل الأولى على أساس أن اعتبارات اللياقة، التى تفرضها الأعراف السائدة فيما يخص احترام الأموات، تقضى بإمكانية التجاوز عن المبالغة فى المحاسن، وتستنكر التركيز على المساوئ فضلاً عن المبالغة فيها.

ثانيًا: من حيث المضمون، فلا أحد ينكر شجاعة شحاتة هارون فى التمسك بمصريته، غير أنه عدا ذلك لم نسمع أنه كانت له إسهامات فكرية أو سياسية يمكن أن تُقارن بإسهامات عادل حسين. والمحرر يناقض نفسه عندما يقول فى المقدمة أن الرأى العام «لم يعرف الكثير عن شحاتة هارون»، ومع ذلك يصفه بأنه شخصية «تركت بصماتها على الحياة العامة فى مصر». الواقع أنه على نقيض عادل حسين، لم يكن لشحاتة هارون صوت مسموع ضد الصهيونية. والمعروف أن أقوى الكتابات المناهضة للصهيونية كتبها يهود من أمثال نوام تشومسكى والحاخام إلمر برجر وألفريد ليلينتال. كان عادل حسين إذن مثقفًا ومفكرًا همه الأول قضية الاستقلال الوطنى، بينما كان شحاتة هارون مواطنًا عاديًا همه الوحيد استقلاله الذاتى.

أما رءوف عباس فقد اتسم مقاله بتغليب تحيزاته وأحكامه المسبقة إزاء انتماء عادل حسين الإسلامى. لقد كان عادل حسين شخصية عامة مؤثرة فى محيطها، وبالتالى فإن تقييمًا موضوعيًا لمساوئه قبل محاسنه أمر لا مفر منه، ولا اعتراض عليه. إنما يثور الاعتراض عندما تقترب الوسيلة التى يجرى بها تناول هذه المساوئ من حد التشهير، فالبون شاسع بين التعامل مع المساوئ بإنصاف وحيدة وبين استغلالها للتشكيك فى سمعة الشخصية ونزاهتها. إن أسلوب عادل حسين الخطابى الذى وصفه عباس بالديماجوجية التى تدغدغ عواطف الجماهير - ما يعنى أننا بصدد شخصية انتهازية هدفها تحقيق مكاسب ذاتية عن طريق التلاعب بعقول البسطاء وتضليلها - يمكن أن يصفه المراقب المحايد بأنه أسلوب مفرط فى عاطفته الوطنية، مندفع للذود عن البلد مما يتربص به من أخطار. وحتى فيما يتعلق بأهم أخطاء عادل حسين، وهى الخاصة بتعامله مع كارثة غزو العراق للكويت وموقفه فيما بعد من صدام، فلا يستطيع المحلل المنصف أن يخلص من هذه الأخطاء إلى التشكيك فى نزاهة دوافع عادل حسين أو طهارة غاياته، إن الإنسان لا يعيبه أن يتطرف فى القلق والحرص على سلامة واستقرار وطنه والدفاع عن هويته، حتى وإن أدى هذا التطرف المحمود إلى الوقوع فى خطأ، مادام الخطأ لا يقترن بظلم للآخرين أو انتهاك لحقوق وحريات إنسانية. لقد كان عادل حسين يجتهد فيصيب أحيانًا ويخطئ أحيانًا أخرى. أما ما يعيب بحق، فهو أن يدّعى إنسان على آخر بما ليس فيه.

لم يكن من الكياسة مثلاً أن يقحم عباس على مقاله وقائع يبدو سردها وكان الهدف منه هو تبرير اتهام عادل حسين بالتطرف. فضلاً عن أنه يصعب التحقق من دقتها، مثل زعمه أن «أحد الإخوان المسلمين انتقد مقولة عادل حسين (عن ندمه على إضاعة ثلاثين عامًا فى فكر رث) فى حديث جانبى «وأبدى مخاوفه من هذا التطرف». أيضًا يستحيل التحقق من صحة الزعم بأن جماعات الإرهاب ضُبطت معها كتابات عادل حسين، وهو الزعم الذى كان ومازال يستهدف تلبيس تهمة التطرف لمن لم يُمكن من - ولا يملك الآن - ردها عن نفسه، وبالذات عندما تكون «الجماهير التى يسعى عادل حسين للاستقواء بها هى الجماعات الإسلامية ذات الأجنحة الإرهابية».

لقد تكررت غير مرة فى مقال عباس اتهامات التطرف والديماجوجية ودغدغة العواطف والسعى لحشد الجماهير، وكان هذا الإيحاء بالانتهازية لا يكفى، فقد تمادى الكاتب إلى التلميح إلى نفاق عادل حسين وافتقاده للأمانة العلمية، حيث زعم أن الراحل «كانت لديه قدرة فائقة على الجمع بين الأضداد»، لأنه يطرح - على حد قول الكاتب - أفكارًا فى صالون ثقافى تتناقض مع ما يتبناه على صفحات جريدة (الشعب) من «أكثر اتجاهات التيار الإسلامى تطرفًا»، ثم يكرر «شتان بين أطروحاته الفكرية فى الصالون وبين أسلوبه الديماجوجى فى (الشعب)». ولا أظن أن أحدًا ممن خالطوا عادل حسين وعرفوه حق المعرفة يمكن أن يقتنع للحظة أنه كان يتكلم فى الجلسات الخاصة بما يتناقض مع إسلاميته، أو يقتنع للحظة أنه كان يستشهد فى كتاباته بمراجع «لم يطلع على أى منها»، أو يقتنع للحظة أنه كان «ينفى كل ما هو غربى ويشكك فى صلاحية الفكر الغربى على اختلاف توجهاته». كلها اتهامات أطلقها عباس بلا دليل ولا سند سوى ما تمليه أهواؤه هو. والمؤكد أن عادل حسين لم يكن بهذه الصورة البائسة التى حاول رءوف عباس أن يطبعها فى ذهن القارئ.

يبقى رأى الكاتب أن عادل حسين ظل «تأثره عميقًا بالفكر الماركسى» حتى بعد تحوله إلى الإسلامية، وهو رأى يختلف معه المستشار طارق البشرى الذى ربطته بعادل حسين صداقة وطيدة وتقارب فكرى دام ٣٥ عامًا. فقد نشرت صحيفة «أخبار الأدب» فى مارس الماضى مقالاً للمستشار البشرى يقول فيه إن «عادل لم يكن ماركسيًا بالمعنى الذى يتبادر فهمه، والماركسية بالنسبة له كانت مجرد تجربة فكرية يمر بها، وأداة من أدوات التحليل السياسى للأوضاع السياسية والاجتماعية دون أن تكون نظرية يؤمن بها ومذهبًا ينتمى إليه». وانطلاقًا من هذه الخلفية يخلص البشرى إلى أن تحول عادل حسين إلى الحركة الإسلامية «لم يكن ذهابًا بقدر ما كان عودة.. فالتقارب كان قائمًا فى الثلاثينيات بين الإخوان المسلمين ورموز تيار الحزب الوطنى ومصر الفتاة، وفى عام ١٩٤٦ تشكلت «الجبهة القومية» من الإخوان ومصر الفتاة والحزب الوطنى».

يعنى كلام المستشار البشرى أن تغيير اسم حزب مصر الفتاة إلى «الحزب الوطنى الإسلامى» لم يكن أمرًا شاذًا ولا تزلفًا لجمهور الإخوان كما يزعم رءوف عباس، وإنما تدعيم لتيار الحركة الإسلامية. وكذلك لم يكن تغيير الاسم إلى (الحزب الاشتراكى) مسايرًا للتيار السائد فى تلك الفترة الذى كان يتحرى توليف الاشتراكية بالإسلامية، وهو ما جسدته على سبيل المثال كتابات سيد قطب ومحمد الغزالى عن العدالة الاجتماعية و«الإسلام بين الرأسمالية والاشتراكية». إن تغيير اسم الحزب وتعديل برنامجه هما تعبير عن ديناميكية قد يتطلبها العمل السياسى لتنشيط حيويته من أجل مواجهة ما يستجد من متغيرات محلية وإقليمية، وهى لا تختلف عن ديناميكية عادل حسين بـ«عودته» إلى الفكر الإسلامى. هذه الديناميكية لم تشكل مأزقًا لعادل حسين فى حياته على عكس ما يزعم الكاتب فى عنوان مقاله «مأزق مثقف وطنى»، وإنما الواضح أنها تسببت فى مأزق لرءوف عباس عندما أيدها بقوله «كان أبرز ما يمتاز به عادل حسين ديناميكيته»، ثم هاجمها فى المقال نفسه.

صلاح عز
أستاذ بكلية الهندسة - جامعة القاهرة

** حرصت «وجهات نظر» على نشر نص الرسالة «كاملاً» للتأكيد و«التذكير» بموقف ثابت أعلنته مرارًا يتمثل فى الحرص على نشر «رأى الكاتب» دونما أن يكون بالضرورة متوافقًا مع رأى القائمين على تلك المجلة.

ورغم أن القاعدة المهنية تقضى أن تُطلع المجلة كتابها على ما يرد لها من تعليقات على مقالاتهم ليعقبوا عليها، استكمالاً للفائدة المرجوة من تبادل الرأى فضلاً عن «تباينه»، إلا أننا ارتأينا هذه المرة الخروج عن القاعدة، تلافيًا لفتح باب «مجادلة لا تنفع».

وعلى أية حال فربما تنفع هنا الإشارة إلى عدة نقاط حكمت تناول المجلة للمقال - أو بالأحرى - للمقالين محل التعقيب.

١- لم يكن الربط بين المقالين لأسباب سياسية «أو مقارنة»، وإنما لأسباب مهنية

بحتة. وهو الأمر الذى أشارت إليه مقدمة المحرر بوضوح حينما ذكرت أن «لا شيء يربط هاتين الشخصيتين... إلا أنهما عرفا طريقهما إلى حزب مصر الفتاة فى أوائل تفتحهما على العمل السياسى...».

٢. لم يكن مقال د. عباس «تأبينًا» لعادل حسين. كما لم يكن التأبين فى الأصل قصداً لمثل هذا المقال، ولا مناسباً لمثل تلك المجلة. وإنما كان المقال «دراسة تحليلية» لأستاذ فى التاريخ المعاصر عن «عادل حسين، الشقيق الأصغر لأحمد حسين». والشخصيتان الراديكاليتان بقدر ما أثارتا من حركة لا يمكن تجاهلها فى الحياة السياسية المعاصرة، بقدر ما أوجدا جدلاً لا يصح إغفاله.

٣. كان لاختيار كاتبى المقالين أيضًا أسبابه المهنية التى لا علاقة لها بانتماءاتهما الفكرية والسياسية. فعائلة حسين ذات التاريخ السياسى كتب عنها أستاذ متخصص فى الموضوع. وشحاتة هارون، الشخصية «المجهولة» لدى الكثيرين، والذى كانت له تجربته «الإنسانية» فى العيش متفاعلاً مع محيط رافض له، كتبت عن «محاولته الإنسانية» صحفية قُدّر لها أن تقترب منه بقدر يسمح لها بالكتابة عنه «احتفاء بمصريته رغم يهوديته» لا العكس.

٤. تحرص «وجهات نظر» فى كل الأحوال ألا تستبق قراءتها لإسهامات كتابها تصنيفات فكرية أو سياسية راجت بين الناس، ويعتقد القائمون عليها أن «الخطوط الفاصلة» ينبغى أن تكون أفقية بين جيد وردئ لا رأسية بين اتجاه وآخر.

المحـــرر

الحمى القلاعية والإيدز:

تعليقًا على مقال «أمراض الحيوان تهدد صحة الإنسان» فى عدد أبريل الماضى من المجلة أود إبداء ما يلى:

إن من القواعد الطبية المعروفة أن كل جهاز بالجسم مهيأ لعمله بصورة فسيولوجية. أى حسب ظروف معيشته الطبيعية التى يعيش فيها وعاش فيها أجداده منذ آلاف السنين. فالبقر جسمه مهيأ للمراعى حيث الشمس المشرقة والهواء الطلق والحشائش الخضراء وما شابه ذلك والماء العذب النظيف أو العلف الجاف المكون من الفول والشعير وما إلى ذلك، وعادة يأكله الحيوان ليلاً مع التبن وهى الأعواد الجافة للقمح والشعير بعد تكسيرها إلى قطع صغيرة. وعلى هذا الأساس ففى محطات تسمين وتربية البقر تعيش هذه الحيوانات تحت ظروف لا تلائم الأجهزة البديعة لجسمها، فهى تعيش بعيداً عن الشمس والهواء الطلق ويقدم لها غذاء من بقايا الحيوانات المذبوحة أو مواد عضوية حيوانية وهى لم تتعود إلا على المواد النباتية فقط سواء كانت حشائش أو حبوبًا.

وفى هذه الأحوال تنخفض درجة المناعة ومقاومة الأمراض المعدية إلى درجة خطيرة، فالمرض الذى يسهل علاجه فى الأحوال الطبيعية يصبح مرضًا خبيثًا لأن الإنسان بدافع من جشعه وحبه فى الثراء السريع يجبر هذه الأنعام على حياة غير صحية. هذا بالإضافة إلى ما يضاف إلى هذا العلف غير الصحى من هرمونات أو بحقنها بهذه الهرمونات التى تدمر جهاز المناعة فى جسمها - لا ننسى أن من أهم مكونات جهاز المناعة فى الجسم هو الجلد والإقامة فى مكان بعيد عن الشمس يضعف الجلد. ولهذه الأسباب انتشرت الحمى القلاعية التى أصبحت وباء رهيبا، وهذه هى إحدى عيوب التكنولوجيا المقترنة بالجشع. ولذلك بدأت هذه الأمراض فى البلاد المتقدمة كدول أوروبا، ولنفس الأسباب التى ذكرناها وهى سوء استخدام أجهزة الجسم، ظهر مرض الإيدز. فقد ظهر هذا المرض فى نوادى الشذوذ الجنسى فى أمريكا بلد التكنولوجيا، فهى منبع المرض وليس أفريقيا كما يدعون.

ففى هذه النوادى انتشرت أمراض كان من السهل السيطرة عليها كالدرن الرئوى والإسهال والالتهابات الصدرية وكل هذا بسبب سوء استخدام أجهزة الجسم وبالأخص الجهاز التناسلى، ولذلك لم يستطع الأطباء علاج هذه الأمراض.

ولقد كنا ننتظر أن يعلن الأطباء البيطريون فى إنجلترا أن فيروس الإيدز انتقل إلى البقر ودمر جهازه المناعى وذلك للتشابه بين هذه المواشى والشواذ فى سوء استخدام أجهزة الجسم، وهذا هو السبب فى عدم السيطرة على الوباء الرهيب الحمى القلاعية.

د. عمران البشلاوى
معهد أبحاث المناطق الحارة
القاهرة

تعـــقـــيـــب:

تعليقًا على ما جاء فى باب «رسائل» فى عدد أبريل ٢٠٠١ من مجلة «الكتب وجهات نظر» أرجو التكرم بنشر التعقيب التالى:

أشكر الأستاذ محمد السمنودى المحكم المعتمد لدى غرفة التحكيم الدولية فى باريس على ملاحظته المندرجة فى عدد أبريل من مجلة «الكتب: وجهات نظر» التى نبهنى فيها إلى أن رئيس هيئة التحكيم يطلق عليه عادة صفة Umpire، وهو ما لم أكن أجهله بعد ستين عامًا من العمل فى الترجمة. ولكن البروفيسور جورج ساوسرهول رئيس هيئة التحكيم فى نزاع أرامكو/السعودية آثر أن يصف نفسه بـ Referee حسب صورة غلاف قرار التحكيم. ولعله اختار أن يطلق على نفسه صفة Referee المستخدمة فى مباريات الكرة لأن النزاع المذكور أريد له أن يكون نزاعًا وديًا خلواً من لدد الخصومة وكأنه مباراة رياضية بين طرفين.

وديع فلسطين

عـــبـــد الرزاق السنهـــورى

أود أن أعرب عن مدى الاحترام والتقدير الذى أحمله لمجلتكم الغراء بما تحتويه من أفكار مدروسة، ومقالات موزونة تشكل تحديًا للعقل العربى التقليدى، وبادرة أمل عظيمة نحو مستقبل مشرق لأمتنا العربية أساسه العلم والثقافة.

وقد وقع فى يدى العدد الحادى والعشرون، أكتوبر ٢٠٠٠ من مجلتكم الراقية، وتحت عنوان «كتاب الزاوية»، كُتِبَ عن العلامة المرحوم عبد الرزاق السّنهورى، وأرجو أن تتكرموا علىّ وتسمحوا لى بإبداء التالى:

١- أن العلامة السنهورى لم يكن فقيهًا دستوريًا فقط، بل هو عالم وفقيه فى القانون بصفة عامة، وبالقانون المدنى بصفة خاصة، فقد قام - رحمه الله - بوضع القانون المدنى العراقى والسورى وقانون الالتزامات الكويتى بالإضافة إلى القانون المدنى المصرى وشرحه فى موسوعته الخالدة بعنوان «الوسيط فى شرح القانون المدنى».

٢- أن وفاة العلامة السنهورى كانت يوم ٢١ يوليو سنة ١٩٧١م، وليست كما ورد فى مجلتكم الغراء أغسطس ١٩٦٩م. (لطفًا، انظر فى ذلك كتاب عبد الرزاق السنهورى من خلال أوراقه الشخصية، إعداد د. نادية السنهورى ود. توفيق الشاوى، ص ٣٢٤. وكذلك كتاب نجوم المحاماة فى مصر وأوروبا، للمستشار عبد الحليم الجندى، عن دار المعارف ص ١٥٨، وكذلك مجلة إدارة قضايا الدولة، يونيه ١٩٨٩ ص ١١).

هانى محمد على اللوبانى
المملكة الأردنية الهاشمية - عمان

* القارئ الكريم على حق، فالفقيه الدستورى عبد الرزاق السنهورى توفى بالفعل فى ٢١ يونيو ١٩٧١، وليس فى أغسطس ١٩٦٩، كما ذكرت المجلة، وسبب اللبس ما جاء فى مقدمة الدكتور توفيق الشادى لكتابه «عبد الرزاق السنهورى من خلال أوراقه الشخصية» من أن حياة السنهورى انتهت فى أغسطس ١٩٦٩، عندما «توقفت يده عن الكتابة بسبب مرضه الذى أدى إلى وفاته»، ولعل الدكتور الشادى كان يعنى توقف الحياة العملية للفقيد. ومن هنا جاء اللبس.

المحـــرر

ومـــــاذا عـن الـفـن التـلـقــائـى المصـــرى؟

امتعنى المقال/الدراسة حول الفن التلقائى وإبداع اللاوعى للأستاذ/حسام الدين زكريا بالعدد (٢٨) مايو ٢٠٠١، خاصة إبراز الفرق بين الفن التلقائى والفن الشعبى، ثم فكرة ظهور الحداثة من رحم الفن التلقائى. بالإضافة للجهد الفائق فى تقديم بانوراما شاملة لمسيرة هذا الفن وارتباطه بإبداع اللاوعى عند الفنان.

وكم تمنيت لو أضيف جزء خاص عن فنانى مصر التلقائيين، ومدى انتشار هذا الفن الجميل فى الأشكال الفنية المتعددة، فلدينا مدرسة ويصا واصف بالحرانية لإنتاج السجاد والكليم، ومدرسة إيفلين فى الفيوم لفن الفخار، ورسوم أطفال أخميم بمحافظة سوهاج وأعمال أطفال جمعية الصعيد من المنتجات الخشبية ومنسوجات قرية «حجازة».

ومن كبار الفنانين التلقائيين، الفنان حسن الشرق، الذى أبدع فى إعادة تصوير السيرة الهلالية، وأخرج من أعماقه مجموعة من الرسوم التى تعبر عن أشكال الحياة المختلفة فى قريته «زاوية سلطان» بمحافظة المنيا.. لقد صور حال المرأة وواقع حياة الرجال، وعلاقة الإنسان بالمكان والزمان وانتقل فى طوره الأخير لتناول قضايا أكثر تعقيدًا مثل العلاقة مع الكون وما وراء الأشياء.

تقع زاوية سلطان التى ولد بها حسن الشرق فى حضن الجبل الغربى على النيل، وبها قبر الإمام القرطبى صاحب المسجد الشهير بإسبانيا، ويتجاور الموت مع الحياة فى كل درب من دروب القرية، لأن الأهالى يبنون مقابرهم ملاصقة لدورهم السكنية، وكان لافتًا للنظر مهنة حسن نفسها، فلقد نشأ جزارًا ومن عائلة تمتهن الجزارة عن بكرة أبيها، ولكنه عاف تلك المهنة واتجه بكليته نحو الريشة والألوان ليرسم ويرسم مسحورًا بالأجواء والبيئة المحيطة به.

لم يهتم بفن حسن التلقائى سوى فنانة ألمانية زارته فى قريته وأقامت له معرضًا بمتحف حسن رجب للبرديات، ثم معرضًا ثانيًا بمدينة «شتوتجارت الألمانية» عام ١٩٨٨.

وبعدها بدأ العالم الخارجى فى التعرف على إبداعات هذا الفنان التلقائى. وأقيمت له معارض بفرنسا وهولندا والولايات المتحدة الأمريكية وأخيرًا بكولومبيا فى قارة أمريكا اللاتينية. ولحسن الحظ أن دار الأوبرا المصرية اهتمت بفنه واقتنت لوحة له وتبعتها مكتبة المخطوطات بكلية «الدراسات العربية - جامعة المنيا» وأيضا قصر ثقافة محافظة المنيا.

عمرو كمال حمودة
كاتب وباحث - القاهرة

نوافذ

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

مكتبة الإسكندرية: مجتمع المعرفة وأسئلة المستقبل

«مجتمع المعرفة» هو المفهوم الحديث لتيار التقدم فى عالمنا المعاصر. وهو التيار الذى تحكمه عولمة الاقتصاد من ناحية وثورة المعلومات والاتصالات من ناحية أخرى.

ولئن كانت البشرية قد عرفت مجتمعات المعرفة بدرجات متفاوتة منذ فجر الحضارة، إلا أن الفرق بين القديم والحديث، هو فرق السرعة التى يتم بها تراكم المعرفة ومدى تأثيرها على مجتمعاتها. ومثل هذه السرعة لا تتحقق بدون نظام لجمعها وحفظها وتداولها، بما يكفل درجة عالية من التوثيق والتواصل التاريخى، الذى ينقل المعارف الإنسانية من مرحلة أدنى إلى مرحلة أرقى، ومن دورة حضارية سابقة إلى دورة حضارية تالية.

ويثبت التاريخ أن من أول النظم التى عرفتها الحضارات الإنسانية وأكثرها رسوخًا ذلك النظام الذى نشأ فى أحضان الحضارة المتوسطية، وبالذات على شواطىء الإسكندرية، فى ظل معاهدها ومدارسها ومكتبتها التاريخية الشهيرة.

ومن هنا فحين تعيد مصر فى أيامنا هذه بعد أكثر من ٢٣ قرنًا إحياء مكتبة الإسكندرية، فإنها تتطلع بذلك - فيما يبدو - إلى إحياء «مجتمع المعرفة» الذى نشأ على ضفاف البحر المتوسط فى تلك الأزمنة البعيدة. بكل ما حفل به من تزاوج بين الحضارة الفرعونية القديمة والحضارة الهللينية الوافدة.. بين تراث الإسكندر الأكبر الذى سميت المدينة باسمه، وتوّجه الكهنة المصريون حاكمًا بعد أن اعتنق دينهم، فى أحد معابد آمون فى سيوة فى الصحراء الغربية، وبين الإنجازات العلمية التى تحققت فى عهد البطالمة.. بين الدولة الزراعية والدولة البحرية.. بين اللغات الفرعونية والديموطيقية الآخذة حينذاك فى الانقراض وبين اللغة اليونانية ثم القبطية.. بين تراث البحر المتوسط وتراث الشرق البعيد من الهند وفارس.. بين صلوات الكهنة وتراتيلهم وفنونهم وأساطيرهم الدينية التى نقشت على جدران المعابد الفرعونية وبين الآداب والملاحم وعلوم الطب والرياضيات اليونانية.

كثيرة هى القصص والألغاز التى تدور حول مكتبة الإسكندرية القديمة ويتفق المؤرخون تقريبًا على نشأتها الأولى، لكنهم يختلفون أشد الاختلاف حول نهايتها المروعة، حين شبت ألسنة اللهب فيها وأحرقتها بما فيها من كتب ومخطوطات عن آخرها.

وما يتفق عليه المؤرخون هو أن الذى أنشأها هو بطليموس الأول سوتير (المنقذ) الذى كان جنرالاً فى جيش الإسكندر وامتد حكمه لمصر ٤٠ عامًا. وقبل وفاته بعامين شرع فى إنشاء المكتبة بناء على اقتراح من ديمتريوس فاليرا، الذى كان تلميذًا لأرسطو.. وطرد من أثينا محكومًا عليه بالإعدام بعد أن حكمها ست سنوات، وكانت فكرته تقوم أساسًا على إنشاء وجمع عدد من الكتب تكون مصدرًا للمعرفة يزود حكام الإسكندرية بما يمكنهم من الحكم والقيادة الحكيمة وتم إنشاء مكتبة الإسكندرية على غرار مكتبة أرسطو، بهدف جمع الكتب التى أنشأتها شعوب الأرض كافة. وعندما خلفه ابنه بطليموس الثانى فلاديلفوس «المحب لإخوته وأخواته» توسع فى تنفيذ الفكرة. فأضيفت إلى المكتبة قاعات الدرس والبحث والمعامل والمراصد. وفى غضون قرنين من إنشائها كانت المكتبة قد بلغت أوج مجدها وضمت مجموعة من البردى تتراوح بين ٤٠٠ ألف و٧٠٠ ألف بردية، تشكل نحو ٣٠ ألف مصنف. ويعكف النساخ على نقل ما يصل إليهم من المخطوطات، التى أرسلت إليهم من مكتبات أخرى، ذلك أن بطليموس الأول كان قد بعث برسائل إلى عدد من الملوك والحكام، طالبًا منهم أن يعيروه مؤلفات لشعراء وخطباء وفلاسفة وأطباء وكهنة ومؤرخين. كما ألزم بطليموس الثالث جميع القادمين إلى الإسكندرية بتسليم ما لديهم من كتب إلى مكتبتها لاستنساخها.

وكان طبيعيًا فى ظل هذه النهضة الثقافية، التى جعلت من الإسكندرية مقصدًا للعلماء والدارسين من مختلف جنسيات وشعوب العالم، أن تشهد المكتبة الكبرى حركة ترجمة واسعة لمصنفات تنتمى إلى حضارات مختلفة خاضعة للعالمين اليونانى والرومانى. وطبقًا لبعض الروايات أن ما يعرف بـ«الترجمة السبعينية» للعهد القديم تمت فى هذه الحقبة، حين استقدم ستة علماء من كل قبيلة من قبائل بنى إسرائيل إلى الإسكندرية عكفوا على ترجمته إلى اليونانية.

وطبقًا لما رواه المؤرخون فلم تكن مكتبة الإسكندرية توجد فى مبنى واحد. لكنها تكونت من مكتبتين فى بنايتين مختلفتين، إحداهما كبيرة تقع فى حى القصر الملكى المطل على البحر (مكان المكتبة الحالية تقريبًا)، والأخرى أصغر منها وتقع فى حى معبد السيرابيوم. ويدهش المرء - فى أوائل القرن الواحد والعشرين - حين يعرف مدى الجهد والمال الذى تجشمه القائمون على مكتبة الإسكندرية لشراء واقتناء مجموعات جديدة، مثل مكتبة «أبوقراط» أبى الطب القديم. ومكتبة البرجامون التى أهداها أنطونيوس لكليوباترا، وهى مكتبة كان قد نهبها من المدينة البيزنطية المعروفة فى غرب تركيا.

ويعتقد د. لويس عوض فى دراسة مستفيضة عن مكتبة الإسكندرية القديمة أنها لم تكن مجرد مكتبة أو خزانة كتب بها نصف مليون مصنف.. أى مجرد مكتبة للمراجع كالمتحف البريطانى أو المكتبة القومية فى باريس أو دار الكتب المصرية.. بل كانت فى المقام الأول جامعة بالمعنى الواسع، رفيعة الشأن، فيها من العلماء والأدباء والمفكرين فى كل تخصص أعلام نابهون، جيلاً بعد جيل.. وهو ما يدعو إلى التساؤل حول ماذا يراد اليوم بمكتبة الإسكندرية الحديثة.. هل تكون مجرد خزانة ضخمة للكتب أم تكون إحياء للجامعة القديمة العظيمة، ومركز إشعاع ثقافى فى منطقة البحر المتوسط؟

أيًا كان ما ينتهى إليه قرار البناة الجدد لإحياء مكتبة الإسكندرية، فإن الحريق الذى قضى على المكتبة القديمة قبل قرون مازال لغزًا يؤرق المؤرخين. تبودلت حوله الاتهامات والادعاءات التى لا يستند معظمها إلى أدلة قاطعة وكان أقلها مدعاة للتصديق ما رددته بعض الكتابات الاستشراقية وجاراها فيه مؤرخون عرب، فى محاولة لإلصاق تهمة إحراق المكتبة بالعرب فى عهد عمرو بن العاص، لكن أقرب هذه الروايات للتصديق، هى أن المكتبة الكبرى أُحرقت على يد يوليوس قيصر عام ٤٨ق.م عندما غزا الإسكندرية أيام حكم كليوباترا وأحرق قطع الأسطول المصرى الراسية قرب ميناء القصر الملكى، فامتدت ألسنة اللهب إلى المكتبة وأتت على ما فيها. ثم كانت الكارثة الأكبر التى تعرضت لها المكتبة الثانية فى معبد السيرابيوم عام ٣٩١م. حين حصل البطريرك ثيوفليس من القيصر ثيودوسيسوس على إذن بتدمير هذا «المعبد الوثنى»، بعدما صارت المسيحية هى الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية، وكانت تلك واحدة من أكثر الضربات التى أصابت الإنسانية بسبب التعصب الدينى.

وما علينا ولا على الذين يضيقون بطموح مصر المشروع لاستعادة دورها الثقافى والحضارى إن كان الرومان أم العرب أم المسيحيون المتعصبون هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية، فالبكاء على أطلال الماضى لن يجدى كثيرًا، وفى كل الأحوال فإن إحراق مكتبة تضم آلاف الكتب يستوى وإحراق أو إعدام كتاب واحد. وهو ما سوف يطرح على بناة مكتبة الإسكندرية الحديثة أسئلة صعبة، فلن يكون من اليسير بعد اليوم على الذين يقفون بالمرصاد لكل فكر حر، يتمرد على قيود الماضى ويثور على جمود التقليد والسير وراء القديم، أن يجدوا طريقهم للتفتيش فى رفوف المكتبة الجديدة، لينتزعوا منها ما لا يرضى أذواقهم ولا يستقيم مع أفهامهم ومداركهم وحدهم.

ولن يكون من اليسير - إذا أُريد لهذه المكتبة أن تكون مركز إشعاع حضارى حقيقى - أن يفرض أمناء المكتبة وصايتهم على عقول الباحثين والمفكرين لهذا الجيل أو لمن يأتى بعده من أجيال، فيمنعون كتبًا بعينها من التداول، أو يفرضون قيودًا عليها، مهما كان محتواها.

وإذا أُريد لهذه المكتبة فعلاً أن تكون نافذة مصر على العالم، أو مركزًا للحوار والتعليم فلن يكفى حديث يعاد ويزاد فيه عن الثورة الرقمية والمعلوماتية، ولا عن تكنولوجيا وسائل الاتصال والمعلومات، بدون أن نتحدث عن حرية الفكر والتعبير، والإيمان الراسخ بالمنهج العلمى، وفتح الأبواب والنوافذ أمام الروافد الثقافية المتدفقة على ضفاف البحر المتوسط، والقادمة من وراء البحار.. ليس فقط فى مجال التكنولوجيا والعلوم الحديثة، ولكن أيضًا وقبل كل شىء فى العلوم الإنسانية بفروعها المختلفة: فى الآداب والفنون والتاريخ والفلسفة والعقائد.. وهى الركائز التى تبنى عليها الحضارة، ويتحقق فى ظلها التقدم.

لن يمضى عام إلا وتفتح مكتبة الإسكندرية أبوابها. وعلينا وحدنا سوف يتوقف، أن تصبح هذه المكتبة هى الطريق الذى يقودنا إلى «مجتمع المعرفة»، أو تتحول إلى مخزن أنيق للكتب.. أسئلة المستقبل لن يجيب عنها أحد سوانا.

سلامة أحمد سلامة



Van Heusen
THE MASTER SHIRTMAKER
فــان هــاوزن
القميــــص الرجـــــالى الأول
Van Heusen
Van Heusen
Van Heusen
شركة النيل للملابس
الإدارة العامة وإدارة المبيعات: ١٤ ش جزيرة العرب - المهندسين ٣٤٥٤٢٧٧ - ٣٤٦٨٠٩١ - ٣٠٣٠٩٢١ - ٣٤٥٦٦٨١ فاكس: ٣٤٦٩١٩٦